البشرى ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] يعنى : كيف ألد وأنا عجوز عقيم .

إذن : قاستْ المسألة بمقياس الأسباب البشرية ، فالأسباب البشرية تقول أنها مستحيل أنْ تلد ، لكن الله تعالى مقياساً آخر ، ولقدرة الله كلام آخر نطقتْ به ملائكة الله .

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] كلمة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] يعنى : ما دام قد قال سبحانه فهو أمر واقع لا شكَّ فيه ، لأن قدرة الله فوق الأسباب .

وهذا التعجب من السيدة سارة لما بُشِّرتْ بإسحق ، رأيناه من السيدة مريم لما بُشِّرت بعيسى عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ..﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه ، والعليم هو الذى يحيط علمه بكل شىء ، ويعلم أنه إذا أمر بشىء أطاعه ولم يمتنع عليه .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالَ .. ﴿٣١﴾﴾ [الذاريات] أى : سيدنا إبراهيم عليه السلام للقوم الذين دخلوا عليه ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الذاريات] يعنى : ما شأنكم ؟ وما حكايتكم ؟ وما الأمر الخطير الذى جئتم من أجله ؟

كلمة الخطب تدل على الأمر الخطير وحدث هام أراد أنْ يعرف ما هو وهل هو متعلق به أم بغيره ؟

وهذه الكلمة جاءت بهذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ..(٥١) ﴾ [يوسف] أى : الأمر العجيب الذى حملكن على هذا الفعل .

وقالها سيدنا موسى لما رأى ابنتىْ سيدنا شعيب قد خرجتا لسَقْى الغنم ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا.. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : ما الذى ألجأكنَّ للخروج ، فكأنه أمر عجيب غير عادى . إذن : هذه الكلمة وُضعت للأمر الخطير الذى يدعو إلى الدهشة والتعجب .

فردَّ الملائكة ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [الذاريات] وهنا اطمأن سيدنا إبراهيم ، وعرف أن الأمر لا يتعلق به ، والقوم المجرمون فى هذا الوقت هم قوم لوط ، ثم بيَّنوا مهمتهم ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

ومفهوم أن الحجارة تختلف عن الطين ، الحجارة فيها صلابة وقساوة تختلف قوة وصلابة حسب نوع الحجر بداية من المرمر ، ثم الجرانيت والرخام والجير .

فكيف تكون الحجارة من طين ، وهما وصفان فى الظاهر متناقضان ؟ قالوا : هو طين أحْمِى عليه فى النار حتى صار صلْباً قاسياً ، كما نفعل مثلاً فى صناعة الفخار .

ومعنى ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ [الذاريات] أى : مُعلَّمة ، فكلُّ حجر منها يحمل اسم صاحبه وعنوانه ، فهو مُخصص له لا

لغيره ومُوجَّه إليه لا يخطئه .

وقـوله ﴿عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] دلّ على أنهـا نزلتْ من السمـاء وليستْ من حجـارة الأرض ، وأنها مُعلَّمـة من عند الله جاءت هكذا جاهزة ، ونحن مـهمتنا أنْ نرميهم بهـا بأسماء أصحـابها ، فلا يختلط حجر بحجر .

ومعنى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات] المسـرف هو الذى تجاوز الحـدَّ فى المـعصـيـة فكأن هناك حـدوداً للأمور ، وحـدوداً للحـلال وحدوداً للحـرام ، وقد بيَّنهـا الحق سبـحانه ، وعلَّمنا كـيف نقف عند هـذه الحـدود ، فقـال تعالى فى الحلال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وقال فى الحرام ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] أى : قفْ عند حدود الحلال لا تتجاوزه إلى غـيره ، أما الحرام فإياك أنْ تقربه . احذر مجرد الاقـتراب منه ، لأنك لو اقتربتَ منه تُوشك أنْ تقع فيه فهى حماية لك .

كما قال سبحانه لآدم ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] وقال ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢)﴾ [الإسراء] ففى الحرام لا يمنعنا من الفعل ، بل يمنعنا من الاقتراب من أسبابه .

ففى أىِّ شىء أسرف هؤلاء المـجرمون المسرفـون ؟ أسرفوا فى فعل مُحرَّم يناقـض الطبيعة النقية التى خلقـها الله ؛ لأن الله تعالى لما أراد أنْ يجـعل خليفـة فى الأرض خلق آدم وخلق مـعـه زوجه ليـتم التكاثر ، وتأتى القـبائـل التى تعمـر الأرض ، لأن عمـارتها لا تقـوم

بواحد أو اثنين إنما تحتاج إلى جمهرة من الناس .

ثم جعل التكاثر أيضاً فى كل شىء يريد له النمو والاستمرار ليخدم هذا الخليفة ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩)﴾ [الذاريات]

فإذا كان الإنسانُ سيتكاثر فلا بدَّ أنْ تكبر رقعة الأرض التى يعيش عليها ويتكاثر النبات الذى يعيش عليه ، قال تعالى : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١)﴾ [النساء] إذن : نحتاج إلى زرع يتناسب وهذه الزيادة .

والمتأمل فى مسألة التكاثر هذه فى النبات وفى الإنسان يجدها بحسب أهمية الشىء ومدى الاستفادة منه والانتفاع به . قلنا مثلاً : حينما تزرع الفجل يمكن أنْ تأكل منه بعد عشرة أيام ، والخيار بعد أربعين يوماً ، والتمر بعد أربعة أعوام .

فكل شىء قبل أن يعطيك يأخذ منك على قدر أهميته ، فإنْ أردتَ الإنسان فإنه ولا شكَّ يحتاج إلى كثير من الجهود والتبعات ، لذلك ربطه الخالق سبحانه فى مسألة التكاثر بلذة جامحة تفوق كلَّ لذة أخرى يشعر بها الإنسانُ فى كُلِّ جوارحه تفوق لذة العين حين ترى ، والأذن حين تسمع ، واللسان حينما يتذوق ، والأنف حينما يشم ، واليد حينما تلمس ، لأن الجوارح لكل منها مهمته ووجهته .

أما لذة الجنس فهى تستغرق الجوارح كلها ، ولولا أن الخالق سبحانه ربط التكاثر بهذه اللذة ما أقبل أحدٌ عليه ولا تحمَّل تبعاته .

ولك أنْ تتصور الفرق بين تربية طفل وتربية حَمَل أو عجل مثلاً ، الحَمَل يقوم ويمشى خلف أمه بعد عدة دقائق من ولادته ، والطفل

يمشى بعد عام ونصف العام .

ومَشْيه يأتى على مراحل ، فبعد عدة شهور يستطيع أنْ يجلس ، وبعد عدة شهور أخرى يحبو ثم يقف ثم يمشى .

لذلك نرى طفولة الإنسان أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، ومن هنا ربط الخالق سبحانه عملية التكاثر فى الإنسان بهذه اللذة الجارفة التى لا يستطيع الإنسانُ مقاومتها لتكون حافزاً له على التكاثر ، وإلا ما أقبل على تحمُّل هذه المسئولية وهذه المعاناة .

ومن هنا أيضاً اهتم الإسلام بتكوين الأسرة ، ووضع لها من الضوابط ما يكفل لها النجاح ، فهذه الغريزة لا تأتى هكذا كما فى الحيوانات ، إنما جعل لها قواعد لاختيار الزوجة الصالحة ، وحَثَّ على اختيار ذات الدِّين ، وجعل فترة للخطوبة ليتعرَّف كلٌّ طرف على الآخر .

وأباح لكل منهما أنْ ينظر إلى الآخر ليختار كلٌّ من الزوجين ما يناسبه ويُرضى ذوقه ورغبته فى الجنس الآخر ، ثم شرع المهر وعقد القران ، كل ذلك لتكون نواة الأسرة قوية متينة ، مُعدَّة لاستقبال الحياة بكلِّ ما فيها من تبعات ومسئوليات .

والجريمة التى ارتكبها هؤلاء القوم واستحقوا بها ما حاق بهم من ألوان العذاب أنهم صرفوا هذه الغريزة التى جعلها الله فى الإنسان عن وجهها الحلال إلى وجه آخر محرم لا فائدة منه ولا ثمرةَ له .

وجه ينافى الفطرة السليمة والأذواق المستقيمة ، فكانوا يأتون الذكران بدل أنْ يأتوا النساء كما أحل الله ، ومعلوم أن الإتيان مقصور على مكان الحرث والاستنبات .

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ[1] أَنَّىٰ شِئْتُمْ ..(٢٢٣)﴾ [البقرة]

إذن : فعلتهم هذه كانت إسرافاً منهم على أنفسهم ، ومجاوزة للحد الذى شرعه الله ، والإتيان فى غير المحلِّ يستوى فيه إتيان الرجل وإتيان المرأة فكله محرم .

ولما كان هذا الفعل زنا يستحق الرجم رجمهم الله لا بحجارة من الأرض ، إنما بحجارة من السماء تنزل على كلِّ واحد منهم باسمه تخصُّه دون غيره ، بحيث لم تُبْقِ منهم أحداً وأبادتهم عن بكْرة أبيهم .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

أى : قبل أنْ ينزل بهم العذاب أخرجنا مَنْ كان فى القرية من المؤمنين ، والمعنى : ما قلنا لهم اخرجوا ، إنما هيأنا لهم سبيل الخروج بخواطر قذفناها فى نفوسهم ، فخرجوا ولم يُصبْهم العذاب .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا .. (٣٦) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [الذاريات] إذن : تكلم أولاً عن المؤمنين ثم عن المسلمين ، ومعلوم أن الإيمان أعم من الإسلام ، فالإيمان أمر عقدىّ ،

(١) الحرث : المزدرع . وكنى به ها هنا عن الجماع ، فسماهن حرثاً لأنهن مزدرع الأولاد كالأرض للزرع . ومعنى ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم مقبلة أو مدبرة وعلى كل حال إذا كان الإتيان فى الفرج ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطية والسدى وغيرهم . وهناك قول آخر أى : إن شئتم ومتى شئتم وهو قول ابن الحنفية والضحاك . قاله فى زاد المسير لابن الجوزى .

والإسلام أمر سلوكى ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

والإيمان والإسلام يلتقيان فى أنك لا تُسلم زمامك فى التكليف إلا لمَنْ آمنتَ بحكمته فى التكليف ، أما إنْ نافق المؤمنُ أو راءى فموضوع آخر ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ[1] آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فردَّ عليهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤) ﴾ [الحجرات] أى : الإسلام الظاهرى ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

إذن : هنا قال فى الناجين المؤمنين والمسلمين ، وفى موضع آخر قال : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] لأن الأهلية على حقيقتها ليستْ أهلية الدم والنسب ، إنما أهلية الدعوة ، أهلية اتباع بدليل قول النبى ﷺ : « سلمانُ منَّا أهل البيت »[2] .

وسيدنا نوح لما قال لربه عز وجل : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..(٤٥) ﴾ [هود] قال له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية والمكان الذى حدثت فيه هذه العملية ، قالوا :

---

(١) الأعراب هم أهل البوادى والصحارى فليسوا من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وفيهم غلظة وقسوة قد يكون ناتجاً عن بيئتهم وبيوتهم التى يسكنون فيها من خيام فى العراء ، ومنهم : ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ [التوبة] .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦١٦ ، ٦٦١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٩٠٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٠٦) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٦) من حديث كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده .

الآية الباقية بعد هلاكهم هى الحجارة التى أهلكهم الله بها ما تزال موجودة ، ومَنْ يراها يقول : هذه ليست من حجارة الأرض ، بل هى نوع آخر هى الحجارة التى نزلتْ على هؤلاء المجرمين فأهلكهم الله بها . وهكذا تظل هذه الآية باقية لردْع كلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أنْ يفعل فعلهم .

وقالوا[1] : بل الآية التى تركها الله شاهداً عليهم هى عَيْنٌ مُنتنة ، لا يطيق الإنسانُ أنْ يشمَّها .

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ[2] وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن طرف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام تُحدثنا الآن عن سيدنا موسى عليه السلام ، لماذا ؟ لأن القرآن كثيراً ما يأتى بإبراهيم وموسى فى قرن واحد لما بينهما من

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : أى تركنا علامة للخائفين من عذاب الله تدلهم على أن الله أهلكهم . وقال فى تفسير آية العنكبوت ٣٥ : فى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أنها الحجارة التى أدركت أوائل هذه الأمة . قاله قتادة . والثانى : الماء الأسود على وجه الأرض . قاله مجاهد . والثالث : الخبر عما صُنع بهم .

(٢) قوله (بركنه) قال مجاهد : بأصحابه . وقال أبو عبيدة : (بركنه) و (بجانبه) سواء ، إنما هى ناحيته . قاله ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية . وقال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة وجوه : أحدها : بجموعه وأجناده . قاله ابن زيد . الثانى : بقوته . قاله ابن عباس . الثالث : بجانبه . قاله الأخفش . الرابع : بميله عن الحق وعناده بالكفر . قاله مقاتل . ويحتمل خامساً بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به .

تشابه فى مسيرة الدعوة إلى الله .

اقرأ : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] وقال : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

فالقرآن يربط بينهما لأن سيدنا إبراهيم أول ما تعرَّض فى أمر الدعوة تعرَّض للرجل الذى حاجَّه فى ربه ، ويبدو من سياق القصة أنه ادَّعى الألوهية بدليل قوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وبعد ذلك كان لإبراهيم مواقف فى إظهار آيات الله للناس ، فهو أول مَنْ علَّمهم أنْ ينظروا فى الآيات الكونية ، ثم كانت له مواقف مع عبدة الأصنام ، خاصة مع أبيه آزر ، ثم جاءت أحداث إلقائه فى النار ، ثم رُزقَ الولد ، وابتُلى بالأمر بذبحه ، ثم جاءت قصة بناء البيت ، إلى آخر أحداث قصته .

لذلك قال الله فى شأنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : أدّاها كاملة لا بالمنطق العادى فى الأشياء ، إنما بمنطق الإجادة والإحسان ، لذلك مدحه ربُّه فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل] أى : يجمع من خصال الخير ما لا يتوفر إلا فى أمة كاملة .

كذلك مرَّ سيدنا موسى عليه السلام بمواقف وابتلاءات مشابهة

---

(١) قال الشوكانى فى (فتح القدير) : اختلف العلماء فى تعيين الكلمات . فقيل : هى شرائع الإسلام . وقيل : ذبح ابنه . وقيل : أداء الرسالة . وقيل : خصال الفطرة . وقيل : هى قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] . وقيل : بالطهارة . قال الزجاج : هذه الأقوال ليست متناقضة لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم .

فى رحلة دعوته لفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فقال لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصص]

الواو فى ﴿ وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨) ﴾ [الذاريات] عاطفة ، فالمعنى فى موسى آية من آيات الله معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات] كذلك فى موسى آيات ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [الذاريات] أى : بحجة واضحة بيِّنة .

وسبق أنْ أوضحنا أن السلطان قد يكون سلطانَ قوة وقهر تخضع المقابل ، أو سلطانَ برهان وحجة يقنعه .

سلطان القهر يقهر القالب ، وسلطان الحجة يقنع العقل ويستميل القلب ، وموسى عليه السلام لم يكُنْ يملك إلا حجةَ الإقناع ، ولا قوة له على فرعون يقهره بها ، فأعطاه الله سلطاناً مبيناً يقنع به فرعون ، وهو الآيات والمعجزات التى صاحبتْ دعوته .

والمعجزة لا تؤتى ثمارها فى القوم إلا إذا كانت من جنس ما نبغوا فيه وأتقنوه ، ولو تحداهم بشىء لا يعرفونه ما كان للتحدى معنى ، لذلك كانت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ القرآن ، لأن العرب نبغوا فى البلاغة والفصاحة ، فتحدَّاهم بما نبغوا فيه .

أما قوم فرعون فقد نبغوا فى السحر فكانوا سحرة ، لكن مُكرهين على السحر بدليل أن فرعون لما استدعاهم من الآفاق لمقابلة موسى بسحرهم قالوا ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) ﴾ [الشعراء] لأن الأعمال التى كانوا يعملونها كانت سُخْرة بدون أجر ، كما رأينا مثلاً فى بناء الأهرامات .

والأصل فى دعوة سيدنا موسى أنه ما جاء ليدعو فرعون إنما ليأخذ منه بنى إسرائيل ، ولينقذهم من بطشه ، هذا هو الأصل لكن جاءتْ دعوته لفرعون على هامش هذا الأصل وتابعة له ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

فقبل أنْ يدعو موسى بنى إسرائيل كان عليه أنْ يخلصهم من فرعون واستبداده بهم ، ومعلوم أن فرعون اضطهد بنى إسرائيل لأنهم ساعدوا الهكسوس لما أغاروا على مصر وتعاونوا معهم ضد فرعون ، حتى انتصر الهكسوس وألغوا الفرعونية وجعلوها ملكية .

لذلك عرفنا أن الهكسوس دخلوا مصر فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن القرآن لما تكلَّم عن حكام مصر تكلم عن فرعون ، لكن لما ذكر يوسف ذكر لفظ الملك ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ .. (٥٠) ﴾ [يوسف] ولم يأت بلفظ الفرعون .

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُخلِّص بنى إسرائيل من قبضة فرعون أرسل موسى لهذه المهمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات]

أى : فرعون أعرض عن موسى ودعوته ﴿ بِرُكْنِهِ .. (٣٩) ﴾ [الذاريات] أى : أعرض بسبب ركنه . أى : قوته وسلطانه وجبروته واستعلائه فى الأرض . أو برُكْنه يعنى بجانبه .

وحين تُعرض عن إنسان تعطيه جانبك ، ثم تدير له ظهرك بعد أنْ كنتَ فى مواجهته ، وهذه المسألة صوَّرها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

وبهذا الترتيب يكون الإعراض عن طالب الحاجة ، حيث يُعرض أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، وهكذا يكون الكَيُّ يوم القيامة جزاءً وفاقاً ، وعلى قَدْر حركات الامتناع عن الخير .

وقوله : ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات] تأمل التناقض حتى فى الاتهام ، فالساحر له قدرة على ترتيب الأشياء ، وعنده ذكاء بحيث يُخيِّل للناس رؤية الأشياء على خلاف ما هى ، أما المجنون فعلى خلاف ذلك ، لأنه لا يُرتِّب الأشياء ، ولا قدرةَ له على السيطرة على مراداته ونزوعه ، لكنه تخبُّط الباطل وإفلاسه .

ثم ينتقم الحق سبحانه من فرعون ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[1] وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أخذهم الله بأنْ ألقى فى نفوسهم حبّ اللحاق بموسى وأغراهم بذلك حتى تبعوهم وخاضوا البحر خلفهم .

فأطبق الله عليهم الماء فأغرقهم بعد أنْ نجَّى موسى وبنى إسرائيل ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [الذاريات] ألقيناهم فى البحر (وهو) أى فرعون ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أى : فعل ما يُلام عليه من عُتوه وجبروته وادعائه للألوهية .

والمعنى : أن الله تعالى لم يُهلكه وجنودَه بظلم أو جبروت ، إنما أهلكهم بما يستحقون من العذاب .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾

(١) اليم : البحر الذى لا يُدرك قعره ولا شطاه . ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء . [لسان العرب - مادة : يمم] .

أيضاً هنا الواو عاطفة تعطف ﴿وَفِي عَادٍ .. ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات] على ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات] وعلى قوله ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الذاريات] والمعنى : وفى عاد آية لكم ، فكأن القرآن يُسلِّى سيدنا رسول الله يقول له : لا تحزن من عناد قومك لك ، ووقوفهم فى وجه دعوتك .

فالعاقبة لك ، ومصيرهم سيكون مثل مصير أمثالهم من المكذِّبين للرسل السابقين ، فلك فيهم عبرة .

﴿وَفِي عَادٍ .. ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات] أتى باسم القبيلة ولم يذكر النبى. وفى موضع آخر قال : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف] فذكر القبيلة لأنه يتحدث عن سوء عاقبتها وما نزل بها لما كذّبتْ نبيها ، وعاد عند الأحقاف .

وقد قال الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر] ثم ذكر بعدها ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص]

فكأن حضارة عاد كانت أقوى وأعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب ، لأن الله أهلكهم بالريح فدفنتهم تحت الرمال ، ولا عجب فى ذلك فهذه منطقة رملية إذا هبَّتْ فيها عاصفة فيمكن أنْ تطمر قافلة كاملة تبتلعها الرمال .

لذلك نجد آثار هذه الأمم حفائر تحت الأرض[١] .

---

(١) من هذه الأمم أمة عاد التى قال الله عنها : ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر] فعن طريق أحد مكوكات الفضاء استطاعت ناسا الوصول لوجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى ، وقد أثبتوا أنها قلعة ذات ثمانية أضلاع سميكة الجدران بأبراج فى زوايا مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها ٣ أمتار (إرم ذات العماد) [مجلة تايم الأمريكية ١٩٩٢/٢/١٧] .

ومعنى ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] أى : الريح المدمرة المهلكة ، لأن الريح قد تهبُّ ليِّنة سلسة رقيقة ، وتسمى النسيم ، وقد تشتد فتكون إعصاراً مدمراً ، فهى آية من آيات الله تكون نعمة وتكون نقمة .

الريح هى الهواء الذى نتنفسه ، وهو أهم عنصر فى عناصر استبقاء الحياة ، ولو مُنع عن الإنسان يموت ولو نَفَس واحد ، والهواء عنصر أساسى فى تكوين الماء وبه تسير السُّحب وينزل المطر ، وبه يحيا الحيوان والنبات وهو الذى يُلقِّح الثمار والمزروعات .

وسبق أنْ قلنا إن الريح تأتى فى الشر وفى الهلاك ، أما الرياح بالجمع فتأتى فى وجوه الخير ، فقال هنا ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] أى المدمِّرة ، وقال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ..(٢٢) ﴾ [الحجر]

ووصف الريح هنا بأنها عقيم ، لأنها لا فائدةَ منها ولا تأتى بخير ، لا مطر ولا لقاح ، إنما تأتى بالشر والخراب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] معنى (تذر) أى : تترك ومثله الفعل تدع ، وكل منهما مضارع ليس له ماض فى اللغة إلا فى قراءة : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] فى قراءة (مَا وَدَعَكَ) بفتح الدال من غير تشديد .

أما الفعل (يذر) فليس له ماضٍ ، فهذه الريح لا تأتى على شىء ولا تمر على شىء إلا أهلكته وتركته ﴿ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] وهو الشىء الجاف الذى تفتت وصار هباءً تذروه الرياح .

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

معنى ﴿وَفِي ثَمُودَ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] أى : وآية أيضاً فى ثمود، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] أى : اذكر إذ قيل لهم ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] وهذا تهديد لهم ووعيد بعد ما فعلوه مع نبى الله صالح ، يقول لهم تمتعوا إلى حين ، فسوف يعاجلكم العذاب ، وسيأخذكم الله أخْذَ عزيز مقتدر .

ومع هذا التهديد والتوعُّد ظلوا على عنادهم ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] فلم يُجد معهم التهديد ، والعتو يعنى : مالوا عن أمر ربهم وتركوه وهجروه .

وهذا الفعل (عتى) عُتواً يتعدى بـ (على) كما فى قوله تعالى : ﴿أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم] وهنا تعدَّى بعن ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] فقد عتوا عن الأمر لا على الآمر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] الصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى تصاحبه إما نار حارقة ، أو ريح مدمرة .

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات] أى لِهول ما نزل بهم فزعوا فزعاً أقعدهم ، فلم يستطيعوا القيام ولا الهرب من باب أوْلَى ، فالصاعقة صعقتهم وأفقدتهم القوى ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات] يعنى : لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم

أحد ، ولم يدافع عنهم أحد .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) ﴾

وقوم نوح أيضاً آية وعبرة ﴿ مِّن قَبْلُ .. (٤٦) ﴾ [الذاريات] قبل فرعون وقبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) ﴾ [الذاريات] خارجين عن طاعة الله مُكذِّبين لنبيه نوح عليه السلام .

وقد بسط القرآن قصتهم فى مواضع أخرى بالتفصيل ، وأن نوحاً لبث فى دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وأنهم صمُّوا آذانهم عن دعوته واستغشوا ثيابهم ، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً إلى أنْ يئس منهم نوح فدعا عليهم .

﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

وهنا أجمل القول فيهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) ﴾ [الذاريات] أى : خارجين عن طاعة الله من قولنا : فسقت الرطبة عن قشرتها . أى : انسلختْ منها .

والرطب هو البلح اللين الذى توفر له الماء ففيه مائية ، لذلك جعله الله تعالى طعاماً للسيدة مريم ، فقال سبحانه : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ..

(١) قال ابن قتيبة : ديّاراً أى أحداً . يقال : ما بالمنازل ديَّار أى : ما بها أحد وهو من الدار . أى : ليس بها نازل داراً . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير . وقال الماوردى : فيها وجهان . أحدهما : أحداً . قاله الضحاك ، والثانى : من يسكن الديار . قاله السدى .

(٢٦)﴾ [مريم] أى : كانت الرطب بالنسبة لها طعاماً وشراباً فى آنٍ واحد .

فهذه صورة بيانية تُصوِّر شرع الله بالغشاء الذى يحمى الثمرة ، فالشرع يحمى المؤمن كما تحمى القشرة الثمرة ، فاحذر أنْ تخرج عن هذا الغشاء الذى يسترك ويحميك ويُزينك .

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ(١) لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾

السماء يُراد بها كلّ ما علانا ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. (٤٧)﴾ [الذاريات] أى بقوة واقتدار وحكمة والبناء يتطلب العملية التى فيها مكين . ثم قال ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا .. (٤٨)﴾ [الذاريات] أى : مهَّدناها وبسطناها .

فالسماء فيها صفة الثبات ، فقال ﴿بَنَيْنَاهَا .. (٤٧)﴾ [الذاريات] والأرض صفتها التغيير ، فالمرتفع منها يصير إلى منخفض والتضاريس عليها يطرأ عليها التغيير ، فقال ﴿فَرَشْنَاهَا .. (٤٨)﴾ [الذاريات] وهيأناها على وضع يُريح سكانها كما نُهىء للطفل فراشه ، فلا يكون فيه ما يقلقه .

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨)﴾ [الذاريات] من كلمة المهد ، وهو الفراش

---

(١) زوجين : أى صنفين ونوعين مختلفين . قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦٤٥٣/٩] .

المريح ، وحتى فراش الطفل دائماً مـا ننظفه ونغيره من حين لآخر ، فكذلك الأرض من صفتها التغيُّر وعدم الثبات .

وقوله سبحانه ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] هذه الكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] جعلتنا ننتظر زوجية لا نعرفها .

ومع تقدم الـبحث العلمى وجـدنا زوجية فى الـذرة ، ووجدنا أن المطر لا يتكوَّن إلا إذا حـدث له تلقـيح ذرى ، وعرفـنا الزوجيـة فى التيار الكهربائي ، ووجدوها حتى فى الجمادات .

وما يزال فى جُعْبة العلماء الكثيـر ، وكلها مسائل كانت العقول لا تطيقهـا قبل ذلك ، لأن الأمة العربيـة التى نزل فيها القـرآن كانت أمة أمية ، ليس عندها شىء من الثقافة ، ولو كُشفتْ لهم هذه الأمور ربما ضاقوا بها وانصرفوا بسببها عن أصل الدعوة .

لذلك الحق سبحـانه وتعالى يعطيهم برقيـة موجزة فى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣)﴾ [فصلت] ليظلّ الباب مفتوحاً يستوعب كل التطورات ويحتاط لكل جديد .

فالسين دلتْ على المستقبل و(نريهم) مضارع يفيـد الاسـتمرار ، فهذه الاكتشافات باقية ، ومعينها لا ينضب إلى يوم القيامة .

---

(١) الأفق : الناحيـة . وخط التقـاء السماء بالأرض فـى رأى العين ويستـعار لمـدى الاطلاع والذكاء فيقال : هو واسع الأفق وجمـعه آفاق . قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

وإذا كانت عمليـة التكاثر فى الغالب والجمهـرة أنها تأتى من ذكر وأنثى ، فالحق سبحانه يحتـفظ لنفسه بطلاقة القدرة ، ويعطينا نماذج من البشر جاءتْ على غير هذه القاعدة .

وكـأنه سـبحـانه يقـول لنا : إياكم أنْ تظنـوا أننى أقف عند هذه الأسبـاب بل أخلق ما أشـاء ، أخلق من زوجين ، وأخلق بـلا زوجين أصلاً ، وأخلق من زوج واحد .

يعنى : استوعبت طلاقة القدرة فـى هذه المسألة كلّ أوجهها ، ثم ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً .. (٥٠) ﴾ [الشورى] فيتوفر الزواج ، لكن لا يأتى التكاثر .

ولأن مـسألة خلق الأزواج كلهـا مسـألة عـجيـبة اسـتهلهـا الحق سبـحانه بقـوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس] يعنى : لا تتعجب لأنك أمام قدرة الله ، وتنزه سـبحانه عن أنْ تقيسه بشىء آخر .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥٠) وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥١) ﴾

هذا أمر بالفرار ، والفرار أى الهـرب يكون من مخُوف يقبل عليك وأنت تخاف منه ، وتريد أنْ تنجو بنفسك منه وتفر إلى مأمن يحميك ، وهذه العملية عناصرها فارٌّ ، ومفرور منه ، ومفرور إليه .

والمخـاطبون هنا من الله تعالى هم عبـاده يقول لهم ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات] من أى شىء يفرون ؟

إذا كان الفرار إلى الله ، فهم يفرّون من كل ما يناقض الله ، ومن كلِّ ما يخالف شرعه ، يفرون من إبليس الذى ينازع الله فى التكاليف ، يفرون من شهوات نفوسهم ، يفرون إلى الله من الأهواء والنزوات ، يفرون من العذاب إلى النعيم المقيم .

إذن : معنى الفرار هنا الانتقال من شىء مخيف إلى شىء آمن ، ولن تجدوا لكم ملجأ آأمن لكم من حضن خالقكم سبحانه ، ففيه الأمن والراحة والسعادة والنعيم ، حتى العقوبة حينما يُشرِّعها على المخالفة يُشرِّعها من أجل أنْ تعودوا إليه وتفروا إلى ساحته .

فهو سبحانه حريص عليكم لأنكم عباده وصنعته ، وكلٌّ صانع يحرص على سلامة صنعته وحمايتها مما يتلفها .

ونحن بدورنا نتعلم من ربنا تبارك وتعالى هذا الدرس فنتقن أعمالنا ، كما علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يُتقنه »[1] .

فإتقان الصَّنعة يزيد النغمة الإيمانية العقدية فى الكون ، ويكفى أن كل مَنْ يرى صنعتك يقول : الله الله ، فتكون أنت سبباً لذكر الله ، وهذه النغمة لا يرددها الإنسان فحسب ، إنما يرددها الكون كله ويطرب لها ، فالإنسان ما هو إلا فرد فى هذه المنظومة الذاكرة .

إذن : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ..(٥٠) ﴾ [الذاريات] تعلقوا بحبله ، واستمسكوا بهديه ، وكونوا فى جانبه ، كونوا مع شرعه ، سيروا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٩٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٠٨٠ ، ٥٠٨١ ، ٥٠٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

معه حيث سار ، كما يقولون عندنا فى الفلاحين (اتشعلق فى ربنا وحط رجلك زى ما أنت عايز) فما دُمْتَ فى جنب الله فلن يضرك شىء ، وصدق القائل :

يا رب حُبك فى دمى وكيانى ... نورٌ أغر يذوبُ فى وجدانى

أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى ... أنا لا أخافُ وفى رضاك أمانى

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ [الذاريات] المتكلم هنا رسول الله فهو النذير من عند الله ، وقال ﴿ نَذِيرٌ.. (٥٠) ﴾ [الذاريات] لأن الفرار يناسبه الإنذار لتفرّ مما يخيفك إلى ما يُؤمِّنك . و﴿ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ [الذاريات] أى : نذارتى لكم واضحة ، وحجتى بيِّنة ظاهرة .

﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾ [الذاريات] أى : لا تتخذوا إلهاً إلا الله تأتمرون بأمره ، ومعلوم أن الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا ما دون الله تعالى ، عبدوها لأنها لا أوامرَ لها ولا تكاليف ولا منهجَ ، لذلك كانت عبادتها باطلة .

أما الله تعالى فهو الإله الحقّ الذى يستحق أنْ يُعبد وأنْ يُطاع فى أمره ونهيه ، والنهى فى ﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٥١) ﴾ [الذاريات] متعلق بالأمر فى ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات] حيث لا إله غيره ، ولا ملجأ لكم إلا هو .

وهذا هو الدين الحق الذى ارتضته الفطْرة السليمة منذ كُنَّا فى مرحلة الذر ، وأخذ الله علينا هذا العهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ..(١٧٢) ﴾[الأعراف]

وما شذَّ الخَلْق عن هذا العهد إلا بسبب الغفلة أو وسوسة

الشيطان ونزغات وشهوات النفوس ، وما عبد الكفارُ الأصنام إلا لإرضاء فطرة التدين فيهم ، عبدوها تديناً بها ؛ إرضاء للفطرة ، وارتياحاً لعدم التبعة ؛ لأنها لا أمر لها ، ولا نهى .

وعلى العاقل قبل أنْ يقدم على العمل أنْ يستحضر عواقبه والجزاء عليه ، فحينما يُقبل على المعصية يتصوَّر العذاب الذى ينتظره عليها ، وحينما يكسل عن الطاعة يتصوَّر النعيم الذى أُعدّ له ، ولو فعل الناسُ ذلك ونظروا فى العواقب لفرُّوا من المعصية إلى الطاعة .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات] أى : كما حدث لمَنْ تقدم ، وحصل لهم ما حصل من نزول العذاب بهم بالصاعقة وبالريح العقيم فانتظر أنْ ينزل بهم مثل هذا ، فما هم عنه ببعيد ، ولا تحزن فلستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات]

وسبق أن اتهموا رسل الله بالسحر وبالجنون ، فاصبر ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

يعنى : إن لم ينزل بهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة .

وقد رحم الله هؤلاء المكذِّبين لرسوله رغم كفرهم وعنادهم تقديراً لوجود رسول الله بينهم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً على هداية قومه مهما حدث منهم ، وكان يناجي ربه دائماً يقول : أمتى أمتى[1] .

وسبق أنْ بيَّنا بطلان هذا الاتهام ، فالنبى لا يكون أبداً ساحراً ولا مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبى ، لأنه قدوة فى السلوك وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ولو كان ساحراً لسحركم فآمنتم به كما آمن غيركم ، ولو كان مجنوناً لما استطاع ترتيب الأمور على هذه الصورة ولما بلَّغكم رسالة ربه ، ثم إن الاتهام بالسحر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ .. (٥٣) ﴾ [الذاريات] كأن الأمم المكذِّبة على مَرِّ التاريخ أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول : قولوا للنبى ساحر ومجنون ، وكأنه اتفاق مسبق بينهم وإصرار منهم على تكذيب الرسل ، والتمادى فى اللدد والعناد .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاصى أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام " ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك . فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : «إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٠١) والنسائى فى السنن الكبرى (١١٢٦٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٥١٥) وفى الأوسط (٩١٤١) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٧٠٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك يُضرب الله عنهم وعن اتهاماتهم ، ويقول : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾ [الذاريات] أى : دعْكَ من هؤلاء ، فهم قوم طاغون . أى : متجاوزون للحدود[1] .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾

معنى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٥٤)﴾ [الذاريات] أعرض عنهم ودَعْك منهم ، فأنت غير مطالب بأن تحملهم على الإيمان ، وما عليك إلا البلاغ وفقط ، وفى أكثر من موضع خاطب الحق سبحانه نبيه بهذا المعنى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

أنت ستهلك نفسك من أجلهم وحرصاً على هدايتهم ، والهداية ليست مهمتك ، مهمتك البلاغ والهداية من الله ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

يعنى : لو شئتُ لجعلتُهم مؤمنين قهراً كإيمان السماء والأرض ، لكننى أريد إيمانَ القلب لا إيمانَ القالب .

﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤)﴾ [الذاريات] يعنى : لا لوم عليك فى عدم إيمانهم ، وإنْ حدث لوْم لرسول الله فهو لوْم له لا عليه ، لوْم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٥٥) : « أى لم يُوص بعضهم بعضاً بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الكفر » .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

لصالحه ورحمة به ﷺ ، كما لامــه ربّه فى مسألة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم[(١)] فقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ ﴾ [عبس] لامه لأنه كلَّف نفــسه فوق طاقتــها ، وأعرض عن هذا المؤمن حِرْصاً منه على هداية صناديد قريش[(٢)] .

وقوله سبـحانه : ﴿ وَذَكِّرْ .. ۝٥٥ ﴾ [الذاريات] يعنى مهـمتك أنْ تُذكِّـر الناس بالله وبمـنهج الله ، ذكِّـر وفـقط ، ذكِّـر مَنْ جـاءك ومَن انصرف عنك ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ [الذاريات] ، فالمؤمن هو الذى ينتفع بالتذكير ويتمسَّك بالإيمان .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦
مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ[(٣)] ۝٥٧
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، صحابى شـجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعـد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسـول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفـه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غـزواته ، حضر حرب القادسيـة ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة فـقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فـيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٣] .

(٢) الصناديد : جمع صنديد وهو الملك الضخم الشريف . وقيل : السيد الشجاع . والصناديد : سادات الناس وهم حـماة العسكر [لســان العرب - مادة : صند] وقـال فى تاج العروس للزبيدى : « كل عظيم غالب صنديد . فهو الغالب لمن عاداه وعارضه » .

(٣) قوله : لـيعبـدون . أى : ليوحـدون . وقال على رضى الله عنـه : أى إلا لآمرهم بالعـبادة . وقال على بـن أبى طلحة عن ابن عـباس : أى إلا ليقـروا لى بالعبـادة طوعاً وكـرهاً . وقال مجاهد : إلا ليعرفونى . [ذكره القرطبى فى التفسير ٩/٦٤٥٦] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ .. (٥٦) ﴾ [الذاريات] الخَلْق هو إيجاد المادة من عدم وتصويرها على غير مثال سابق ، والخَلْق بهذه الصورة لا يكون إلا لله وحده ، ومع ذلك لم يحرم خَلْقه من هذه الصفة ، فأعطاهم صفة الخَلْق على قدرهم .

وقال سبحانه عن نفسه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فأنت خالق حينما تبرز للوجود شيئاً جديداً لم يكُنْ من قبل ، كالذى يصنع الكوب مثلاً من الرمل يُسمَّى خالق لأنه أوجده ، نعم هو خالق ولم يُحرم ثمرة جهده .

أما الحق سبحانه فهو أحسن الخالقين ، ومعلوم أن البشر يخلقون من مادة موجودة ، أما الحق سبحانه فيخلق من غير موجود ، البشر يخلقون مادة جامدة لا حياةَ فيها ، أما الخالق سبحانه فيخلق خَلْقاً حياً مُتجدداً ينمو ويكبر ، إلى غير ذلك من الوجوه فى هذه المسألة ، فنحن نخلق لكن الله أحسنُ الخالقين .

ثم إن الحق سبحانه خَصَّ هنا الجنَّ والإنس فى مسألة العبادة ، ولم يذكر خَلْقاً آخر أعظم هم الملائكة ، قالوا : لم يذكر الملائكة فى هذا المقام لأنهم خُلقوا للعبادة وليس لهم اختيار فيها ، فهم مخلوقون بدايةً ، ومُهيَّئون لعبادة الله ، وجُبلوا على ذلك ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

والحديث هنا عن الخَلْق المختار الذى ينتظر منه الطاعة ، وينتظر منه العصيان . فإنْ قلتَ : فلماذا قدَّم الجن على الإنس فى هذه المسألة ؟

قال بعض العلماء : قدَّم الجن على الإنس ، لأن العبادة إما سرية

وإما جهرية ، وعبادة الجن سرية لأننا لا نراهم ، والعبادة السرية أفضل لأنها لا يدخلها الرياء ، أما عبادة الإنس فجهرية فى الغالب ويدخلها الرياء .

وهذا القول يمكن الردّ عليه بأن عبادة الجن سرية بالنسبة لنا ، لأننا لا نراهم لكن جهرية بالنسبة لجنسه ، ويمكن أيضاً أنْ يدخلها الرياء ، فهم يرى بعضهم بعضاً .

لكن يمكن توجيه المسألة توجيهاً آخر ، فنقول : لو أنك قرأتَ القرآن باستيعاب لوجدتَ أن الجن خُلقوا قبلنا ﴿ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر] فقدَّمه على الإنس لأنه خُلق قبلهم .

ثم إن معظم انصراف الإنس عن العبادة بسبب الشيطان وهو من الجن ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] ولهذا قدِّموا علينا فى مسألة العبادة .

والأسلوب فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] أسلوب قصر . أى : قصر خَلْق الإنس والجن على العبادة ، فهى العلة الوحيدة لهذا الخَلْق ، ما خلقهم لشىء آخر سوى عبادته سبحانه .

والعبادة تعنى طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وهذه العبادة بهذا المعنى هى العبادة الحق ، وهى مطلوب الله من العباد ، لذلك لا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً .

وهذه العبادة الحق لا يأتى بها كُلُّ الخلق ، بل يأتى كُلٌّ منهم على قدر روحه وعلى قدْر نظره للإله الحق الذى يعبده .

والناس كبشر متفاوتون فى هذه المسألة ، وأعلاهم فيها هم الرسل ، وأفضل الرسل خاتمهم محمد ﷺ ، فهو الذى حقَّق العبادة على وفْق مراد الحق سبحانه منها .

لذلك البعض يغالى فيقول : ما خُلق الكون كله إلا من أجل محمد ﷺ ، ونقول : يكفى أنه ﷺ أحسنُ عابد لله ، لأن العبادة معنى ، والمعنى لا يتحقق إلا بعابد حَقٍّ ، وهو الذى يؤدى المراد لله .

وهذا العابد الحق لا يأتى من الناس العاديين ، إنما يأتى من الأنبياء وسيد الأنبياء وخاتمهم سيدنا رسول الله ، فهو خير مَنْ حقق العبادة لله .

إذن : علَّة الخَلْق هى العبادة ، والله تعالى مُنزَّه فى أفعاله عن العلة ، فهو سبحانه يفعل ما شاء لما شاء فيما شاء . والعلة الممنوعة فى أفعاله تعالى العلة التى تعود عليه سبحانه .

أما العلة التى تعود على غيره فلها تعليل ، فالعبادة ليستْ له سبحانه إلا لمصلحة الخَلْق جميعاً ، لأنها هى التى تسعدهم فى الدنيا وتُنجيهم فى الآخرة ، ولا يعود على الله منها شىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه ، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

فقد خلق الخَلْق بكامل صفات الكمال فيه ، فلم يزدد بهذا الخلق صفة لم تكُنْ له من قبل ، فهو خالق قبل أنْ يخلق ، ورازقٌ قبل أنْ يرزق ، ومُسبَّح قبل أنْ يُوجد ما يُسبِّحه .

وإذا كانت العبادة كما قلنا طاعة العابد للمعبود فى أمره افعل ولا تفعل ، فهى بهذا المعنى تشمل حركة الحياة كلها ، ولا تقتصر على

الصلاة والصيـام والزكاة كما يريدها البـعض من الذين يعزلون الدين عن حركة الحياة .

يقولون : لا سيـاسة فى الدين ولا دين فى السيـاسة . وهذا قول باطل وغيـر صحيح ، والذين فـعلوا ذلك يريدون أنْ يجعلوا لأنفـسهم سلطة زمنية تخضع لأهوائهم ليفعلوا ما يريدون .

لقد تعمدوا عدم الارتبـاط بمنهج السماء فى إدارة شئون الأرض ، لأن منهج السـمـاء يقيـد حـركتـهم ، ونسُـوا أنه أيضاً يقـيـد حركـة المحكومين لمصالحهم .

إذن : منهج الله شـمل الحـياة كـلها ، من قـمـة لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[1] ، ولو كـان الأمر كما يقولون أنترك القاتل فلا يُقـتل ، ونترك الزانى فلا نقيم عليه الحد ، ونترك شارب الخمر ، ونترك المفسدين يفسدون ، ونترك الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه ؟

إذن : ماذا يريدون من تعطيل شرع الله وعزله عن حركة الحياة ، الحق سـبحـانه جـعل العـبادة لصـالح الخلق ، تنتظم حـركـة حيـاتهم وتسعدهم .

ودائماً فى هذه المسألة نذكر الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركـم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحـد منكم مـا زاد ذلك فـى مُـلكى شـيـئـاً ، ولو أن أولـكم وآخـركـم وإنسـكم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال قـال رسول الله ﷺ : « الإيمـان بضع وسـبعـون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥٣٩) والنسائى فى سننه (٤٩١٩) وابن ماجه فى سننه (٥٦) .

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[١] .

فكيف نُقصى دين الله عن حركة حياتنا ، وقد تدخل فى أبسط الأمور ، فدخل رجل عاص الجنة لأنه سقى كلباً[٢] ، ودخلتْ امرأة النار فى هرة حبستها[٣] ، فما بالك بالإنسان الذى كرَّمه الله ، أنهتم بسياسة الكلاب ونترك سياسة البشر ؟

وورد أيضاً فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، خلقتُك لعبادتى فلا تلعب »[٤] يعنى جدّ فى حركة الحياة ، لأن اللعب حركة بلا فائدة وبلا مغزى ، والله يريد لحركة العباد أنْ تكون حركة نافعة ذات مغزى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٧٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/٩٣) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧٧١٤) والبيهقى فى شعب الإيمان (٦٨٢٣) من حديث طويل عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (١٦٨) وأحمد فى مسنده (١٠٣٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفَّه فجعل يغرف له به حتى أرواه ، فشكر الله له فأدخله الجنة .

(٣) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٩٢ ، ٣٠٧١ ، ٣٢٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار . قال : لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها ، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض » . وهذا لفظ البخارى .

(٤) أورده ابن كثير فى تفسيره لآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] قال : فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : « ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن جدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » ، وهو من الإسرائيليات كما قاله ابن تيمية فى مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/١٨٨) .

فلو أنك أخذت جانب العبادة وأهمها الصلاة مثلاً ، ألستَ تحتاج لإقامة هذا الواجب إلى ستر العورة كيف ؟ ثياب تلبسها ، كيف تصل إليك هذه الثياب ؟

تأمل من أول زراعة القطن إلى أنْ يصلك ثوب تلبسه ، إنها رحلة طويلة من السعى والعمل والجد ، يشترك فيها آلاف يخدمونك فى هذه المسألة .

إذن : حركة الحياة ليست هى الصلاة فحسب ، بل كل ما يعيننى على أداء الصلاة وكل ما يعيننى على أداء الزكاة والصوم والحج .

إذن : العبادة أمر شائع فى كل حركة الحياة ، فكيف نفصل الدين عن حركة الحياة كلها ، فضلاً عن أنْ نفصله عن سياسة أمر الخَلْق وتدبير شئونهم ؟

وقوله سبحانه : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات]

أى : ما أريد من خَلْقى أنْ يرزقونى ، نعم لأنه هو سبحانه الرزاق المتكفّل بأرزاق كُلِّ الخلق ، فكيف ينتظر منهم رزقاً ، وهو يرزق مؤمنهم ، ويرزق كافرهم ؟ كيف وهو موجود سبحانه قبل أنْ يُوجدوا ، وله صفات الكمال كلها قبل أنْ يخلقهم .

ومن باطن هذا الرزق يرزق الناسُ بعضهم بعضاً ، فرزق هذا من يد هذا ، والحق سبحانه وتعالى يشجع العبد على أنْ يعطى فيقول له : حينما ترزق عبدى فكأنك رزقتنى ، وحينما تعطيه كأنك أعطيتنى .

ذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الناس واستدعاهم إلى الوجود ،

وتكفَّل لهم بالرزق ، فيد الله ممدودة لخَلْقه بخَلْقه ، لذلك سمَّى الصدقة على الفقير قرضاً ، فقال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وفي الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، فيقول العبد : يا رب كيف أعودك وأنتَ رَبُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . يا بن ادم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لقد استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندى ... »[1] .

إذن : فعل الخير يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد العبد ، والحق سبحانه وتعالى لو أراد لأنزلَ رزقه إلى عباده مباشرة ، لكن جعله من أيدى الناس لأيدى الناس ليزرع بينهم الألفة والمودة والمحبة ، ويشيع بينهم التراحم وعدم الاستكبار ، فالله يريد للمجتمع أنْ يتكاتف وأنْ يتعاون .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ [الذاريات] فعطف الطعام على الرزق ، لماذا ؟ سبق أنْ بيَّنا أن الرزق هو كلّ ما يُنتفع به ، وعلى هذا فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والكرم رزق ، والصحة رزق وهكذا ، فالرزق هنا الرزق العام لذلك خَصَّ بعده الطعام لأنه أظهر شىء فى الرزق ، وبه تقوم الحياة وتستبقى . قالوا : ولم يذكر الشراب لأنه داخل فى الطعام .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٦١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٨٧٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٦٨ ، ٩٤٩ ، ٧٤٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] السياق هنا يؤكد على هذه الحقيقة ليرسخها فى الأذهان ، ليطمئن كلٌّ منا على أن رزقه مضمون ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] فاستخدم إن ثم الضمير المنفصل هو ﴿ ذُو الْقُوَّةِ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : صاحب القوة . وهذا يعنى أن الذات شىء ، والقوة شىء منفصل عنها .

وفى موضع آخر يتكلم عن القوة والغلبة فيقول : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فالقوة هنا فى الذات ، فلم يقل هنا ذو قوة . لأن المقام مقام بيان للغلبة فى وجه المعاندين .

لذلك قال ﴿ قَوِيٌّ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] والقوى هو الذى يغلب ، لكن قد تتكاتف عليه قوى أخرى تغلبه ، فقال ﴿ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] يعنى : غالب لا يُغلب أبداً . وهنا قال ﴿ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : الشديد فى قوته ، لأن القوة قد يصيبها الوهن فتضعف .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا(١) مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) ﴾

من أساليب القرآن أنْ يذكر المتقابلات ، فبعد أنْ تكلم عن المؤمنين يتكلم عن كفار مكة ، فهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ

(١) قال الفراء : الذَّنوب فى كلام العرب : الدلو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ . وقال ابن قتيبة : أصل الذَّنوب الدلو العظيمة وكانوا يستقون فيكون لكل واحد ذنوب . [زاد المسير لابن الجوزى] . وقد ذكر الماوردى فى تفسيره أربعة أوجه : أولها : عذاباً مثل عذاب أصحابهم . قاله عطاء . الثانى : سبيلاً . قاله مجاهد . الثالث : الدلو . قاله ابن عباس . الرابع : النصيب .

﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] ظلموا بتكذيبهم وعنادهم لرسول الله ووقوفهم فى وجه الدعوة ، فاستحقوا أنْ يكون لهم ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] أى : نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم من المكذِّبين فى الأمم السابقة عاد وثمود وفرعون .

والذَّنوب هو الدلو الذى نُخرج به الماء من البئر ، والحبل الذى يُشدُّ به الدلو يسمى الرِّشَاء ، فإنْ كان الماء كثيراً خرج الدلو ثقيلاً بطيئاً ، لذلك قالوا :

وأبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها .

والشاعر العربى يُعبر عن هذا المعنى ، فيقول :

وإذا امْرؤ مدح امرءاً لِنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءَه
لو لم يقدِّر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءَه

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الرشاء ، كذلك بُعْد النوال عند الممدوح يستدعى طول المديح .

إذن : استخراج الماء بالدلو كانت عادة عربية ، وإن كان الذَّنُوب يُصب له الماء ليشربوا فى الدنيا ، لكن الذنوب هنا سيصب عليهم العذاب صبَاً .

كما قال تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] يصب على المكذبين من قريش ، كما صبّ على قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، لأن الكفر ملة واحدة على مرِّ العصور .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن عذاب قوم لوط قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[1] مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً[2] عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود] فالعذاب الذى نزل بالسابقين ليس بعيداً عن اللاحقين .

وهنا أكد على هذا المعنى فقال : ﴿فَلا يَسْتَعْجِلُون (٥٩)﴾ [الذاريات] لأنه واقع بهم لا محالة وغير بعيد عنهم ، والمسألة مسألة وقت وأوانٍ ينتظرهم .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

كلمة (ويل) قالوا : واد فى جهنم[3] ، وقالوا : ويل . يعنى : هلاك وعذاب ولَعْن من الله لهؤلاء الذين خرجوا عن طاعته ولم يُؤدوا المهمة التى خُلقوا من أجلها وهى عبادة الله وحده .

فلما استغنوا عن الله استغنى اللهُ عنهم ، فأبعدهم من رحمته وخلَّدهم فى عذابه ، فلا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

لذلك حكى الله عنهم : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

---

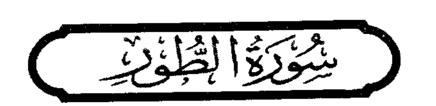
(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] وهى كلمة معربة أصلها سنك وكِلْ أى حجارة وطين . [لسان العرب - مادة : سجل] والسجيل المنضود أى المتتابع المنتظم السقوط عليهم . [القاموس القويم ٢/٢٧١] .

(٢) مسومة عند ربك : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٣) ويل : كلمة مثل ويح ، إلا أنها كلمة عذاب . والويل : حلول الشر . وقيل هو تفجع . والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب . وقد جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً » [لسان العرب - مادة : ويل] .

مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف] وقال عنهم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ..(٥٦) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾ [الذاريات] أى : يومهم الذى وعدهم اللهُ به وحذَّرهم منه ، فالله تعالى لم يأخذهم على غرّة ، ولم يتركهم فى غفلة ، إنما بيَّن لهم العواقب . فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ..(٤٦) ﴾ [فصلت]


سُورَةُ الطُّورِ



سورة الطور(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③﴾

نلاحظ أن مطلع سورة (الطور) يتشابه ومطلع سورة (الذاريات) قبلها ، ففى الذاريات يُقسم الحق سبحانه : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④﴾ [الذاريات] وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥﴾ [الذاريات]

وهنا يقسم الحق سبحانه : ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥﴾ [الطور] وجواب القسم : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ⑧﴾ [الطور] فكلاهما يقسم على صدق الإخبار بيوم القيامة ، وما فيه من العذاب الذى لا يُرد ولا يُدفع .

---

(١) سورة الطور هى السورة رقم (٥٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٩ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . نزلت بعد سورة السجدة وقبل سورة الملك ، فهى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب نزول القرآن . [انظر الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

وحينما نتأمل المقسَم به فى الموضعين نجده فى سورة الذاريات أقسم بأشياء مادية ، أقسم بالرياح والسُّحب التى تحمل الماء الذى يُحيى الأرض .

وفى الطور أقسم بأشياء روحية قيمية ، فالمادة تسعدك فى الدنيا ، والقيم تُسعدك فى الدنيا والآخرة ، والدنيا مهما طالتْ تنتهى إلى الآخرة الباقية التى لا نفادَ لنعيمها .

لذلك خاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..(٢٤) ﴾ [الأنفال] يخاطبهم وهم أحياء يُرزقون ، إذن : يقصد حياة أخرى غير هذه الحياة ، يقصد حياة القيم ، حياة النعيم الدائم الذى لا يزول .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] الحيوان أى : الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها فناء .

لكن لماذا أقسم الحق سبحانه هنا بالطور ؟ قالوا : لأن الرسل كُلّموا بالوحى ، أما موسى عليه السلام فكلَّمه الله مباشرة بالكلام المباشر من على هذا الجبل ، ومن هنا كانت لجبل الطور منزلة خاصة .

ذلك لأن بنى إسرائيل قوم عندهم لدد وعناد فى الخصومة ، ويميلون إلى المادية فى كل شىء حتى فى الدين ، لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة] فلو قال لهم : إن الوحى أتانى سِراً ما صدّقوه .

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾ [الطور] الواو هنا واو القسم ، فالحق سبحانه يقسم بالطور أى جبل الطور . وقلنا : إن الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، والطور وردتْ فى القرآن عشر مرات لِعظم هذا المكان عند الله .

ومن على جبل الطور كلم الله سيدنا موسى ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ ﴾ [الطور] كتاب أى مكتوب وهو التوراة وفيها الألواح . ومسطور يعنى : كتابة منظمة فى سطور (مش منعكش) .

وقوله : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣ ﴾ [الطور] الرقّ : كل ما يُكتب فيه من جلد ، وهو أول ما كتبوا فيه أو عظم أو غيره ﴿ مَّنْشُورٍ ۝٣ ﴾ [الطور] مبسوط غير مطوى أو مُغلق ، مثل تاجر القماش ينشر لك الثوب ويعرضه عليك ، وهذا يعنى أنه ثوبٌ جيد لا عيبَ فيه ولو كان فيه عيب ما نشره ، وما أعطاك الفرصة لتتفقده .

فالحق سبحانه نشر كتابه وعرضه على الخَلْق ليقرؤوه ، وهذا يعنى أنه كتاب مُحكم دقيق ، لا عيبَ فيه ولا خلل .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ ﴾

معنى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ ﴾ [الطور] قسم بالبيت وهو الكعبة ، وهذا دليل على وجود أُناس فى هذا الزمن استجابوا لمنهج الله وذهبوا إلى البيت وعَمرُوه . وقالوا : البيت المعمور فى السماء وتطوف به الملائكة .

وكأن الله تعالى يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أنى أترجى فيكم لتؤمنوا ولتأتوا إلى عمارة بيتى ، فعندى البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، مَنْ دخله مرة لا يدخله أخرى[1] وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

ومعنى ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور] أى : السماء سقف مرفوع بلا عمد ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور] كلمة مسجور لها معنيان : مسجور يعنى مليء بالماء ، والبحر قسمان : مالح وعذب .

والعجيب أن الله تعالى قال عنهما ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا .. ۝١٢﴾ [فاطر] فلا نأكل الفسيخ من البحر المالح ، إنما نأكل منه السمك كالذى نأكله من الماء العَذْب ، فملوحة الماء لم تؤثر فى طعم السمك .

المعنى الآخر : مسجور يعنى مشتعل ، نقول : سجره يعنى : صيَّره ناراً تشتعل ، ومعلوم أن الماء والنار من المتناقضات ، فهذه البحار التى تزخر بالماء تأتى يوم القيامة وقد اشتعلتْ ناراً بعد أنْ تبخَّر ما فيها من ماء .

ثم يأتى جواب القسم :

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٦٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظه « رُفع لى البيت المعمور فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم » الحديث بطوله .

أى : عذاب الآخرة واقع أى حادث لا شكَّ فيه ، لأن الذى وعد به وأخبر به هو القوى والقادر الأعلى الذى لا يردُّ أحدٌ كلمته ، ولا يقف أحدٌ ليمنعه عن إرادته ، فالله سبحانه ليس له نِدٌّ وليس له شريك ، وليس له نظير ولا معارض .

وما دام الأمر كذلك ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور] أى : لا أحدَ يستطيع أنْ يدفع عذاب الله إنْ وقع ، ولا يمنعه إنْ جاء موعده ، ومتى موعده ؟[1] .

يقول :

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ[2] يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾

الحديث هنا عن يوم القيامة ، وفيه تمور السماء موراً ، فهذه السماء وهذا السقف المرفوع المحفوظ ، وهذا البناء المحكم الذى قال الله فيه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. ۝٤٧﴾ [الذاريات] أى : بقوة وإحكام ،

---

(١) قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب (والطور) إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور] فكأنما صُدع قلبى ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٤٦٣] .

(٢) فى خوض يلعبون : أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً ولا يخافون عقاباً . والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء . وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة . [فتح القدير للشوكانى] .

وقال : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) ﴾ [النبأ]

هذه السماء تمور يعنى : تتحرك وتضطرب أو تتقطع ، كما يحدث للقماش القديم المهترئ ، وفى موضع آخر عبَّر عن هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) ﴾ [المعارج]

وهذا يعنى أن بناء السماء تهدَّم وتفككتْ أوصاله كما تهدَّم كل شىء فى الكون ، حيث لم يَعُدْ لها مهمة ، فمهمة السماء فى الدنيا أنها كانت من أسباب الحياة الدنيا .

أما فى الآخرة فلا حاجة للأسباب ، لأننا هناك نعيش بالمسبِّب سبحانه ، لا حاجة لنا فى هذه الأسباب التى نحيا بها .

لذلك يقول سبحانه فى هذا اليوم : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] يعنى : لسنا فى حاجة إلى الشمس ، لأننا نستضىء بنور ربِّ الشمس ومسبِّبها سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) ﴾ [الطور] كما قال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير] هذه الرواسى الثابتة كالأوتاد على ضخامتها تسير وتتحرك ، ثم تتفتتْ وتتناثر .

قال سبحانه : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) ﴾ [المعارج] أى : الصوف المندوف المتناثر ، نعم فلم يَعُدْ لها مهمة ، كانت مهمتها تثبيت الأرض ، والآن تهدَّم كلُّ هذا النظام وتفكك .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ [الطور] ويل لهم ، لأنهم أخذوا بالأسباب وانتفعوا بها ونسوا المسبب ، فها هى الأسباب تفنى ولم يَبْقَ إلا مُسبِّبها الله الذى كفرتم به وكذَّبتم رسله ، والآن لا يأخذ خير المسبب إلا من آمن به وصدق رسله ساعة بقاء الأسباب .

لذلك نقول : إياك أنْ تغترَّ بالأسباب مهما طاوعتك ومهما أعطتْك ، واعلم أن وراء الأسباب مُسبِّبها .

تذكرون أن باكستان فى فترة من الفترات خططتْ لزراعة مساحات واسعة من القمح ، وجاءت دراسة الجدوى تُبشِّرهم بالاكتفاء الذاتى ثم التصدير حتى لأمريكا ، وفعلاً زرعوا القمح حتى قارب على الاستواء ، فنزلتْ عليه آفة أفسدته ، وفى هذا العام استوردوا القمح لأنهم اعتمدوا على الأسباب ونسُوا المسبِّب سبحانه .

أيضاً فى قصة قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ..(٧٨)﴾ [القصص] فلما اغتر بعلمه وفَهْمه تركه الله وقال : احفظ مالك أيضاً بعلمك ، ثم جاءته الطامة التى لا يستطيع أنْ يدفعها ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ..(٨١)﴾ [القصص] فأين عنديتك الآن ؟

نعم ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الطور] الذين كذَّبوا بالله الموجد الأعلى وكذَّبوا رسله ، وظنوا أن الحياة الدنيا هى الغاية ، وهى نهاية المطاف كما يقول الذين يؤمنون بالطبيعة ويكفرون بالله .

لذلك زاد فى تعريفهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)﴾ [الطور] وفى موضع آخر قال : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا .. (٤٢)﴾ [المعارج]

والخوض يكون فى الماء ، وفيه إشارة إلى التخبُّط وعدم الهدى ، فأنت مثلاً حينما تسير على قدميك على الأرض تستطيع أنْ تتحسَّس مواضع قدمِك ، وتشعر بأماكن الخطر فى الطريق لأنك تسير فيه على هدى وبصيرة .

لكن حينما تسير فى الماء فأنت لا تعرف أين تضع قدميك ولا

تأمن العطب ، لذلك حين نتأمل القرآن الكريم نجده لم يستخدم الخوض إلا فى الباطل ، فقال : ﴿ثم ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام] وقال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ..(٦٨)﴾ [الأنعام]

وقد عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)﴾ [الذاريات] كأنهم فى ماء يغمرهم ويتخبطون فيه .

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾

الفعل ﴿يُدَعُّونَ .. (١٣)﴾ [الطور] من دعَّ نقول دعه . أى : دفعه بشدة وعنف حتى كفأه على وجهه ، ومنه قوله سبحانه : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون] أى : يدفعه بقسوة .

فالذى جاءه يتيم جاءه ليطلب منه حاجة تقيم حياته ، وكان بوُسْعه أنْ يُعطيه أو يردّه ويسكت عنه دون أذىً ، لكنه دعَّه ودفعه وآذاه ، لذلك استحقَّ هذا الجزاء .

كذلك الحال هنا مع هؤلاء المكذِّبين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور] أى : يُساقون إليها دَفْعاً شديداً قوياً ، دَفْعاً فيه إهانة لهم ، ومن الذى يدفعهم نحو النار ؟ إنهم الملائكة .

ووالله لو كانوا بشراً لكان كافياً فى إذلالهم ، كما ندفع المجرم فى الدنيا إلى باب السجن مثلاً ، فما بالك حين تدفعهم ملائكة العذاب

إلى داخل النار ، فإذا دخلوها تتلقَّاهم ملائكة أخرى لهم معهم مهمة أخرى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر]

إذن : الدَّعّ هنا يتناسب وقوة الملائكة ، فكيف يكون ؟ ومن الإهانة لهم أنْ يقابلهم الملائكة بهذه الحقيقة : ﴿هَـٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور] أصبحتْ عياناً تشاهدونها ، وتقاسون حرَّها .

﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا(١) فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

تأمل هذا التوبيخ والتقريع ، فقد كانوا يتهمون الرسول ويقولون ساحر ويقولون للقرآن سحر ، فالآن يخاطبهم بنفس كلمتهم ، يقول لهم ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا .. ﴿١٥﴾﴾ [الطور] أى : هذا العذاب الذى تُقاسُونه أهو سحر ؟

السحر تخييل لا تتألمون منه ، لكنكم تتألمون . إذن : ليس سحراً بل هو حقيقة ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور] إما هذه وإما هذه .

﴿اصْلَوْهَا .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] ادخلوها أى جهنم ، وذوقوا حرّها وعذابها .

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] هذه أول مرة نرى الصبر لا فائدة منه ، وليس له أجر ، إنه صبر هؤلاء على حرِّ جهنم .

---

(١) صلى النار : قاسى حرّها . وأصلاه الله النار : أدخله إياها . ومنها قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر] أى : سأدخله النار . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ .. (١٦) ﴾ [الطور] يستوى عندنا صبرتم أو لم تصبروا ، فالأمران سيان ، ولن تخرجوا منها أبداً ، وهذا ليس ظلماً لهم إنما جزاءً وفاقاً .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [الانفطار] لم نأت بشيء من عندنا ، إنما هى أعمالكم نُوفيكم إياها ، فأنتم الذين وضعتم أنفسكم هذا الموضع .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ(١) بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

ذِكْر المتقابلات سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ومظهر من مظاهر عظمته ، فكما قلنا : الضد يظهر حُسْنه الضد ، لذلك كثيراً ما نقرأ هذه المتقابلات كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ تكلَّم عن الكافرين وجزائهم فى جهنم والعياذ بالله يُحدِّثنا سبحانه عن المتقين وما ينتظرهم من النعيم .

فساعة نقرأ هذه الآيات ونستحضر الصورتين المتقابلتين يقول

---

(١) فكِه : مرح ومزح وتحدث بالفكاهات والطرائف فهو فاكه . والفاكه : الناعم العيش . [القاموس القويم ٢ / ٨٨] .

المؤمن : الحمد لله أن إيمانى أنقذنى من هذا المصير المخزى .

ويقول الكافر : يا حسرتى لقد أبعدنى الكفر وحرمنى هذا النعيم .

فالمقابلة تُفرح المؤمن وتُحزن الكافر ، تُعز المؤمن وتُذل الكافر ، لذلك قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الطور] معنى التقوى أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، وقلنا : إن الحق سبحانه قال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة] وقال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..﴿٢٤﴾﴾ [البقرة] والمعنى واحد هو أنْ تجعلَ بينك وبين صفات الجلال لله وقاية ، وحين تقى نفسك من النار فإنك تقى نفسك من الله ، لأنها جُند من جنود الله .

وتلاحظ هنا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطور] (المتقين) جمع و (جنات) جمع . وهذا يعنى أن لكلِّ مُتَّق جنة خاصة به ، كما لو قلنا للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى : ليُخرج كلٌّ واحد منكم كتابه ، فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

لذلك قلنا فى آية الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] فكيف نجمع بينهما ؟ قالوا : جنتان ، لأن الحديث هنا عن الإنس والجن الثقلان ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن]

فالمراد : مَنْ خاف مقام ربه من الجن له جنة ، ومن خاف مقام

ربه من الإنس له جنة[1] .

وحرف الجر ﴿فِي جَنَّاتٍ .. (١٧)﴾ [الطور] يعنى : أن الجنات ظرف والمتقين مظروف ، الجنة محيطة بالمتقى ، ثم قال ﴿وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور] لأن مَنْ فى الجنة ليس بالضرورة أنْ يكون فى نعيم .

كما نرى مثلاً الباشا يجلس فى حديقة منزله ، وفيها الأشجار والزهور والثمار ، وعنده العامل يقصف الأشجار يُقلِّمها ويرويها ، فالحديقة نعيم فقط لصاحبها ، لكنها ليستْ نعيماً لمَنْ يعمل فيها .

أما هؤلاء المتقون فهم فى جنات وفى نعيم ، فهم يتنعَّمون فيها ، لذلك أكّد الحق سبحانه هذا المعنى ، فقال بعدها : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ..(١٨)﴾ [الطور] أى : فاكهين بما هم فيه من النعيم ، وفاكهين يعنى : فرحين . هذه إضافة أخرى لأن الإنسان قد يكون فى جنة وفى نعيم لكنه غير فرح بما هو فيه .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى مصر بعد الثورة ، حيث رأينا الباشا فلان عنده الحدائق والبساتين وفيها ألوان الفاكهة والثمار ويأكل منها ، لكنه غير فرح بها ويُنغِّصها عليه خوفُ التأميم ، لأنهم كانوا يأخذون الأرض منهم ويُؤممونها للدولة ، فهو فى جنة ، وفى

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فى هاتين الجنتين أربعة أوجه :

أحدها : جنة الإنس ، وجنة الجان . قاله مجاهد .

الثانى : جنة عدن ، وجنة النعيم . قاله مقاتل .

الثالث : أنهما بستانان من بساتين الجنة وروى ذلك مرفوعاً .

الرابع : أن إحدى الجنتين منزلته ، والأخرى منزل أزواجه وخدامه . كما يفعله رؤساء الدنيا .

ويحتمل خامساً : أن إحدى الجنتين مسكنه ، والأخرى بستانه .

ويحتمل سادساً : أن إحدى الجنتين أسافل القصور ، والأخرى أعاليها .

نعيم ، لكنه غير فاكه بها .

ومعنى ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨)﴾ [الطور] أى : بالمسبِّب لا بالأسباب .

فالمتقون فى جنات وفى نعيم وهم فرحون به فاكهون بما آتاهم ربهم ، وفوق ذلك وقبله : ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨)﴾ [الطور] وهذا من تمام النعمة ، فيمكن بعد أنْ يدخل الجنة يخاف أنْ يخرج منها إلى النار .

فيقول له : لا لأن الذى يدخلها يبقى فيها لا يخرج منها ، أو وقاهم عذاب الجحيم بداية قبل أنْ يدخلوا الجنة كما قال سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)﴾ [الطور] وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] أى : فى الجنة كلوا منها واشربوا هنيئاً مريئاً .

فالهنىء هو الطعام أو الشراب تتناوله فتجد له طعماً ولذة تمتعك لحظة تأكل أو تشرب ، لكن ربما أحسستَ بعدها بآثار غير مرغوب فيها ، كأنَّ بعده حموضة فى المعدة مثلاً أو غازات وانتفاخات وغير ذلك .

فهو إذن هنىء لكن ليس مريئاً ، فالله يصف طعام الجنة وشرابها بأنه هنىء ومرىء . يعنى : يمرى عليك ولا تجد له آثاراً ضارة .

وإنْ كان طعام الجنة وشرابها ليس فيه شىء من هذا لأن الإنسان هناك لا يأكل عن جوع ، بل يأكل تفكُّهاً ، وحتى لو لم يأكل لا فرق .

ثم يذكر سبحانه ألواناً أخرى من ألوان النعيم .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ (١) وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الاتكاء هيئة من هيئات الجلوس ، لا يجلس على مقعدته إنما يجلس على جنب ، وهى جلسة تدل على الراحة والطمأنينة ، وأنه لا يوجد شىء يُنغصها .

أما المهموم والعياذ بالله فتجده فى جِلْسته قلقاً لا يكاد حتى يسند ظهره إلى مسند ، لماذا ؟ لأن عنده ما يشغله حتى عن الراحة فى الجلسة .

فقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] دلَّتْ على هدوء البال وخُلوّه من المنغِّصات والهموم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] جمع سرير ، وهو ما يُجلس عليه . ولفظه يدل على السرور ﴿ مَّصْفُوفَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] منظمة مُنسّقة ، موصولاً بعضها ببعض .

لذلك لما ذهبنا إلى فرنسا شاهدنا هناك فنادق غاية فى الروعة والجمال والراحة ، اندهش منها الناس ، فقلت لهم : تندهشون من هذا الذى أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

ومعنى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] أى : قرناهم بالحور العين ، والفعل زوّج يتعدَّى بنفسه تقول : زوَّجتُ فلاناً فلانة ،

---

(١) سرر مصفوفة . أى : وُضع بعضها إلى جانب بعض . [زاد المسير لابن الجوزى] وقال الرازى فى مفاتيح الغيب : « يحتمل أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة » .

لأن الزواج هنا مصلحة متبادلة يتمتع بها الزوج والزوجة معاً .

أما فى تزويج الحور العين فهى مصلحة من جانب واحد ، فالمؤمن فى الجنة يتمتع بالزواج بالحوراء ، أما هى فليس لها متعة فى ذلك ، فقال ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ ﴾ [الطور] فتعدّى الفعل بالباء .

ومعنى : الحور العين ، جمع حوراء وهى شديدة بياض العين وشديدة سوادها ، والعِين جمع عيناء ، وهى واسعة العينين فى جمال وملاحة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ(١) وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ٢١ ﴾ [الطور] أى : آمنوا بالله وحده لا شريك له ، وأنه واحد أحد ، واعتقدوا ذلك ، واحد أى ليس معه غيره ، وأحدٌ أى فى ذاته ، وأحد ليس له أجزاء ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ ﴾ [الإخلاص]

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة تأويلات :
أحدها : أن الله يدخل الذرية بإيمان الآباء الجنة . قاله ابن عباس .
الثانى : أن الله تعالى يعطى الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئاً . قاله إبراهيم .
الثالث : أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم . قاله قتادة .
الرابع : أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التى عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها . قاله ابن زيد .

والإيمان لا يكون كاملاً إلا إذا صحبه عملٌ بمقتضى هذا الإيمان ، عمل بالمنهج الذى وضعه لك مَنْ آمنت به ، لذلك قرن فى مواضع كثيرة بين الإيمان والعمل الصالح ، فقال : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١١)﴾ [الطلاق]

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. (٢١)﴾ [الطور] فالرجل آمن وعمل صالحاً واتبعتْه فى هذا ذريته من بعده ، آمن مثله ، لكن عمله دون عمل أبيه وأقلّ منه ، فالحق سبحانه بكرمه ورحمته بالذرية ، وكرامةً للأب المؤمن يرفع إليه ابنه إلى المرتبة الأعلى .

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] ما نقصناهم شيئاً ، زدنا الأبناء ولم ننقص الآباء ، لأن شرط الإيمان متوفر فى الاثنين ، أما العمل فإنْ قَلَّ يُجبر تفضّلاً من الله وتكرّماً .

معنى ذرية هى النسل المتسلسل ، فذرية الرجل أولاده وأولاد أولاده ، فالأب من الذرية ، والابن من الذرية ففيها تسلسل النسب ، والذرية قسمان : ذرية قبل التكليف وذرية بعد التكليف . والمراد هنا الذرية المكلَّفة والمطلوب منها الإيمان والعمل الصالح . وكلمة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] أى : أىّ شىء مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور] رهين صيغة مبالغة على وزن فعيل ، وهذا الوزن يأتى فعيل بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم . وتأتى فعيل بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

وهنا رهين بمعنى مرهون من الرهن ، والرهن كما تعرفون شيء عيني يجعله المحتاج للمال عند صاحب المال ضماناً له حتى يقضي دَيْنه ، فالرهن موقوف على المال حتى يعود إلى صاحبه ، كذلك العبد يوم القيامة مرهون بعمله محبوس عليه .

أو نقول : رهين بمعنى راهن فاعل أي : راهن عمله إنْ خيراً وجده خيراً ، وإنْ شراً وجده شراً .

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الطور] يعني : أن هذا عطاء جديد فوق ما سبق وزيادة عليه ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور] أي : في الجنة يتنازعون الكأس أي : يتجاذبونه . وهذا التجاذب ليس عن خلاف أو بغضاء ، إنما عن موادعة وملاطفة وأُنْس ، فكأنهم يشربون في متعة وانسجام وتدلُّل .

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور] الكأس هو الوعاء الذي يُشرب فيه الخمر ، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان ممتلئاً فإنْ كان فارغاً فهو كوب[1] .

---

(١) قال الثعالبي في فقه اللغة فيما نقله السيوطي في المزهر (١/١٤١) : باب الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها : لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهي زجاجة . ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها الطعام ، وإلا فهي خوان . ولا يقال كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب . ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أنبوبة . ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص وإلا فهو فتخة ... » وهكذا .

ومعنى ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [الطور] اللغو : العمل الذى لا فائدة منه ، وهو الكلام الساقط الذى لا معنى له لكن لا إثم فيه ﴿ وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) ﴾ [الطور] لا إثم فيه ولا يجرّك إلى محرم .

وهذه ميزة خمر الآخرة ، والفرق بينها وبين خمر الدنيا ، أن خمر الدنيا تذهب بالعقل وتحمل شاربها على الهذيان وفقدان العقل ، وبالتالى يحدث منه اللغو ، ويحدث منه الإثم .

أما خمر الآخرة فمنزّهة عن هذا ، لذلك وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] إذن : صفَّاها الحق سبحانه من عيوبها ، فليس لها من خمر الدنيا إلا الاسم ، وإذا رأيتَ الذى يشرب الخمر تراه (يدلقها) فى حلقه هكذا مرة واحدة لماذا ؟ لأنها كريهة الطعم والرائحة .

أما فى الآخرة فيتذوقها ويتمتع بلذتها ، فإذا كانت خمر الدنيا بهذه الصفة فلماذا يشربونها ؟ حين تسأل يقول لك : لأنسى همومى وأحزانى ومشاكلى .

وهذا عجيب لأن الله تعالى لا يريد منَّا أنْ ننسى الهموم والأحزان ونفر منها ، إنما يريد منا أنْ نُعايشها ونعرف أسبابها ، ونحاول التغلب عليها . إذن : لا فائدة من نسيانها وسترها .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ[1] كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾

---

(١) ذكر الماوردى فى تفسيره للآية (الطور ٢٤) : فيه وجهان (نقلاً عن ابن بحر) :
أحدهما : أن يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرَّ الله بهم أعينهم .
الثانى : أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم .

أى : يطوف عليهم فى الجنة غلمان بكئوس الشراب . والغلمان جمع غلام وهو الولد الصغير جميل الصورة . وفى موضع آخر قال تعالى فى وصفهم : ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ .. (١٩)﴾ [الإنسان] يعنى فى سِنٍّ صغيرة ثابتة لا يكبرون عنها ، لأن الغلام إذا كبر صار إلى الشيخوخة ، أما هؤلاء فيقفون عند هذه السِّن ولا يكبرون .

ومعنى ﴿لَّهُمْ .. (٢٤)﴾ [الطور] أى : مخصصين لخدمتهم ، لأن اللام تأتى للملكية وتأتى للاختصاص ، تقول : المال لزيد يعنى ملكه . واللجام للفرس . أى : يخصه لأن الفرس لا يملك اللجام ، وكلمة (لهم) دلَّتْ على أن هذا الساقى يخدمهم دون أجر يأخذه منهم ولا منفعة .

وقوله سبحانه : ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] يعنى : هؤلاء الغلمان فى البياض والصفاء أمثال اللؤلؤ ، واللؤلؤ مشهور بصفائه وبياضه ولمعانه ، فما بالُكَ إذا أضيف إلى ذلك أنه مكنون . أى : مصُون ومحفوظ فى أصدافه ، قالوا : لأنه حين يخرج من أصدافه يتعرَّض للغبار وللأتربة التى تشوب صفاءه .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧)﴾

الكلام هنا ما يزال عن أهل الجنة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾ [الطور] يتسامرون ، أو يسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ .. (٢٦)﴾ [الطور] أى : فى الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] الإشفاق الخوف ، والخوف يكون بكراهية المخوف منه ، ويكون هيبة وتعظيماً لمن تخاف منه .

والمراد هنا خوف الهيبة والتعظيم لأنهم خائفون من الله ، لكن لماذا ؟ قالوا : يخافون التقصير فى عبادة الله ، نعم أطاعوا وأدّوا حَقَّ الله لكن ما عبدوا الله حقَّ عبادته ، فهو يستحق أكثر من هذا .

إذن : خوفهم فيه رجاء وفيه أمل فى الله أنْ يتدارك هذا التقصير ، لذلك قال الله تعالى عن الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء] وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم] ، ومع ذلك قال عنهم : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ..(٥٠)﴾ [النحل] أى : خوفَ مهابة وتعظيم .

أو يكون المعنى ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] أى : يخافون الموت أنْ يُفرقهم ويُشتِّت شملهم بعد اجتماع ، فإذا بهم فى الآخرة أحسن مما كانوا فيه فى الدنيا . أو خائفين من عذاب الله فى الآخرة .

ومعنى ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا .. (٢٧)﴾ [الطور] أى : تفضّل علينا وأعطانا فوق ما نستحق فضلاً منه تعالى وتكرُّماً ، منَّ علينا منّاً لا يعقبه ضرر ، ولا يعقبه عذاب ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] السموم والعياذ بالله هى اللهب الخالص ، وسُمِّيَ السَّموم لأنه ينفذ من مسامّ الجسم .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يذكر هنا حيثية دخـولهم الجنة ونجاتهم من النار ، فالسبب أنهم كانوا كـثيرى الدعـاء ، لم يقولوا بأعـمالنا ، ولكن بدعائـنا وتضرُّعنا ورجائنا فى الله ، ندعوه رباً رحيماً ، بـراً كريماً ، ونطمع فى رحمته التى سبقت غضبه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] فـاسـتجـاب لنا اسـتجـابة ظهرتْ آثارها فى أنـنا دخلنا الجنة ، وصِرْنا إلى أفـضل مما كنا فـيه بدون تعب ولا هَمٍّ ولا حزن ، صِرْنا إلى نعيم لم يكُنْ يخطر لنا على بال .

و ﴿ الْبَـرُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] واسع الكرم والإحـسـان ﴿ الرَّحِـيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] كـثيـر الرحمـة بخَلْقـه تعالـى ، لأنه ربهم وخالقـهم والمتكفِّل بهم ، خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ، ولم يُكلِّفهم إلا بعد البلوغ واستواء العقل إلى غير ذلك من النعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ(١) وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسـول الله ﷺ أنْ يُذكِّر قومه . والتذكير أنْ تعيد ما أخبـرت به وتكرره مراراً ، والتذكير لا يكـون إلا للنسيان ، وهذه

(١) كهن الرجل : صـار كـاهناً كهانة : أخبره بالغيب عـلى سبيل الظن والتخمين وكـانت شائعة فى الجاهليـة ، وقد رموا النبى ﷺ بها فنفـاها الله بقوله عنه ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

طبيعة البشر التى جبلهم الله عليها .

والتذكيـر ينفع من وجوه عدة : أولاً ينفع المذكّـر لأنه حين يُكرِّر التذكـرة لا يُحرَم ثوابهـا ، ثم ينفع المؤمن الـذى تُذكره ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]

فأحداث الحـياة تمر على المؤمن ، ويمكن أنْ تُضـبِّب عنده صفاء العقيدة ، فالتذكير يزيل هذا الضباب ويمسح غبار الغفلة والنسيان .

لذلك كان سيـدنا معاذ كثـيراً ما يسأل سـيدنا رسول الله ﷺ عن المسائل الفائتة .

فقـال ﷺ : « تُعرَض الفـتن على القلوب كالحـصير عـوداً عوداً ، فأيّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيّما قلب أُشْرِبها نُكتتْ فيه نكتـة سوداء ، حتى تكون عـلى قلبين : أبيض مـثل الصفـا لا تضرُّه فتنة ما دامت السـموات والأرض ، وآخر كالكوز[١] مجخياً[٢] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً »[٣] .

كذلك التذكير لا مـانعَ أنْ ينفع الكافر بدليل أن صناديد الكفر فى مكة آمنوا بالتذكير ، المهم أنْ يصادف التذكيرُ قلباً صافياً ليطفىء فيه حمية الجاهلية .

---

(١) كلمة الكوز كلمة عربيـة صحيحة . قاله ابن سيده . وهى من كـاز الشىء : جمعه . وهو إناء من الأوانى له عُرْوة بعكس الكوب فهو بلا عروة . [لسان العرب - مادة كوز - بتصرف] .

(٢) المجخى : المـائل عن الاستقامة والاعـتدال ، فشبّه القلب الذى لا يعى خـيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [لسان العرب - مادة جخا] .

(٣) أخـرجه مـسلم فى صـحيـحه (٢٠٧) وأحـمد فـى مسنده (٢٢٣٤٣) وأبو عـوانة فى مستخرجه (١١٢) من حديث حذيفة بن اليمان .

وقد رأينا هذه المسألة فى قصة إسلام سيدنا عمر[1] ، وكان جباراً فى الجاهلية ، ومع ذلك لما سمع القرآن تأثر به ورقَّ له قلبه ، لأنه لما لطم أخته حتى سال الدم من وجهها تحركتْ عنده عاطفةُ الأخوة وما يلزمها من الحنان ورقة القلب ، فلما انفتح قلبه دخله نور الهدى فأسلم ، إذن : نفعه التذكير .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾ [الطور] الحق سبحانه ينفى عن رسوله هذه التهمة التى اتهموه بها ، وأكد هذا النفى باستخدام أسلوب الخطاب .

﴿فَمَا أَنتَ .. (٢٩)﴾ [الطور] واستخدام الباء فى ﴿بِكَاهِنٍ .. (٢٩)﴾ [الطور] يعنى : ما فيك شىء من الكهانة أبداً ، والكاهن هو

---

(١) ذكر ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين .. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامهم وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها .. فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى كنتم تقرأون آنفاً ، انظر ما هذا الذى جاء به محمد . ولم ترض أخته إلا أن يغتسل قبل أن يمس الصحيفة فاغتسل فلما قرأ منها شيئاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فذهب إلى رسول الله حيث هو وأصحابه فأسلم .

العرّاف الذى يدَّعى علم الغيب ، وكانوا كثيرين فى هذا الوقت .

وكانت لهم خِلْقة شاذة عن الخلق ، فمثلاً كان منهم (شِقّ أنْمار) له نصف عين ، ونصف أنف ، ونصف فم ، ونصف يد ، ونصف رِجْل .

ومثل هذا ربنا رضى له شيئاً من الصفاء ، فكان الشياطين ينزلون عليه ويُوحون إليه بأشياء من استراق السمع قبل بعثته ﷺ ، وقبل أنْ تُغلَق السماء فى وجوههم ، فكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

وسيدنا رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة ، كذلك نفى عنه صفة الجنون ، والمجنون الذى لا عقلَ له ، ولا يستطيع أنْ يُرتِّب الأشياء ولا أنْ يُدبر حركة حياته .

فهل شاهدتم شيئاً من هذا على رسول الله ، وقد عُرِفَ بينكم برجاحة العقل وحُسْن التصرف والصدق والأمانة ؟ كيف وقد مدحه الله بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] أى أن نعم الله عليك كثيرة ، ومنها أنك لستَ كما يقول ، لا كاهن ولا مجنون ، أو ذكِّر بنعمة ربك لا بنعمة الكاهن ولا بنعمة المجنون . ثم ينفى عنه تهمة أخرى ، فيقول :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ (١)

قالوا عن رسول الله بعد أنْ أعيتهم الحيل ولم يجدوا صَدىً لقولهم : كاهن ومجنون قالوا (شاعر) ولم يفلحوا فى هذه أيضاً ، لأن رسول الله جاء فى أمة أفصح ما يكون . عندهم ملكة البلاغة ودقّة الأداء اللغوى والبيانى ، فهم أدرى الناس بالشعر ، ويعرفون أن ما جاء به محمد وما يتلوه عليهم ليس شعراً وما جرَّبوا عليه شيئاً من هذا قبل بعثته .

لذلك قال تعالى فى إبطال دعواهم : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

أين عقولكم المفكرة ، فقد عشْتُ بين أظهركم أربعين سنة ما جرَّبتم علىَّ قول الشعر ، فهل تفجَّر عندى بعد الأربعين ، ومعلوم أن العبقريات تأتى فى العقد الثانى من العمر .

ثم ما الذى كان يضمن لى أن عندى عبقرية تأتى بهذا الكلام قبل

(١) قال قتادة : قال قوم من الكفار : تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر . أى يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء . [تفسير القرطبى ٦٤٧٢/٩] .

أنْ أموت ؟ ثم أنا لا أقول لكم هذا كلامى أنا .

إنما هو من عند الله بوحى من الله لا يُعطى لكاهن ، لأن الكاهن إنما يتلقَّى عن الشياطين ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١)﴾ [الأنعام] ولا يُعطى لمجنون ، ولا يُعطى لساحر ولا لشاعر .

فلما فشلوا فى هذه أيضاً قالوا ﴿أَسَاطِيرُ[1] الأَوَّلِينَ (١٥)﴾ [القلم] وقالوا : إن محمداً يختلف إلى[2] رجل من أهل الكتاب يُعلِّمه هذا الكلام ، لكن فضحهم القرآن وبيَّن كذبهم وتضارب أقوالهم ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

إذن : هذا كله عناد ولدد فى الخصومة لا يثبت أمام العاقل المتأمل .

ومعنى ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور] ننتظر ما يجرى عليه من أحداث الحياة ومباغتة الموت الذى يُريحنا منه ، فردَّ الله عليهم ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور]

فالأمر هنا ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا .. (٣١)﴾ [الطور] أمر للتهديد ، كما تقول لخصمك (أعلى ما فى خيلك اركبه) يعنى : افعل ما شئت ، والمعنى : مهما فعلتَ فلن تنال منى شيئاً .

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة وهى الأحاديث التى لا نظام لها أو لا أصل لها . فهى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) يختلف إلى فلان : يتردد عليه ويجلس إليه من وقت لآخر .

فالله يقول لهم : تربَّصوا كما تريدون ، فلنْ تنالوا منا ولنْ تكيدوا لنا ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

وسبق أنْ جربتم ، آذيتمونا بالكلام فلم تنالوا منّا ، وآذيتمونا بالفعل فما تخلينا عن رسالتنا ، آذيتمونا بالمكر والتبييت على قتلنا ، فردّ الله كيدكم فى نحوركم ، ولما لم تفلحوا فى الكيد الظاهر ذهبتم إلى الكيد الخفى واستعنتم علينا بالجن وبالسحرة ، فما وصلتُم إلى بُغيتكم ، وخيَّب الله سعيكم .

إذن : تربَّصوا كما شئتُم ، واعلموا أننا أيضاً نتربَّص بكم ، وقد شرح الله تعالى هذه المسألة فى آية أخرى ، فقال سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾ [التوبة]

أى : ماذا تنتظرون فينا إما النصر عليكم ، وإما أنْ نُقتل فننال الشهادة وكل منهما حُسْنى ، ونحن ننتظر فيكم : إما أنْ يُعذِّبكم الله فى الآخرة بكفركم ، أو يُعذِّبكم بأيدينا حينما ننتصر عليكم . فتربصوا بنا فلن تصلوا من الكيد لنا إلى شىء ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم[(١)] بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾

---

(١) كلمة (الأحلام) لها هنا معنيان :

الأول : العقول . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله . أى لم يصحبها بالتوفيق .

الثانى : الأذهان . لأن العقل لا يُعطى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة والذهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . [بتصرف من تفسير القرطبى ٩/٦٤٧٤] .

معنى الأحلام : العقول ، والعقول حينما تأمرهم ﴿ بِهَٰذَا .. (٣٢) ﴾ [الطور] أى : بهذا العناد ومصادمة دعوة الله دليلٌ على فساد هذه العقول وفساد هذا التفكير ، لأن العقول لو تُركَتْ للفطرة التى جُبلَت عليها ولو تحرَّرتْ من الأهواء ما انتهتْ إلا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وما وقفت هذا الموقف .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] الحق سبحانه وتعالى كرر (أم) هنا فى عدة مواضع ليعرض كلَّ المواقف والاحتمالات التى مرُّوا بها ، ومعنى ﴿ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] متجاوزون للحدِّ فى الكفر وفى العناد ومصادمة الدعوة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤) ﴾

﴿ تَقَوَّلَهُ .. (٣٣) ﴾ [الطور] اختلقه وأتى به من عند نفسه ، ولما لم تنطل هذه الفرية قالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وهنا يرد عليه الحق سبحانه ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [الطور] يعنى المسألة ليست مسألة قرآن من عند محمد ، إنما المسألة أنهم لا يريدون أنْ يدخلوا ساحة الإيمان ، هكذا ظُلْماً وعناداً واستكباراً عن قبول الحق دون نظر ودون تأمل أو تفكير .

فكلُّ هذه التهم التى حاولوا إلصاقها برسول الله أو بكتابه يعرفون

أنها باطلٌ أتوْا بها من عند أنفسهم ، ليصرفوا محمداً عن دعوته ، وهم يعلمون أنه صادق ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه من عند الله ، لكنهم لا يريدون أنْ يؤمنوا .

لذلك يُعلِّمهم الحق سبحانه كيفية التفكير السليم الموصِّل إلى الحق ، فيقول لهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ[1] ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

أى : اتركوا التفكير الجماعى والكلام الجماهيرى ، لأنه لا يُوصِّل إلى الحق .

إذن : إذا فكرتم وأعملتم عقولكم بطريقة صحيحة فلابدَّ أنْ تصلوا إلى حقيقة ، هى أن محمداً صادق فيما جاءكم به .

والقرآن لا يدعوهم إلى التفكر إلا إذا كان هذا التفكّر سيصل بهم إلى هذه الحقيقة ، لذلك نقرأ كثيراً ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس] ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام]

وقوله سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] يعنى : إنْ كان القرآنُ مختلقاً كما يدَّعون فليأتوا بقرآن مثله أى مختلق ، وهم أقدر الناس على الكلام والبيان ، وأكثر الناس فصاحة ، ولهم أسواق للخطابة وللشعر ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] أى : فى هذا الادعاء .

---

(١) قال الشوكانى فى فيض القدير (آية ٣٤ سورة سبأ) : هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الاجتماع يشوِّش الفكر .
وقال الألوسى فى (روح المعانى) « فإن فى الازدحام على الأغلب تشويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الإنصاف » .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى يسوق لهم البراهين العقلية التى تثبت صدق رسوله فى البلاغ عن الله ، ويتعجب من فعلهم ، وكيف يكفرون بالله ويعاندون دعوة رسوله .

لذلك يسأل : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [الطور] كيف والخَلق إيجاد من عدم ، فهل جاءوا إلى الكون هكذا دون خالق ؟ والعقل يقول : إنه لا يمكن أنْ يوجد شىء إلا بموجد حتى فى أتفه الأشياء .

فى هذا الكوب الذى نشرب فيه الآن كوب كريستال شفاف بعد أنْ كنَّا نشرب فى الصاج أو الفخار ، هل يعقل أن نقول إن هذا الكوب وُجِد هكذا بدون مُوجد ؟ إذن : لابد لهذا الخَلْق من خالق .

ثم ينتقل إلى جزئية أخرى فى مسألة الخلق : ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور] أى: الخالقون لهذا الخَلْق ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

نعم لا يستطيعون أنْ يقولوا غير هذا ، لأن الإنسان طرأ على كون بديع فيه شمس وقمر ونجوم وأرض وماء وهواء وسماء وجبال ، فكيف يقول : أنا الذى خلقته وهو أقدم منه ، ولا يستطيع أنْ يقول خلقتُ نفسى ، ولو قالها فمن الذى خلق أباك وسلسلها إلى أن تصل إلى آدم عليه السلام .

إذن : هذا التسلسل المنطقى لا بدَّ أنْ يصل بنا إلى خالق خلق ولم يُخلق ، هو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك قال بعدها : ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور] فإذا لم يستطيعوا خَلْق أنفسهم فهم من باب أَوْلى ما خلقوا السموات والأرض .

وسبق أن قلنا : إن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد لنفسه ، والقضية تسلم لمن ادعاها إلى أنْ يظهر له معارض ، ولم يقُلْ أحد أنه خلق السماوات والأرض .

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ[1] أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾

يعنى : أهُمْ يملكون خزائن الأرزاق ، فيرزقون مَنْ يريدون ، ويحرمون مَنْ يريدون ، أو يملكون خزائن الرحمة فيرحمون مَنْ يريدون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ [الطور] أصحاب السلطة والسيطرة والأمر والنهى والغلبة .

والجواب : لا هذه ولا هذه ، لأن الله تعالى فقط أمسك عنهم المطر فجاعوا ، حتى أكلوا أوراق الشجر والعلهز[2] ، وهو الدم

---

(١) قال ابن الجوزى فى (زاد المسير) فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : المطر والرزق . قاله ابن عباس .
والثانى : النبوة . قاله عكرمة .
والثالث : علْم ما يكون من الغيب . ذكره الثعلبى .

(٢) العلهز : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير فى سنى المجاعة ، قاله الجوهرى فى (الصحاح) مادة : علا . وقال أبو الهيثم : العلهز دم يابس يُدق به أوبار الإبل فى المجاعات ويؤكل . قاله النووى فى تهذيب اللغة مادة علهز .

المخلوط بالوبر ، ثم ذهبوا يستسقون[1] بعم النبى ﷺ .

واعترفوا أن الخزائن خزائن الله وليس لهم من الأمر شىء ، بدليل أنهم مرة أغنياء ومرة فقراء ، مرة أقوياء ومرة ضعفاء .

إذن : ليس عندهم خزائن شىء ، الخزائن عند مَنْ تكرهه وتكذب به . كذلك ليس لهم غلبة ولا سيطرة على مقاليد الكون ولا إدارة الأمور ، بدليل أن القلة المؤمنة هزمتهم على كثرتهم يوم بدر ، وأسرتْ صناديدهم وجاءوا يُفاوضون رسول الله على أنْ يَفْدوهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾

يقول لهم : أعندكم ﴿ سُلَّمٌ .. (٣٨) ﴾ [الطور] أى : مَرْقى ومصعد تصعدون به إلى السماء فتأتون بمثل ما أتى به محمد ، إذن : هذا إقرار منك بأن السماء فيها شىء ، لكن ينقصكم السُّلم تصعدون به ، والذى ليس عنده سلم أتاه الوحى من السماء إلى عنده .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [الطور] أى : إنْ كان عندهم

---

(١) عن أنس قال : كانوا إذا قحطوا على عهد رسول الله ﷺ استسقوا بالنبى ﷺ فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه قحطوا فأخرج عمر العباس يستسقى به فقال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك استسقينا به فسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ، قال : فسقوا . أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وابن حبان فى صحيحه .

مستمع فليأتِ بحجة واضحة يغلب بها محمداً .

وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾ [الطور] الآية تُسفِّه أحلام القوم فى مسألة البنات ، فقد كانوا يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور .

وقد سجَّل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(١) (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وذكر وأدهم للبنات فقال : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير] ثم نسبوا لله الأدنى ولأنفسهم الأعلى ، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر يبين الحق سبحانه تعديهم فى هذه المسألة فيقول : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة ظالمة . فكيف يكون لله الخالق الجنس الأدنى ولكم الجنس الأعلى ؟

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾

ما زالت الآيات تتساءل عن سبب إعراض هؤلاء القوم وتكذيبهم

---

(١) كظم : سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ فهو كظيم . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

لمنهج الحق ، فهل سألهم رسول الله أجراً على دعوته لهم ، فأثقل عليهم ذلك ولم يقدروا على أدائه ؟

والمَغْرم هو المال الذى يُدفع فى غير جناية أو حَقٍّ ، ومعنى ﴿ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور] مُتعبون لا يقدرون عليه .

وقد سجل القرآن فى عدة مواضع أن الرسل لم تطلب أجراً على دعوتهم للناس ، وأن أجرهم فى ذلك على الله الذى بعثهم ، قال تعالى : ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) ﴾ (١)

أم اطلعوا على الغيب فوجدوا أنهم أسياد فى الآخرة كما كانوا أسياداً فى الدنيا ، وأن آخرتهم ستكون أفضل من دنياهم ، كالذى قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف] والمعنى : أن دعوتك يا محمد لا تهمهم فى شىء ، لأنهم سيدخلون الجنة على أية حال ومن أىِّ طريق !!

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ﴾

أى : يريدون بك كيداً ، والكيد هو الاحتيال والتدبير فى الخفاء لإلحاق الضرر برسول الله ﷺ ، وخطورة الكيد أنه يُدبَّر فى خفاء فلا

---

(١) (أم عندهم الغيب) فيه قولان :

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس . قاله ابن عباس .

والثانى : أعندهم علم الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ، فهم يكتبون أى يحكمون فيقولون : سنقهرك . ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية ٤١ الطور .

تراه لتواجهه ، لذلك هو دأب الضعيف العاجز الذى لا يقدر على المواجهة .

وحين ينتهز الفرصة لا يضيعها كما قال الشاعر :

وضعيفة لما أصابت فرصة   قتلت وتلك طبيعة الضعفاء

وقوله سبحانه : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا .. (٤٢)﴾ [الطور] أصحاب الكيد والتدبير ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ [الطور] كما قال سبحانه ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر] لأنهم حين يكيدون يُخفون كيدهم عن أمثالهم من الناس ، لكن حينما يكيد لهم الله فلا أحدَ يستطيع ردَّ هذا الكيد ، فكيده سبحانه بالكافرين أليم وشديد .

ومعنى ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ [الطور] أى : الواقع عليهم الكيد ، فهى اسم مفعول .

والدليل على أن الله خيَّب سعيهم أنه أبطل كيدهم لرسول الله ، بل وجعل كيدهم ينقلب عليهم ، فهم كادوا لرسول الله ليلة الهجرة ، وأجمعوا على قتله وتآمروا عليه بحيث يتفرَّق دمه بين القبائل ، ومع ذلك التدبير والاحتيال هُزِىء بهم وألقى التراب على رؤوسهم ، ونجا هو ولم يُصبْه أذى .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾

هذا استفهام آخر : ما الذى صرفهم عن دعوة الله ؟ ألهم إله غير الله الإله الحق ، ولو كان أين هو من مسألة خَلْق السماوات والأرض ؟ ولماذا سكتَ ولم يردّ ؟

والحق سبحانه وتعالى يناقشهم فى هذه المسألة ويقول : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يأتى عَجُز الآية ليوضح الاستفهام فى أولها ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [الطور] تعالى وتنزَّه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ﴾ [الطور] وعما يدَّعُون ، لأن الله واحد أحد فَرْد صمد ، ليس له ولد ، وليس له شريك ، وليس كمثله شىء .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾

﴿ كِسْفًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] جمع كسفة ، وهى القطعة العظيمة من السحاب . ومعنى ﴿ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ [الطور] يعنى : مجموع بعضه فوق بعض ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[1] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

انظر كيف تخدعهم الظواهر الكونية ، حيث يظنونها نعمة فإذا بها نقمة وعذاب ، فحينما يـروْنَ قطع السحاب تمرّ بهم يظنون أنها تحمل المطر والخير ، فإذا بها تسقط عليهم عذاباً .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أى : سحاب يسقينا ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) الودق : المطر . وهو المطر كله شديده وهيِّنه . ودقت السماء : أمطرت . وأصل كلمة (ودق) أى دنا . فهو نزول الماء وقربه إلى الأرض .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] دعْهم واتركهم ، والمعنى أنه لا فائدة منهم ولا أملَ فيهم ، فاتركهم ولا تُحمل نفسك فى سبيل هدايتهم ما لا تطيق ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ..﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فاتركهم ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] أى : تصيبهم الصاعقة والهلاك ، والمراد يوم القيامة ، ثم يزيد هذا اليوم بياناً فيقول : ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] أى : كيدهم لرسول الله وتآمرهم عليه .

﴿ ولا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] ليس لهم ناصر من الله ولا دافع يدفع عنهم العذاب ، لأن الأمر لله وحده فى هذا اليوم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ(١) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) هناك أقوال كثيرة فى ماهية العذاب الأدنى من عذاب يوم القيامة :

- أى : لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذاب فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة . أى قبله وهو قتلهم يوم بدر .
- هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . قاله ابن زيد .
- هو الجوع والجهد . قاله مجاهد .
- عذاب القبر . [فتح القدير للشوكانى] .

المراد هنا كفار مكة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وحرموها من نعمة تدوم فى الآخرة إنْ هم آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فهؤلاء لهم ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أى قبل عذاب الآخرة سيلحق بهم العذاب فى الدنيا ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾ [الطور]

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩)﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ بالصبر لحكم الله وقضائه ، وهو أمر مصحوب بهذه الرعاية وهذه العناية التى ما اختصَّ بها إلا سيدنا رسول الله وسيدنا نوح عليهما السلام ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ..(٢٧)﴾ [المؤمنون]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه : اصبر يا محمد على أذى القوم وأنت تحت نظرنا وفى رعايتنا وحفظنا ، فلا تهتم لما يفعلون .

وهذه المكانة خصّ بها أيضاً سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٤٨)﴾ [الطور] منزلة أعلى تناسب مقام سيد الأنبياء محمد ﷺ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : سبِّحه تسبيحاً مقروناً بالحمد ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحان الله والحمد لله ، فهى

كفارة لما قد يكون حدث فى مجلسك وهى تطهير للمجلس وخاتمة له ، والقعود والجلوس بمعنى واحد وهيئة واحدة ولكن القعود يكون عن قيام ، والجلوس يكون عن اضطجاع ، نقول : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد .

أو ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : حين تقوم من نومك فتُسبِّح الله وتحمده على أنْ أعاد عليك روحك ، وأعاد إليك نشاطك بعد النوم ، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أنْ نقول عندما نقوم : سبحان الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[1] ، وأن نقرأ عند القيام من المجلس سورة العصر فهى كفارة لما حدث فيه[2] .

كذلك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ .. (٤٩)﴾ [الطور] أى : سبِّح ربك آناء الليل ، فى أوله وفى آخره ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور] أى فى وقت السَّحَر حينما تغيب النجوم ، فالمعنى سبِّح ربك فى كل هذه الأوقات فهو تسبيح موصول ، ذلك لأن الله أنعم عليك وخصَّك بنعم تستوجب هذا التسبيح وهذا الحمد .

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك أموت وأحيا . وإذا قام قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٣٧ ، ٥٨٣٩) وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث البراء بن عازب (٤٨٨٦) .

(٢) عن أبى مدينة الدارمى وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] ثم يسلم أحدهما على الآخر . [أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٥٢٨١] .


سورة النجم

سورة النجم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ[2] إِذَا هَوَى[3] (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) ﴾

---

(١) سورة النجم هى السورة رقم (٥٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٦٢ آية .
وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن البصرى وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] وقيل : إن السورة كلها مدنية . ولكن قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٨٣) : « الصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة » .

(٢) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : فى المراد بالنجم خمسة أقوال :
أحدها : أنه الثريا . رواه العوفى عن ابن عباس . وابن أبى نجيح عن مجاهد .
ثانيها : الرجوم من النجوم يعنى ما يرمى به الشياطين . قاله ابن عباس .
الثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة . قاله ابن عباس ومجاهد أيضاً .
الرابع : نجوم السماء كلها . وهو مروى عن مجاهد أيضاً .
الخامس : أنها الزهرة . قاله السدى .

(٣) معنى هوى فى الآية يتوقف على معنى (النجم) .
- فعلى قول من قال (النجم) : الثريا . يكون (هوى) بمعنى غاب .
- ومن قال (النجم) هو الرجوم . يكون هويها فى رمى الشياطين .
- ومن قال (النجم) القرآن يكون معنى (هوى) نزل .
- ومن قال (النجم) نجوم السماء كلها ففيه قولان :
أحدها : أن هُوِيّها أن تغيب .
والثانى : أن تنتثر يوم القيامة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

الحق سبحانه وتعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته وهنا يقسم بالنجم ، فالواو واو القسم (النجم) مُقسَم به ، والنجم يُطلق فى اللغة على معنيين : النجم الذى فى السماء كالشمس والقمر .

وقد قال الله فيه ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] أى : فى سيرهم ليلاً ، والنجم هو العُشْب الذى لا ساقَ له وترعاه الإبل فى الصحراء .

وقد جمع الحق سبحانه المعنيين فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن]

وجمعهما الشاعر فقال :

أرَاعِى النجْمَ فِى سَيْرِى إليْهَا ... وَيَرْعَاهُ مِنَ البيدا جَوَادِى

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى ، فالشمس والقمر دلَّتْ على نجم السماء ، والشجر دَلَّ بالمصاحبة على نجم الأرض ، والجميع يسجد لله ويخضع له أعظم شىء وأدنى شىء ، الكل فى الانقياد سواء .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة] فالقسم بالنجم قسَم بآية عظيمة من آيات الله ، والقسَم بالنجم هنا يخصُّ حالة من حالاته .

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) ﴾ [النجم] أى : سقط ، فالنجم علامة فى السماء تهدى السائر وتدلُّه ، فإذا سقط امتنعتْ الهداية ، وامتنعت الفائدة ، لكن محمداً ﷺ ما ضلَّ وما غوى .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وهذا هو جواب القسم ،

---

(١) حسب الشىء يحسبه : عدَّه . وأحصاه حساباً وحسباناً . قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت . [القاموس القويم ١/ ١٥٢] .

وكأنه سبحانه يقول : وإنْ سقط النجم الذى يهدى السائرين ، فنجم محمد لا يسقط أبداً ، نجم السماء يهدى للماديات وهى موقوتة ، ونجم محمد يهدى للقيم وللمعنويات وهى باقية دائمة .

ومعنى ﴿مَا ضَلَّ .. (٢)﴾ [النجم] أى : ما حاد عن الحق ولا مال عنه ، ولا عدل عن سبيل الهدى ﴿صَاحِبُكُمْ .. (٢)﴾ [النجم] هو محمد ﷺ ، وصاحب القوم واحد منهم مُحبَّب إليهم ذو مكانة بينهم ﴿وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] الغواية هى الاعتقاد الباطل ، فما اعتقد محمد اعتقاداً باطلاً أبداً حتى قبل بعثته .

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ[(١)] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾

هذه الآيات امتداد لجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] وهنا يقسم الحق على صفة أخرى لسيدنا رسول الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم] النطق هو القول ، أى ما يقول عن هواه ، ولا يأتى بشىء من عنده ولا باجتهاده .

﴿إِنْ هُوَ .. (٤)﴾ [النجم] أى : ما هو والمراد القرآن الكريم الذى نطق به محمد ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] أى : من عند الله ، وهذا أسلوب قصر : ما القرآن إلا وحى وليس شيئاً آخر .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] الذى علّمه محمداً وأوحاه إليه ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] وهو أمين الوحى جبريل عليه السلام . والقُوَى جمع قوة ، فله قُوى متعددة تناسب مهمته ، له قوة ذكاء فى

---

(١) المرَّة : القوة . وأصل المرَّة : إحكام الفتْل . وإنه لذو مرة : أى عقل وأصالة وإحكام . [لسان العرب - مادة : مرر] .

الاستقبال ، وقوة فى الحفظ ، وقوة فى الإرسال والإلقاء ، وليس لديه هوى يغير ما جاءه ولا خيانة ولا كذب . وهذه الصفات هى التى حمتْ القرآن من التغيير كما غُيِّرتْ الكتب السابقة .

وقد حكى الله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] فسَّرها فى آيات أخرى فقال ، حتى قبل نزول القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] هذه كلُّها صفات جُمعَتْ لجبريل عليه السلام .

وهنا قال : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ [النجم] أى صاحب (مِرَّة) وهى القوة فى كل ما يتناوله ، وهى الدقة التى لا تخطئ ، والمِرَّة صفة تقوى الشىء ، ترونَ الحبل مثلاً عندما يُفتل يكون فَتْله مناسباً لمهمته ، فحبل الغسيل مثلاً غير الحبل الذى يُشدُّ به شراع المراكب .

كذلك مهمة سيدنا جبريل مع سيدنا محمد ، أنْ يؤدى هذه المهمة بقوة ودقة وذكاء بحيث يأتى رسول الله بصورة مقبولة لا تُرد ، صورة فيها تشويق لتلقِّى الوحى ولا تردها طبيعة محمد البشرية ، كذلك كان للكلام حلاوة لأنه كلام الله ليس كلام البشر ، وله ظواهر تدل عليه وعلى مصدره الإلهى .

---

(١) كتاب مكنون : أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

وأول ما جاء الوحىُ رسولَ الله أجهده ، لأنهـا المرة الأولى التى تلتقى فيـها الطبيعـة البشرية بالطبيـعة الملائكية ، لذلك تصـبَّب عرقاً وبرد وقال : زملونى دثرونى ، إذن : أثَّر فـى جسده ونفسـه ، حتى أنه خاف أنْ يكون ما حدث له شيئاً من مسٍّ الشيطان .

ولما أخبر السيدة خديجـة بالأمر وكان لها فطنة فى هذه المسألة فقـالت له : عندما يأتيك أخبرنى ، فـلما جاءه الوحى أخبـرها فجلستْ على ركبته وقالت : أتراه ؟ قـال : نعم ، فكشفتْ عن صدرها وقالت : أتراه ؟ قال : لا ، قالت : إذن هو مَلَك وليس شيطاناً[(١)] .

وتأمل هنا حصـافة السـيدة خديجـة وما تتمـتع به من فقـه قبل نزول الإسلام ، وكـأنَّ الحق سبحـانه أعدَّ للإسـلام أناسـاً من الرجال والنسـاء يستقبلون خـبره الأول ويؤيدونه ويُصدِّقونه دون أنْ ينتظروا معـجزة يرونها ليـصدِّقوه ، لأن مـعجزة رسـول الله عندهم كائنة فى شخصه وفى سيرته بينهم ، معجـزته بالنسبة لهم فى صدقه وأمانته وكرمه ومروءته .

ويكفى أنْ نذكر فى هذا المـقام موقف الصِّديق لمـا قالوا له : إن

(١) أورده ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/١١٧) من حديث إسماعيل بن أبى حكيم مولى آل الزبير أنه حدث عن خديجة أنها قـالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك . قال : نعم . قالت : فإذا جـاء فأخبرنى به فجاء جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . قال فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم على الفخـذ اليمنى ثم فى حجـرها كل ذلك يقول نعم . فتـحسرت فألقت خـمارها ورسول الله ﷺ جـالس فى حجـرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا قـالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان .

صاحبك يدَّعى أنه نبىٌّ ويُوحى إليه ، فقال الصِّدِّيق وكان عائداً من سفر : إنْ كان قال فقد صدق(١) ، إذن : دليل صدقه فى نظر الصديق أن يقول ، مجرد أن يقول يكفى قوله ليصدق .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يعنى : يكفى فى تعريفه أنه (محمد) الذى تعرفونه هو رسول الله ، فمنزلة رسول الله بين قومه لا تحتاج إلى وصف ولا إلى تعريف فوق ذلك .

وكان المنتظر منهم أنْ يقولوا : ومن أوْلَى بالرسالة منه ، لكنهم قالوا كما حكى القرآن ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

ومن معانى ﴿ ذُو مِرَّةٍ .. (٦) ﴾ [النجم] أى : صاحب الخُلق الحسن والمنظر الحسن الجميل ، فكان يأتى رسول الله بالمنظر الحسن الذى يحبه ، وكان ﷺ يحب النظر إلى دحية الكلبى(٢)

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦١/٢) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنه لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢١٣ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) دحية الكلبى : هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبى ، صحابى بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ، حضر كثيراً من المواقع ، شهد اليرموك ، ثم نزل دمشق وسكن المزّة وعاش إلى خلافة معاوية . توفى عام ٤٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ٣٣٧/٢) .

فكـان يـأتى على صورته[١] .

إذن : معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ⑥﴾ [النجم] أى : فيـه كل الصـفات الطيـبة التى تـجعله مـقـبولاً غـير مـردود ، وهو موصـوف مع ذلك بالقوة ، فلما ظهر لرسول الله بصورته الحـقيقية ظهر فى صورة طائر جميل له أجنحة .

كما قال تعالى : ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ①﴾ [فاطر] ويكفى فى بيـان قـوته أنه ضرب قـرى لوط بريشة واحدة من جناحه فدكها وجعل عاليها سافلها .

وما أدراك بمَنْ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾ [النجم] فـالمتـعلّم يشرُف بشـرف المعلم ، كمـا نرى مثلاً خـطيباً مُـفوَّهاً لا يلحن[٢] فى خطبته لحناً واحداً ، فنقول : نعم فالذى درس له فلان .

كذلـك الذى علَّم رسول الله هو جـبريل بكلٍّ مـا عنده من صـفات القوة والذكاء والأمانة والصدق .. ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ⑥﴾ [النجم]

ومعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ ⑥﴾ [النجم] علَّمـه جبريـل حتى اسـتوى

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الـكبير (٧٥٧) عن أنس رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ كان يقول : يأتينى جبريل عليه السلام على صورة دحـية الكلبى . قال أنس : وكان دحية رجلاً جميلاً أبيض . وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٦١) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سمع صوت وثبة شديدة ، فخرج إليه فـاتبعته أنظر فإذا هو متكىء على عرف برذونه وإذا هو دحية الكلبى - فيمـا كنت أرى - وإذا هو معتم مرخ من عمامته بين كـتفيه ، فلما دخل علىَّ رسول الله ﷺ قلت : لقـد وثبت وثبة شديدة ثم خـرجت ، فذهبت أنظر فإذا هو دحـية الكلبى . قال : أو رأيته ؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل أمرنى أن أخرج إلى بنى قريظة » .

(٢) لحن فى كلامه : أخطأ . قـال الزمخشرى فى أساس البلاغة مـادة لحن : « لحن فى كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز » .

رسول الله ونضج فى عملية التحصيل الكافى لهداية العالم ، فحمَّله هذه المهمة ليهدى الناس ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا (موسى) :
﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

لكن كان الوحى فى أوله يثقل على رسول الله كما قال سبحانه : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] فأراد الحق سبحانه أنْ يريح رسوله من هذا التعب ليعطيه الفرصة ليتذوق حلاوة ما ألقى إليه ويشتاق إليه من جديد ، فيكون الوحى أخفَّ على قلبه وتهون عليه معاناته .

ومعلوم أن الإنسان عادة يتحمل المشاق فى سبيل ما يحب ، لذلك لما فتر الوحى عن رسول الله ستة أشهر ، فأخذها أعداء الدعوة فرصة وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] ، سبحان الله ، الآن وفى المصيبة يعترفون برب محمد .

لذلك ردّ الله عليهم ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[2] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

أى : ما ودعك ربك يا محمد وما قلاك ، إنما أراد لك أنْ ترتاح .

ثم أعطاه مثالاً من واقع حركة الكون ، فما أنت بالنسبة للوحى إلا مثل الضحى والليل ، فالضحى للعمل ، والليل للراحة ، ثم يعاود من

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . فأنزل الله : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] .

(٢) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

جديد لتقبل عليه فى نشاط وقوة ، كذلك الوحى سيعاودك وسيكون أحبّ إليك وأيسر عليك ، وستكون الآخرة خيراً لك من الأولى .

ثم إن كلمة الوداع ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] تدل فى ذاتها على المحبة ، فلم يقُل هجرك مثلاً إنما ودَّعك ، والوداع يكون على أمل اللقاء كما يودع الحبيب حبيبه عند سفره .

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ(١) أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾

قالوا : الكلام هنا عن رسول الله ﷺ ، حيث كان بالأفق الأعلى فى رحلة الإسراء والمعراج ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم]

يعنى : رآه مرة فى الأرض ومرة فى السماء ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾ [النجم] أى : أنه ﷺ بعد أن استوى وبلغ الغاية التى تؤهله لأداء رسالته فى البلاغ عن ربه تعرَّض لكثير من المتاعب والأذى من قومه بالقول وبالفعل فى مكة حتى لجأ إلى الطائف فأغروا به سفهاءهم ، ورموه بالحجارة حتى أدْمَوا قدميه .

وفى نفس العام ماتت زوجه خديجة التى كانت تُخفف عنه عناءَ ما يلاقى من قومه ، ومات عمه أبو طالب الذى كان يحميه ويدفع عنه عداوة قريش .

---

(١) قاب قوسين أى : قدر قوسين عربيتين ، أو قدر ذراعين . [القاموس المحيط] والقاب ما بين مقبض القوس والسِّية ، ولكل قوس قابان . [مختار الصحاح (مادة قوب)] .

لذلك سُمِّى هذا العام بعام الحزن كما تعلمون ، حتى أنه ﷺ لما عاد من الطائف عاد مكسور الخاطر ، ولم يجد فى مكة مَنْ ينزله فى داره ، وكما عزَّ عليه النصير فى الطائف عَزَّ عليه الجوار فى مكة ، إلى أن استقبله المطعم بن عدى وكان كافراً ، فأنزله فى جواره ، مما يدلنا على أن الله تعالى قد يؤيد رسوله ودعوته حتى بالكفار .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يجبر خاطر نبيه ، وأنْ يُعوِّضه عن أذى أهل الأرض له ، فقال له : إنْ كانت هذه حفاوة أهل الأرض بك فسأريك حفاوة أهل السماء فأخذه فى رحلة الإسراء والمعراج لتكون تخفيفاً عنه ﷺ .

وهناك رأى الأفق الأعلى ، وكان قاب قوسين أو أدنى من مقام ربه عز وجل ، وهذه هى المراد من قوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى]

وبعد ذلك نصر الله دينه وأيَّد نبيه ، وتساقط أهل الكفر وصناديد قريش ، واحداً بعد الآخر ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : يا عمرو لقد استقام الميسم لصاحبك . يعنى : استتبَّ الأمر لمحمد وعَلاَ نجمه ولم يَعُدْ له منازع[(١)] ، فليس هناك فائدة إلا أنْ نذهب إليه ونؤمن به ، بعدها فُتحتْ مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

إذن : الكلام هنا ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) ﴾ [النجم] أى : رسول الله

---

(١) أخرجه الحارث فى البغية باب (٢٧) حديث (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٩٩ ، ٥٩٤٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨١/٤) وعزاه لأحمد والطبرانى وقال : رجالهما ثقات .

دنا من مقام ربه ومن سدرة المنتهى . ومعنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أى : مقدار قوسين . والقوس هو أداة الرمى المعروفة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أو أقرب من ذلك ، فأو هنا تأكيد لمقدار قاب قوسين .

كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات] فالزيادة هنا تؤكد وجود العدد مائة ألف ، بحيث لا ينقص عن ذلك بل يزيد . كذلك قاب قوسين أو أقرب من القوسين .

ومن المفسرين مَنْ يرى أن الكلام هنا عن جبريل ، فيقولون ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم] أى : ظهر جبريل لمحمد على صورته الحقيقية وبأجنحته التى تسدّ الأفق ، وقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم] دنا جبريل من محمد ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أى : قرب من رسول الله وصار منه على هذه المسافة .

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

أى : أوحى الله تعالى إلى ﴿عَبْدِهِ .. ۝١٠﴾ [النجم] محمد ﷺ[1] ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم] هذا يعنى أن رسول الله لم يرَ

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٩٣) أقوالاً أخرى :
- قيل : المعنى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ.. ۝١٠﴾ [النجم] جبريل عليه السلام ما أوحى .
- المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة .
- أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . قاله قتادة .

الله تعالى بعينه ، بل رآه بفؤاده وقلبه ، فموسى سمع الكلام فى الأرض ، ومحمد رأى ببصيرة قلبه فى السماء .

ومعنى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ .. (١١) ﴾ [النجم] تحذير للذين يُشكِّكون فى هذه المسألة أو ينكرونها ، لذلك يأتى بعدها بهذا الاستفهام الإنكارى :

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾

الهمزة هنا للاستفهام الذى يُفهم منه الإنكار والتعجُّب من تكذيبهم لرسول الله فيما أخبرهم به بعد رحلة الإسراء والمعراج من صعوده للسماء ورؤيته لربه عز وجل .

والفعل ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ .. (١٢) ﴾ [النجم] من المراء وهو الجدل ، لكن جدل بالباطل يُراد منه التكذيب والتشكيك ، ولا يُراد منه الوصول للحق .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) ﴾ [النجم] أى : رأى رسولُ الله جبريلَ مرة أخرى ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] السدرة : هى شجرة السدر التى عن يمين العرش .

﴿ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] أى : عندها ينتهى علم الخلائق ، ولا يتجاوزها أحد من الملائكة فضلاً عن البشر ، وعند هذه السدرة رأى جبريل للمرة الثانية .

وفى هذا المكان من القرب فُرضت الصلاة على سيدنا رسول الله ، والصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت مشافهة ، وهذا يعنى أن رسول الله سمع كلام الله فى هذه المشافهة .

لكن لما سُئِلَ عن رؤيته لربه عز وجل قال : « نور أنَّى أراه »[1] أى : كيف أراه ، تعبير دقيق من رسول الله ، فلما نظر لم يجد إلا نوراً ، والنور لا يُرى ، وإنما يُرى به الأشياء ، فإذا كان الحق سبحانه نوراً فلا سبيلَ إلى رؤيته سبحانه .

أما الرؤية فى مثل قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة] فالكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث يُعاد الخَلْق على هيئة أخرى غير هيئتهم فى الدنيا .

وبهذه الهيئة سوف يتمكّنون من رؤية ربهم سبحانه وتعالى ، بدليل أننا بهذه الطبيعة الجديدة فى الآخرة نأكل ولا نتغوّط ، ونشرب ولا نتبوّل ولا نعرق ، لماذا ؟ لأن الله أعدّنا إعداداً آخر يناسب نعيم الآخرة .

ثم إننا نأكل فى الدنيا من طهينا وإعدادنا . وأما فى الآخرة فنأكل من طهى الله ، طهى بحساب دقيق بحيث لا يبقى منه فى الجسم أى فضلات .

كذلك من الإعجاز فى رحلة الإسراء والمعراج أن رسول الله أعدَّه الله إعداداً خاصاً ليتمكن من الصعود ، فمن المعلوم أن (الأكسجين) ينعدم فى طبقات الجو العليا .

وهذه الحقيقة قررها القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » . وأخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : هذا حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) والطيالسى فى مسنده (٤٧٠) .

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأنعام]

ومسألة رؤية الله تعالى مسألة خلافية كَثُر فيها الكلام دون دَاعٍ ، فرسول الله رأى نوراً ، والرؤية الحقيقية تكون فى الآخرة ، ويجب أنْ نقصر الكلام فى هذه المسألة على ما ورد فيها ، ثم هو علم لا ينفع وجهل لا يضر .

المهم المنهج الذى جاء به ومدى التزامنا بتطبيقه فى حياتنا العملية ، وقمة هذا المنهج الصلاة التى فُرضتْ عليه مباشرة لأهميتها فى حركة الحياة وتقويم المعوج منها .

وسبق أنْ أوضحنا مثالاً وقلنا : إن الرئيس يبعث للموظف تأشيرة افعل كذا وكذا ، فإنْ كان الأمر أهَمّ من ذلك اتصل به تليفونياً ، وإنْ كان أهم استدعاه إلى مكتبه وأخبره بما يريد مباشرة ، هكذا كانت الصلاة .

لذلك نراها واجبة على كُلِّ مسلم ومسلمة لا تسقط أبداً على أية حال خلافاً لباقى العبادات التى تسقط بالأعذار .

والحديث : « بُنى الإسلام على خمس .... »[(١)] يوضح هذه المكانة ، فالصلاة من عمد الدين وقوائمه التى يقوم عليها ، ويُوضح أيضاً أن هذه الخمس ليست هى كل الإسلام ، بل الإسلام أوسع مجالاً منها ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠ ، ٢١) والإمام أحمد فى مسنده (٤٥٦٧ ، ٥٤١٤) من حديث عبد الله بن عمر .

الإسلام يشمل حركة الحياة كلـها ، بداية من قمة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[(١)] .

لذلك نتعـجب من الذين ينادون بفصل دين الله عن سياسـة الدنيا ، ويقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السـياسة . فهذا قول باطل لا يصح ، وهل يجـوز أنْ نترك القاتـل والزانى والسارق وغيـرهم من أصحاب الجرائم يعربدون فى خَلْق الله دون عقاب أو رادع ؟

ولأهمـية الصـلاة فى حركـة الحيـاة جعلهـا الله كتـاباً موقـوتاً ، ففرضيتها مقـرونة بوقتها ، وهذا الوقت موزَّع على مدى اليوم والليلة ، ليظل المـؤمن على صلـة دائمة بربـه ، وعلى ذكـر دائم للمنهج ، ولا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر مقبول عند الشارع الحكيم .

فمَنْ نام عن صلاة فوقتها حين يستيقظ[(٢)] ، ومَنْ كان ناسياً فوقته حـين يتذكـر[(٣)] . وفى هاتين الحـالتـين لا تُقضى الصـلاة إنمـا تصلى حاضراً ، أمـا إذا فاتته الصلاة تكاسلاً وبدون عذر فـلا تُقضَى صلاته لأن لها وقتاً مخصوصاً وقد فوَّته على نفسه بدون عذر شرعى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٥١) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٠ ، ٩٣٧١) والترمذى فى سننه (٢٥٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرج أبو عوانة فى مستـخـرجه (٨٩٠) من حـديث أنس بن مالك عن النبـى ﷺ قال : « من نام عن صلاة فليصل إذا اسـتيقظ » . وفى فقه هذا الحديث مـا ذكره ابن خزيمة فى صحيـحه (جماع أبواب صلاة الفريضـة) : « لم يرد ﷺ أن وقتها حين يسـتيقظ لا وقت لها غير ذلك ، وإنمـا أراد أن فرض الصلاة غير ساقط عنه بنومه عنها حـتى يذهب وقتها ، بل الواجب قضاؤها بعد الاستيقاظ ، فإذا قضـاها عند الاستيقاظ أو بعده كان مؤدياً لفرض الصلاة التى قد نام عنها » .

(٣) أخرجه أبـو عوانة فى مستـخرجه (٨٩٠) من حديث أنس ، وكـذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٠٠٦) .

والحكمة من توقيت الصلوات بوقت محدد أن الإنسان لا يدرى متى يُفاجئه أجله ، فليبادر أولاً بآداء صلاته فى موعدها ، والصلاة فيها دوام واستمرار على مدى الساعات ، على خلاف الحج مثلاً ، فهو مرة واحدة فى العمر كله .

نقول : إذن لا داعىَ لأنْ نختلف حول رؤية الرسول لربه عز وجل فى رحلة الإسراء والمعراج ، المهم أنه انتقل إلى مكان أعلى فى التكليف ، كان يُكلف وهو فى الأرض والآن يُكلف وهو فى السماء ، ويكفى أن الله تعالى كلمه دون وحى ، ويكفى أن يقول ﷺ عن رؤيته لربه تعالى : نور أنَّى أراه ؟

ولقائل أنْ يقول : لماذا جاءت الرؤية فى السماء بالذات والله قادر أنْ يتجلى على رسوله ويظهر له وهو فى الأرض ؟ نقول : المكان لا للمرئى ولكن للرائى ، فالرائى لا يرى إلا فى هذا المكان .

كما لو قلت لكم مثلاً ونحن فى المسجد : ظهر القمر ، فقال أحدكم : لكنى لا أراه . أقول له : يراه الذى بالخارج أو فوق السطح .

وقوله تعالى : ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** (١٢) ﴾ [النجم] تأكيد للرؤية وترجيح لها وتحذير من التشكيك فيها ، ولم التشكيك إذا كان الأمر كله فى هذه المسألة لله ، ومحمد لم يدّع لنفسه قوة ، بل قال : أُسْرى بى ؟

تذكرون لما تكلمنا عن قوله تعالى : ﴿ **يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** (٣٣) ﴾ [الرحمن] قال بعض العلماء : المراد سلطان العلم .

قلنا : لا بل سلطان من الله القادر على ذلك ، ولو أن المراد سلطان

العلم لما قال تعالى بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمن]

ولولا هذه الآية لكانت السماءُ مفتوحة يسهل للجن اختراقها .

ورؤية رسول الله لجبريل فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم] تعد تشريفاً لجبريل وتشريفاً لرسول الله . والسدرة كما قلنا شجرة النبق ، وهو حب يُؤكل فى حجم الزيتون .

وإذا كان النبق فى الدنيا له شوك فسدرة المنتهى لا شوكَ لها ، فهى كما قال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ[2] مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة] يعنى : لا شوكَ فيه . وقال فى وصف ثمارها أنها كقلال هجر[3] أى : (كالبلاص) الكبير .

ثم لا تعجب من كون هذه الشجرة فى السماء السابعة ، فهذا من طلاقة القدرة ، ألم يجعل شجرة فى جهنم والعياذ بالله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ ..۝٦٤﴾ [الصافات] أى : شجرة الزقوم ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

---

(١) الشُّواظ ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] وقيل : الشواظ لهب النار ولا يكون إلا من نار وشيء آخر يخلطه . [لسان العرب – مادة : شوظ] .

(٢) السدر : شجر النبق ، ومفردها سدرة . وهو النوع الثانى من السدر ينبت على الماء وثمره النبق أصفر مُز يُتفكّه به ، أما النوع الأول من السدر فهو برى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق . والعرب تسميه الضال . [لسان العرب – مادة : سدر] .

(٣) قلال : جمع مفرده قُلة . وقلال هجر عظام تسع القلة الواحدة قربتين ، والقلة تسع فَرَقاً أى أربعة أصوع بصاع رسول الله ﷺ ، والصاع خمسة أمداد والمدّ الحفنة بجمع اليدين إلى بعضهما . [لسان العرب وغيره من المعاجم بتصرف] .

الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)﴾ [النجم] أى : التى يأوى إليها وينتهى إليها الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فكأنها جنة خاصة بهم غير جنة الآخرة التى تكون بعد الحساب .

فالذى مات شهيداً وضحَّى بروحه فى سبيل الله يقول الله له : لا تموت عندى فيُبرئه من الموت مرة أخرى ، كأنه يقول : أنا واهب الحياة وأنا الذى آخذها فإذا أخذها غيرى أكيده بأنْ أجعل الشهيد حياً عندى ، موصولة حياته الدنيا بحياته فى البرزخ .

تذكرون لما تكلمنا عن سيدنا يحيى عليه السلام . قلنا : إن الله تعالى هو الذى سماه (يحيى) ، ونحن حينما نسمى أولادنا نختار الاسم الحسن تفاؤلاً به ، فنسمى ذكى أملاً فى أن يكون كذلك ، ونُسمى سعيداً عسى أنْ يكون سعيداً فى حياته .

لكن قد يأتى الواقع على خلاف ما نتمنى ، نُسميه (ذكى) فيكون غبياً ، أو (سعيد) فنراه فى الواقع شقياً ، ذلك لأننا لا نملك تحقيق ما نتمناه .

فإنْ كان المسمِّى هو الله تعالى فلا شكَّ أن تسميته تطابق الواقع ، لأن الله تعالى لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ، ولا أحد يستطيع الاعتراض على أمره .

فكانت تسمية (يحيى) إشارة إلى أنه سيحيا حياة دائمة موصولة ، والعلماء أصحاب الفهم عن الله فهموا من ذلك أنه سيموت شهيداً ، لأن الشهادة هى التى تضمن له استمرار الحياة ، حيث تصل

حياته الدنيا بحياة الشهادة عند الله .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

معنى ﴿ يَغْشَى السِّدْرَةَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النجم] يغطيها أو يحيط بها ويسترها، و (ما) تفيد الكثرة والشيء العظيم المستحق للتعجب ، فسدرة المنتهى يغشاها الكثير من المخلوقات العجيبة التى لا يعلمها إلا الله .

فهى كما فى قوله تعالى قبلها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم] أى : أوحى إليه بأمور كثيرة عظيمة وعجيبة ، وكما تقول أكرمته ما أكرمته .

وقد ورد من هذه المخلوقات العجيبة حول سدرة المنتهى أشكالٌ وألوانٌ عجيبة من الطيور ، وإذا كنا نرى الكثير من عجائب الخَلْق فى الطيور فى الأرض وما لها من أشكال جميلة نضعها للزينة فى أقفاص فى البيوت وما لها من أصوات ، فما بالك بطيور جعلها الله حول هذه السدرة فى السماء ؟

وذكر أيضاً جراد من ذهب ، ولجراد الذهب هذا قصة مع سيدنا داود عليه السلام ، فيُروى أنه كان يجلس على سطح منزله يعبد الله ويناجيه ، وذات يوم رأى جراداً من ذهب يُحلِّق فوقه ، ففرش له ثوبه ، فصار الجراد يقع فيه فيأخذه داود ، فقال الله له : يا داود ألم أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يا رب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٠ ، ٣١٤٠ ، ٦٩٣٩) والنسائى فى سننه (٤٠٦) وأحمد فى مسنده (٧٦٩٥ ، ٧٨١٢ ، ٩٩٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو فى حق أيوب عليه السلام ، وليس داود . ولفظ البخارى أنه كان يغتسل ، وعند أحمد دون ذكر الاغتسال بل قال : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب .

وقوله سبحانه : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] أى : ما زاغ بصر سيدنا رسول الله فى هذه الرحلة ، و (زَاغ) فعْل بمعنى مال عن القصد ، وزاغ تعطى معنى (راغ) التى وردت فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)﴾ [الذاريات] أى : مال إلى أهله مَيْلاً خفياً لا يدركه الحاضرون .

والفرق بينهما النقطة على الزاى ، لكن المعنى واحد وقريب منه ، قولنا : فلان زوغ . أى : خرج خُفْية بحيث لا يشعر أحد به ، وقريبٌ من هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا..(٦٣)﴾ [النور] أى : يتسللون خُفْية .

وقوله بعدها : ﴿وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] ما طغى بصره ولا تجاوز الحدَّ فى الرؤية وما مدَّه لغير غايته ، وهنا نتعلم الأدب فى النظرة ، وكيف تكون فى حدود المسموح به ، كالضيف يدخل بيتك فى وجود أهلك وبناتك فلا تمتد عينه ليرى ما لا يجوز له رؤيته .

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)﴾

أى : رأى رسولُ الله ﷺ كثيراً من آيات الله فى رحلة الإسراء والمعراج ، آيات فى الأرض وآيات فى السماء ، وكلمة ﴿الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم] مؤنث جمع كبيرة ، وللمذكر كبير وأكبر . والمعنى أنه ﷺ رأى كثيراً من آيات ربه التى تُوصَف بأنها آيات كبرى ، أو رأى الكبرى من الآيات كلها .

وبعد أنْ حدَّثتنا الآيات وأقسمتْ على صِدْق سيدنا رسول الله فى

البلاغ عن ربه ، وذكرت لنا بعض الآيات الكونية والمعجزات تنتقل بنا إلى المقابل ، إلى الحديث عن الأصنام وعُبَّاد الأصنام .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ(١) وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

الاستفهام في ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] بمعنى أخبروني عن شأن هذه الأصنام التي اتخذتموها آلهة من دون الله ، وقد كانوا يتخذون الآلهة على أشكال شتى ، إنسان أو حيوان أو شجرة ، وربما يتخذون صنماً لا شكلَ له .

و ﴿ اللاَّتَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] صنم على شكل رجل كان عندهم يلتُّ العجين ليريح النساء من هذا العمل الشاق ، ومات ولم يترك خلفاً بعده يقوم بهذا العمل ، فحزنوا لموته ، وصنعوا له تمثالاً تكريماً لذكراه ثم بعد ذلك عبدوه .

و ﴿ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] اسم شجرة كانوا يعبدونها ، وقد

---

(١) كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبني كنانة ، ومناة لبني هلال . وقال ابن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة و« مناة » صنم لخزاعة . وقيل : إن اللات فيما ذكر المفسرون أخذه المشركون مَن لفظ الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره .

وقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح (اللاتّ) بتشديد التاء وقالوا : كان رجلاً يلت السويق للحاج - ذكره البخاري عن ابن عباس - فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . [تفسير القرطبي ٩/٦٥٠١ باختصار] .

أمر النبى ﷺ خالداً أن يذهب ويقطعها[1] ، وكان يقول :

يا عُزَّى كفرانك لا غفرانك إنى رأيت الله قد أهانك[2]

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] مناة أيضاً اسم صنم لهم ، وقال : ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] فهى ثالثتهم ولم تكُنْ على شكل إنسان أو حيوان ، فقال ﴿ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] على سبيل تحقيرهم والاستهزاء بهم وبمَنْ عبدوهم .

الحق سبحانه وتعالى جعلهم حكاماً على ما يفعلون وعلى عبادتهم للأصنام ، فقال لهم : أخبرونى عن هذه الأصنام هل تستحق أنْ تُعبد ، هل لها قدرة أو إرادة ، وهى أحجار جئتم بها بأيديكم وصوَّرتموها على صورة تريدونها ؟

ثم إذا سقط الصنم وأطاحت به الريح أقمتموه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه ، فكيف تعبدونها ؟ وأين عقولكم ؟

لكنها طبيعة التديُّن فى الفطرة البشرية ، فقد جبل الخالق سبحانه الإنسان على التدين ، وقبل أنْ يُخلق آدم وهو ما يزال فى عالم الذر

---

(١) فى عيون الأثر (٢٠٧/٢) أن سرية خالد بن الوليد إلى العزى كانت لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ٨ ليهدمها ، فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدمها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره . فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها فضربها خالد فجزلها باثنين ورجع إلى رسول الله فأخبره فقال : نعم تلك العزى .

(٢) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية لابن كثير ، وكذا الشامى فى سبل الهدى والرشاد (باب ٥٢) والواقدى فى مغازيه (٨٧٣/١) شأن هدم العزى . وهى فى كل المصادر صنم مبنى وليس شجرة .

وأخذ علينا العهد ونحن فى عالم الذر فى ظهر آدم عليه السلام .

فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : عبدوا الأصنام لما عندهم من إيمان الفطرة فى النفس ، لكن الإيمان له تبعات ومطلوبات قد تشقُّ على النفس وتقيد حركتها نحو الشهوات ، فيميل الإنسانُ إلى عبادة إله بدون تكليف ليُرضىَ غريزة التدين فى نفسه ، ومن هنا عبدوا الأصنام لأنها آلهة فى زعمهم ، لكن ليس لها مطلوبات وليس لها منهج ، وما عبدوها إلا لراحة مواجيدهم الإيمانية .

ونلاحظ هنا دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] لأنهم عبدوا أيضاً الملائكة من دون الله ، لكن لم يذكرها مع اللات والعزى ومناة ، لأن الملائكة لا تُرى .

فلا يصح أنْ يقول : أفرأيتم الملائكة لأنهم لم يروا الملائكة ، إنما سمعوا عنها وآمنوا بها غيباً . وقالوا على كل هؤلاء : شفعاؤنا عند الله ، وقالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] إذن : حتى فى كفرهم بالله يتمحّكون فى الله .

وقوله تعالى : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١)﴾ [النجم] استفهام للتعجُّب والإنكار عليهم ، حيث نسبوا لله تعالى الملائكة وجعلوها إناثاً لوجود تاء التأنيث بها .

والملائكة مخلوقات لله تعالى نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل ، ولا تُوصف بذكورة ولا بأنوثة .

فهذا تعدٍّ فى الحكم وقسمة سماها القرآن ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] جائرة ظالمة ، لأنكم نسبتُم لأنفسكم الجنس الأعلى ولله الجنس الأدنى ، فالخطأ الأول أنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، والثانى أنهم عبدوها .

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف] . وقال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ.. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] أى : وقودها الذى تتأجج به والعياذ بالله .

فالمأزق الذى وقع فيه عُبَّاد الأصنام أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] ولو قالوا : ما نتقرَّب إليهم إلا ليقربونا إلى الله لكانت مقبولة ، لكن قالوا : (نعبدهم) وهو قول باطل ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ.. (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فإنْ قلتَ : فما ذنب عيسى والعُزير ؟ وما ذنب الملائكة وقد عبدوها من دون الله ؟ والجواب فى نفس الآية ، تأمل ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ.. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] فـ (ما) هنا لغير العاقل ولم يقُلْ : ومَنْ تعبدون ، فسيدنا عيسى والعزير والملائكة لا يشملهم هذا الحكم .

وتأمل كلمة ﴿ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تجدها كلمة غريبة فى

---

(١) حصب جهنم : الحصب كل ما يلقى فى النار لتسعر به ، فتزداد بهم اشتعالاً . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

تركيبها وفى نطقها ولم تتكرر فى مفردات القرآن ، جاءت هكذا عجيبة لتدل على أن فعلهم غريب وعجيب ، وأن قسمتهم هذه جائرة ظالمة ، لأنهم نسبوا لله تعالى وهو الخالق الجنس الأدنى . أى : فى نظرهم هم .

فالعقائد لا تُفضّل الذكر على الأنثى ، فهما سواء فى ميزان الشرع ، ولبيان هذه المسألة اقرأ مثلاً فى قصة السيدة مريم : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا .. (٣٥)﴾ [آل عمران] أى : محرراً وموقوفاً على خدمة البيت ، والخدمة فى أماكن العبادة خاصة بالذكور ولا تصح لها الإناث .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ..(٣٦)﴾ [آل عمران] أى : ليس كالأنثى فى آداء هذه المهمة ، فبيَّن الله لها أن الأنثى التى أريدها ستأخذ منزلة لم تأخذها أنثى غيرها .

فالذكر الذى طلبْته ليس كالأنثى التى وهبتُها لك ، لأن هذه الأنثى سيكون لها منزلة فى تاريخ العقائد ، وموقف يرفعها على جميع النساء .

لذلك لما تكلم عن نماذج من النساء قال (امرأة) ولم يُسمِّ إلا مريم ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم] وقال : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ..(١١)﴾ [التحريم] ولم يُسمِّها إلا رسول الله ، فقال : هى آسية بنت مزاحمَ .

فالحق سبحانه لم يُسمّ هؤلاء ، فهُنَّ نماذج لحالات مختلفة هدفها واحد وهو حرية العقيدة للمرأة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يُرغِم أحداً على عقيدة بعينها .

أما مريم فسمَّاها باسمها واسم أبيها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ..(١٢)﴾ [التحريم] لأنها نموذج فريد وحالة خاصة لن تتكرر بعدها . إذن : إبهام الشخصيات له موضعه ، وتعيُّنها له موضعه ، وكُلٌّ له حكمته .

ففى قصة أهل الكهف ذكر قصة الفتية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [الكهف] ولم يُعيِّن القرآن أسماءهم ولا عددهم ، ولم يذكر عنهم إلا وصف الإيمان بالله ، وهذا هو القدر المراد فى قصتهم ولا يُهم بعد ذلك عددهم أو أسماؤهم ، فهو عِلْم لا ينفع ، وجهل لا يضر كما يقولون .

فهم نموذج للفتية المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم المجابهة للظلم فى أىِّ زمان وفى أىِّ مكان ، بأىِّ عدد وبأىِّ صورة ، ولو عيّنهم وسمّاهم لكانوا حالة خاصة ليس بالضرورة أن تتكرر .

وأحبُّ أنْ أستدرك الحديث عن مسألة رؤية سيدنا رسول الله لربه ، لأنها مسألة كَثُر فيها الكلام بين المفسرين ، وتباينت فيها الآراء بين مؤيد ومعارض .

وأقول : أولاً إنها مسألة لا تضر أصل العقيدة ، لأنها لا تأتى بشىء جديد إلا أنْ نعرف منزلة محمد من ربه ، فالذين يحبون رسول الله يريدون أنْ يصلوا به إلى مرتبة أنه رأى ربه فيُثبتون له ذلك .

وآخرون مُحبُّون أيضاً لرسول الله لكنهم يريدون أنْ يُجنِّبوا الناس

متاهات الشك ، فيحاولون تخفيف هذه المسألة بأنها رؤية على غير الحقيقة .

ونحن بدورنا نريد أنْ نُبسِّط المسألة تبسيطاً يُيسِّرها على الجميع ، ومن الطبيعى أنْ تختلف آراء العلماء ، وهو اختلاف يُعزِّز الدين فى ذاته ولا يقدح فيه .

والمتتبع لآيات سورة النجم من أولها يجدها تحدثتْ عن الوحى فى موضعين : الأول : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾ [النجم] والمراد : الوحى الذى نزل به جبريل على محمد وهو فى الأرض .

إذن : فقوله تعالى بعدها : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩﴾ [النجم] ليست بالمعنى الأول ، بل تضيف جديداً ، فالوحى فيها يُقصد به الوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد .

بدليل أن الآية هنا لم تذكر جبريل واسطة الوحى ، ثم أبهمتْ الوحى فقالت : ﴿مَا أَوْحَىٰ ⑩﴾ [النجم] والوحى الذى نزل به جبريل معلوم وغير مُبْهم .

كما أن إبهام الوحى هنا يدل على عظمه ، وأنه شىء كثير فوق الحصر ، أو أنه شىء غريب وعجيب كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ⑱﴾ [طه]

إذن : نحن أمام نوعين من الوحى ، وإذا كانا بمعنى واحد فما ضرورة أنْ يذهب رسول الله فى هذه الرحلة من الأرض إلى السماء ما دام جبريل ينزل عليه . ويُوحى إليه ؟

نفهم من ذلك أن ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] عطاء جديد لرسول الله ، لكنه عطاء مُغلّف بالغيب ، فليست كل العقول مهيئة لتقبُّله ، وعلى قدر صفاء النفس يكون الاقتناع بمثل هذه المواقف ، والناس يختلفون كثيراً فى هذه المسألة .

ومن هنا رأينا المؤيد والمعارض ، والحمد لله فهذا خلاف لا يقدح فى العقيدة ، والحق سبحانه وتعالى خاطب الجميع مَنْ اكتفى بالفرائض ، ومَنْ زاد عليها وأوغل فى النوافل ، وجعل لكلٍّ عطاءً يناسبه .

والوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد يقتضى القُرْب ، ويقتضى السماع ، وقد أوضح سيدنا رسول الله الرؤية فقال : نور أنَّى أراه[1] ، فقد رأى ﷺ النور ، وهل بعد ذلك غاية تُدرك ؟

وقد ورد فى أثر ما يؤكد هذا أن رسول الله ضرب على صدر أحد الصحابة حتى أحسَّ برد أنامله . وقال : أعطانى ربى ثلاثة أوعية : وعاء أمرنى بتبليغه وهو الصلاة ، ووعاد خيَّرنى فيه (يعنى : أبلغه لأصحاب الصفاء الذين يحسنون الاستقبال عنى وأكتمه عن الذين لا يُحسنون الاستقبال) ، ووعاءً نهانى الله عنه (وفى هذا الوعاء

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) .

أمور فوق مدارك البشر جميعاً ولا تتحمله عقولهم فأُمِر رسول الله بأنْ يكتمه) .

والصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون فى فَهْم مثل هذه الأمور ، فسيدنا عمر لما طاف بالكعبة ووقف أمام الحجر الأسود قال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيتُ رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك[1] .

يريد عمر أنْ يلفتنا إلى أن العمل العبادى لا يُؤدّى لذاته ، إنما ثقة فى الآمر به . أما سيدنا على فعنده لَوْن آخر من الفيض ومن الفهم ، فيأتى سيدنا عمر ويقول له بينه وبينه : يا أمير المؤمنين ، ولكنى أعرف أنه يضر وينفع ، ألا يشهد لصاحبه يوم القيامة .

إذن : ليس بالضرورة أنْ نعلم كلَّ شىء ، والله يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] مهما كنت ، وعندنا فى حياتنا اليومية نغلف الشىء النفيس فى أكثر من غلاف ، فنضعه فى ظرف ، والظرف فى خزينة مُحكمة ، والخزينة فى مكان خاص ، فما

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٣٥) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : حججنا مع عمر بن الخطاب فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك ثم قبّله ، فقال له على بن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع . قال : بم ؟ قال : بكتاب الله . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد » فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لستَ فيهم يا أبا حسن .

بالك إذا كان الأمـرُ خاصاً برؤية الله جَلَّ وعـلا ، فلا بأس أنْ تغلف فى هذه الأساليب ولكل عقل أنْ يتقبَّل منها ما يريد .

ثم فى قوله سـبحانه : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] الوحى يُرَى أم يُسـمع ؟ الوحى يُسـمع ، فلماذا قـال ﴿عَلَىٰ مَـا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] إذن : لابد أن يكون هناك رؤية . والـذين لا يقـبلون الـرؤية يستـشهدون بقـوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَـارُ وَهُـوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ..﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]

نعم لا تدركه الأبصار ، فقد حدد آلة الإدراك وهى (الأبصار) ، وهذا يعنى أنه لا مانعَ أنْ يدرك بغير الأبصار ، فالمنع هنا للأبصار فقط ، فحين يرد خبر معناه : انعكس بصرى على بصيرتى ، فرأيت مَنْ لا كمثله شىء لابد أن نفهم أن المسألة فـيها تغليف وستْر لأمر نفيس وعجيب .

بل إن المتدبر للآيات يجدها تذهب إلى أبعد مـما تتكلَّمون فيه ، اقرأ : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] وبعدها : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم] يعنى : رأى أكثـر من الذى تتكلمون فيه ، فما حالكم لو أخبرناكم بكلِّ ما رأى ؟

وفى قصة سيدنا موسى عليه السلام لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِـي أَنظُـرْ إِلَيْكَ قَـالَ لَن تَـرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَـى الْجَبَلِ فَـإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا.. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

تأمل أولاً ﴿لَن تَرَانِي.. (١٤٣)﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ : لن أرى ، يعنى : لن ترانى يا موسى وأنت على هذه الهيئة لأنها لا تُمكنك من الرؤية ، لكن تجلى للجبل والتجلِّى يقتضى الرؤية . إذن : الأمر هنا فى الرائى ومدى استعداده للرؤية .

ومحمد مثل موسى فى هذه المسألة ، لكنه لما صعد إلى السماء أخذ شيئاً من الملائكية تُمكنه من الصعود والاختراق ، ملائكية غطَّتْ على بشريته وتغلَّبتْ عليها .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣)﴾

ما زال الكلام موصولاً عن الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فيخبر عنها الحق سبحانه ﴿إِنْ هِيَ ..(٢٣)﴾ [النجم] أى : ما هذه الأصنام ﴿إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾ [النجم] أسماء من تأليفكم لأصنام من صُنْع أيديكم .

ومعلوم أن الاسم يُوضع ليدل على مُسمّى ، أما هذه الأصنام فأسماء دون مُسمّى فهى باطلة ، قلتم آلهة وهى حجارة لا تضر ولا تنفع .

﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٢٣)﴾ [النجم] لأنهم ورثوها عن الآباء والأجداد كما حكى عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] إذن : أقرُّوا بخطأ آبائهم ، وأنهم سائرون على منهجهم .

ثم يُبيِّن لهم بُطْلان معتقداتهم ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾ [النجم] أى : هى من عند أنفسكم ليست من عند الله ، ولا برهانَ ولا دليلَ على صدقها ، وأنتم وآباؤكم لستم مُشرِّعين .

فالتشريع والأمور العقدية لا تُؤخذ عن البشر ، إنما تُؤخذ عن الله ، وهؤلاء لا يتبعون هدى الله ، إنما ﴿إِن يَتَّبِعُونَ .. (٢٣)﴾ [النجم] إن نافية بمعنى : ما يتبعون ﴿إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣)﴾ [النجم] لا يتبعون حقائق ولا واقع .

الظنّ نسبة من النسب الكلامية الست التى سبق أنْ بيَّناها ، وهى : العلم والجهل والتقليد والشك والظن والوهم ، فالنسبة الكلامية إنْ كان لها واقع مجزوم به ، ويمكن إقامة الدليل عليها فهى علم ، وإنْ كان لها واقع مجزوم به وليس عليها دليل فهى تقليد .

فإنْ كانت النسبة الكلامية ليس لها واقع فهى جهل ، هذا فى النسبة المجزوم بها ، فإنْ كانت النسبة الكلامية غيرَ مجزوم بها يعنى تحدث أو لا تحدث ، فإذا تساوتْ الكفّتان فهذا الشك ، فإنْ كان الوقوع راجحاً فهو الظن ، وإنْ كان الوقوع مرجوحاً فهو الوهم .

والظن يمكن العمل به فى الأمور العادية ، فلو أردنا مثلاً السفر إلى الإسكندرية فقلت لصاحبى : هذا الطريق سهل وعليه متطلبات

السفر . فقال : الطريق الآخـر أظن أنه أفضل لأنه حديث وكذا وكذا ، فيـجوز أنْ أترك اليقـين الذى أعلمه عن الطريق وأسـلك الطريق الآخر المظنون ، لأن الاختيار لو كان خطأ فالضرر الحاصل به قليل .

أما فى مـسائل الدين والعقـيدة فيـجب الأخذ باليـقين لا بالظن ، والحق سبحـانه يخبر عن هؤلاء أنهم اتبعوا الظن فى أمـور العبادة ، فقالوا : إن الله تعالى جلالاً وكبـرياء ، ولا نقدر أنْ نلتحم به ونعبده ، ولكن نعبد شيئاً آخر يُوصِّلنا إليه ويشفع لنا عنده .

إذن : فقوله تعالى : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ .. (٢٣)﴾ [النجم] أى : فى العقيدة ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣)﴾ [النجم] فى السلوك والعمل يتبعون هوى النفس ، والهوى يُطلق على ما يُذم من مطلوبات النفس .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [النجم] اللام للتوكيد و (قد) حرف تحقيق .

يريد سـبحـانه أنْ يؤكد علـى هذه الحقـيقـة ، وهى أن هدى الله جاءهم وبلغهم رسول الله منهج الله ، ومـع ذلك تركوا الحق واليقين ، واتبعـوا الظن وما تهـوى الأنفس ، ولو اتبـعوا الظن والهـوى قبل أنْ يأتيهم منهج الحق لكان لهم عُذر ، أما وقـد فعلوا ذلك بعد أنْ جاءهم الهدى من الله فلا عذرَ لهم ولا حجة .

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥)﴾

أيظنون وقد فعلوا ما فعلوا من الانصراف عن هدى الله إلى ظنون كاذبة ، أيظـنون أن الإنسان يسيـر فى الدنيا علـى هواه ؟ وأن له ما

تمنى حتى لو كانت أمانيه مخالفة لمنهج ربه ؟ الواقع أنه ليس له ذلك ، لأن الدين والعقيدة لا تُؤخذ بالأمانى ، والحق سبحانه ليس على هواك .

والتمنِّى طلب شىء لا يمكن الوصول إليه وغير ممكن الحدوث ، والتمنى لا يعنى إلا أنك تحب هذا الشىء الذى تتمناه ، نعم تحبه لكنه لن يحدث ، كما قال الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

فهم يتمنوْنَ ذلك ، يتمنون أنْ يكون للإنسان ما يريده وما يحبه دون ضوابط ، فهذه أمنية ، والأمنية شىء يحبه الإنسان ، لكنه لا يتحقق ، لأن الإنسان لا يملك الظروف المتعلقة به ، ولا يملك الأسباب التى تحقق له كلَّ ما يريد ، بل له ربٌّ يُقدِّر الأقدار والأفعال والخير والشر .

وفى آيات متعددة يُبيِّن الحق سبحانه أمنية هؤلاء ، فمن أمانيهم قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[1] ..(٣)﴾ [الزمر] ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن صاحب الجنة فى سورة الكهف : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر قال أحدهم : ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ..(٥٠)﴾ [فصلت] وهكذا تمنِّى الإنسان لنفسه لا يقف عند حدٍّ ، قال تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت]

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/ ٢٨٨] .

ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم] لا هذا ولا ذاك ، لأنه ما اطلع على الغيب ، وليس له عند الله عهد بأنْ يعطيه ما يريد .

ثم يردُّ الله عليه : ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم]

إذن : ليس للإنسان ما تمنّى ، وكيف يكون له ذلك والأمر كله لله وحده في الأولى وفي الآخرة ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم] هنا أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ، أي : لله وحده ﴿الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم]

فقدّم الآخرة لأنهم قالوا عن الأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فأخبر أن الآخرة لله وحده ، ولا تنفعكم هذه الشفاعة لأنها باطلة ﴿وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم] أي : ما يتمنونه في الدنيا مما لا قدرةَ لهم على تحقيقه .

وقالوا : قدَّم الآخرة على الأولى مع أن الترتيب الأولى والآخرة ، لأن الآخرة هي محلّ النزاع بين مُصدِّق بها ومُنكر لها ، ومحلّ شك في وقوعها ، لذلك قدَّمها على الأولى للتأكيد على أنها حقّ ، وحقّ آكد من الأولى التي عاينتموها .

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

لما اعتقدوا فى الأصنام أنها تشفع لهم عند الله ، وقال : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ.. (٣)﴾ [الزمر] فردّ الله عليهم بما يُبيِّن بطلان اعتقادهم ، فكيف تنتظرون شفاعة الأصنام عند الله ، والملائكة المقربون والعباد المكرمون عنده سبحانه ليس لهم شفاعة إلا بإذنه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦)﴾ [النجم] أى : كثير من الملائكة ، فكم هنا خبرية تفيد الكثرة ، لأنها تسأل عن عدد لا حصر له ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾[النجم]

إذن : هنا شرطان لقبول شفاعة الملائكة ، الشرط الأول : أنْ يأذن الله للملَك أنْ يشفع ، الثانى : أنْ يرضى عن المشفوع له ، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد الخالص ، فهذه كرامة للشافع ، وكرامة للمشفوع فيه .

يقول تعالى فى آية الكرسى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فإذا كان هذا حال الملائكة فى قبول الشفاعة وهم عباد مُكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، وقال عنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم] فكيف إذن بشفاعة الأصنام ؟

ونلاحظ على الأداء القرآنى فى هذه الآية أن كلمة ﴿مَّلَكٍ .. (٢٦)﴾ [النجم] جاءت بصيغة المفرد ، ثم أخبر عن المفرد بصيغة الجمع ، فقال ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ .. (٢٦)﴾ [النجم] ولم يقل شفاعته .

قالوا : لأن كم الخبرية تفيد الكثرة ، فلما اجتمعت مع المفرد

أعطته معنى الجمع ، فالمعنى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] كثير من الملائكة ، والمناسب أن يقول شفاعتهم ، بصيغة الجمع .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨) ﴾

الحق سبحانه يفضح اعتقادهم الكاذب فى قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] وفى اعتبارهم الملائكة شفعاءَ لهم عند الله ، فهذا مجرد كلام وحجج واهية لأنهم فى الأصل لا يؤمنون بالآخرة ، فكيف يتحدَّثون عن الشفاعة ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. (٢٧) ﴾ [النجم] أى : الكفار ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) ﴾ [النجم] أى : يدَّعون أن الملائكة بنات الله ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ .. (٢٨) ﴾ [النجم] ما لهم بهذا القول ﴿ مِنْ عِلْمٍ .. (٢٨) ﴾ [النجم]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : لا علمَ عندهم بخلق الملائكة ، فهم فى هذا الادعاء كاذبون يقولون ما لا يعلمون ، والمسألة أنهم يتبعون فى هذه القضية ظنهم الباطل ، ظنوا الملائكة إناثاً لوجود تاء التأنيث فى الملائكة .

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] أى : أن ظنهم هذا ظنٌّ باطل لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة ولا يغنى عنها ، والحق فى

هذه المسألة ما أخبرنا الله به ، لأنه خالقهم والأعلم بهم ، فالظن لا يحلُّ أبداً محلّ العلم القاطع البيِّن .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أنْ بيَّن الحق سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ موقف خصومه ، وكيف أنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون الهوى والظن والشهوات ، يقول له : يا محمد أرح نفسك من هؤلاء ، فلا فائدة منهم .

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً كلّ الحرص على هداية قومه ، وكان يُحمِّل نفسه فى سبيل دعوتهم إلى الحق فوق ما تحتمل ، لذلك خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] وقال له : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى]

وقد بيّنا أن الله تعالى لا يريد منهم قوالب تأتى راغمة ، إنما يريد قلوباً تأتى إليه طواعية واختياراً .

لذلك يقول سبحانه لنبيه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم] فأعرض : أمر من الفعل عَرَض عارض ، وأعرض مُعرض . والهمزة هنا تُسمّى همزة الإزالة . أى : إزالة العرض ، تعرفون المعرض الدولى الذى نعرض فيه المنتجات ، فصاحب المنتج

عارض يعرضه على الناس ، ويُبيِّن لهم مزاياه فهو عارض .

وهكذا كان سيدنا رسول الله يعرض الهدى ومنهج الحق على قومه ، ويُبيِّن لهم أهدافه ومزاياه ، فلم يكُن منهم إلا الصبر والأذى والإعراض عنه والانصراف .

وظل كذلك إلى أنْ أمره ربه بالإعراض عنهم ، فقال له : ﴿ فَأَعْرِضْ .. (٢٩) ﴾ [النجم] من أعرض ، وهو عكس عرض ، وهمزة الإزالة تُحوِّل الفعل إلى ضده ، فكما انصرفوا عنك فانصرف عنهم ، أعرضوا عنك فأعرض عنهم .

وهمزة الإزالة فى أعرض مثل أعجم . نقول : أعجم الكتاب . أى : أزال عُجْمته ومنه معجم ، وهو الكتاب الذى يُزيل غموض الألفاظ ، كذلك أعرض أى : أزال العرض .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] إذن : هم البادئون بالإعراض عن ذكر الله ، أى : عن القرآن وعن المنهج لأنه يُقيِّد حريتهم فى الشهوات ، المنهج تكليف ، وهم لا يريدون تكليفاً ، يريدون الانطلاق خلف شهواتهم وملذاتهم دون رقيب .

ولو تأمل هؤلاء المعرضون منهج الله لعرفوا أنه فى صالحهم ، لأنه مثلاً حين ينهاك عن السرقة وأنت فرد ينهى الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، كفَّ يدك وكفّ أيدى الملايين عنك .

إذن : قبل أنْ تنظر إلى مشقة التكاليف انظر إلى عطائها . تذكرون الصحابى الشاب الذى أتى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله إئذن لى بالزنا ، تصوروا ماذا كان ردّ فعل رسول الله على هذا المطلب الغريب ؟ لم ينهره بل أدناه منه وتبسَّم فى وجهه

وقال لـه : يا أخا العـرب أتحبـه لأختك ؟ فـيقول : لا يـا رسـول الله جُعلْتُ فداك ، فيقول : أتحبه لأمك ؟ أتحبه لابنتك ؟ .

يقول الراوى : حـتى ذكر العـمة والخالة ، والـرجل يقول : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك ، ثم يقول لـه سيدنا رسول الله : كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبونه لأخواتهم ولا لأمهاتهم ولا لبناتهم .

فـيـقول الشـاب : فـانصـرفت من عند رسـول الله ، وليس شـىء أبغض إلىَّ من الزنا ، وما هممتُ بشـىء إلا تذكرت أختى وأمى وابنتى(١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة يقول عن المتقين : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة] فـالتكاليف الدينيـة والمنهج ليس عـبئـاً عليك ، إنمـا هو دابة تحـملك وتُوصِّلك إلى غايتـك ، فهم على الهدى و (على) تفـيد الاسـتـعلاء ، فالمنهج هو الذى يحملك ، وهو الذى يساعدك ويُسعدك .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم] أى : هى غايتهم ، فلا يعملون إلا لها وقد أقروا بذلك فقالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ..۝٢٤﴾ [الجاثية] فالآخرة ليست فى حساباتهم .

لذلك الحق سـبحـانه وتعـالى يُسـفه هذا الرأى ويقـول : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ۝٣٠﴾ [النجم] أقـصـى ما وصلوا إليـه من العلم الذاتى فقد وقف بهم عند هذا الحد .

---

(١) أخرجه الإمـام أحمد فى مسـنده (٢١١٨٥) والطبرانى فى المعجم الكبـير (٧٥٧٧)وفى مسند الشامـيين (١٠٣٦ ، ١٤٩٤) وكذا البيهقى فى شـعب الإيمان (٥١٨١) من حديث أبى أمامـة رضى الله عنه ، وفيه أن رسـول الله ﷺ دعا للشـاب : « اللهم اغفر ذنبـه وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شـىء .

والعجيب أنهم أغلقوا آذانهم وصَمُّوا أسماعهم عن الهدى ، فلم يأخذوا بعلم الله الذى أنزله عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم]

نقف أولاً عند أسلوب القصر ﴿هُوَ أَعْلَمُ ..﴿٣٠﴾﴾ [النجم] حيث قصر العلم على الله وحده ، لأن الهداية والضلال أمر فى غالبه غيبى لا يطلع عليه إلا عالم السر وأخفى ، ثم إن الجميع يدَّعى أنه على الهدى ، وأن غيره على الضلال ، لذلك اختصَّ الله بهذا العلم نفسه سبحانه .

وقد جاءت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم] بعد قوله تعالى لنبيه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. ﴿٢٩﴾﴾ [النجم] فهنا تناسب بين الآيتين ، لأن الله تعالى سبق علمه بخَلْقه مَنْ يضل ومَنْ يهتدى ، مَنْ سيُقبل على الدعوة ، ومَنْ سيعرض عنها .

لذلك قال لنبيه أرح نفسك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..﴿٤٨﴾﴾ [الشورى] والحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بمَنْ سيهتدى وبمَنْ سيظل على ضلاله ، فأبو لهب وأبو سفيان وعمرو وخالد بن الوليد كانوا جميعاً فى خندق واحد ضد الإسلام ، فشاء الله أنْ يؤمن أبو سفيان وخالد وعمرو .

أما أبو لهب فقد ظلَّ على كفره ، حتى بعد أنْ نزلت فيه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

هنا أيضاً أسلوب قصر بتقديم الخبر . أى : لله وحده .

وفى آيـة أخـرى قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [الشورى] فالسـموات والأرض عجيبـة فى ذاتها ، والذى فيهـا أعجب ﴿ وَلِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَـٰوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [النجم] وقـال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٧) ﴾ [النحل]

فهذه مـراحل ثلاث فى مُلك الله ، يملك سبحانه الـظرف السموات والأرض ، ويملك المظروف أى : مـا فى الســمـوات ومـا فى الأرض وكل منهـما عـجيب ويملك الأعـجب من ذلك ، وهو ما خـفى عنا فى ملكوت السموات والأرض .

وهذا يعنى أنك أيهـا الإنســان لا تزهد فى الاسـتنبـاط ، فـالكون ملىء بما تعلمـه وما لا تعلمه من الآيات والعجـائب ، وفيه عطاءات لا تتناهى ولا تنفد ، مـا دامت السموات والأرض ، فإذا نفـدت العجائب والأسرار بنفاد الدنيا جاءت عجائب وأسرار الآخرة .

ثم يُبيِّن سبحانه أن هذا الملـك في السموات والأرض يترتب عليه الجـزاء فى الآخـرة ، لأن الملك ملكُ الله ، والخَـلْق خَلْق الله ، والرسل رسل الله ، والمنهج منهج الله ، فـأمامك أيهـا الإنسان الكون الفـسيح وما فـيه من آيات كـونية تدل على قـدرة الخالق سـبحـانه فاسـتدل بالخلق على الخالق .

ثم أرسل لك الرسل وأنزل الكـتب وشرَّع الشـرائع وبيَّن الحـلال والحـرام ، وبـيَّن الحـدود ، وبيَّن الجــزاء ، فـلا بد أنْ ينتــهى مُلْك السـموات والأرض إلى الجـزاء ، والجـزاء لا بد وأنْ يكون من جنس

العمل ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم]

والآيات ثلاث كما قلنا : آيات كونية تدل على قدرة الله ، وآيات معجزات تدل على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وآيات الأحكام التى يضمها القرآن الكريم ، فمَنْ لم يعتبر بهذه الآيات ولم يحسن استقبالها فقد أساء فيُجزى بإساءته .

ومن أحسن استقبالها يُجزى بإحسانه وكأنه حيا المكلِّف سبحانه وتعالى بالطاعة فيُحييه الله بأحسن منها ﴿ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم] أى : بالأحسن مما قدَّموا ، فإذا كنا قد أمرنا فى الدنيا بأنْ نرد التحية بأحسن منها ، فالله أوْلى بذلك .

وتأمل هنا اللياقة فى التعبير والدقة فى الأداء ، فلم يقُلْ : ليجزى الذين أساءوا بالسوء ، ولكن ﴿ بِمَا عَمِلُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم] فلم يواجههم بكلمة السوء ، ولكن وضع أمامهم العمل الذى قدَّموه .

وفى هذا إشارة إلى عدل الله ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران] . ثم يقدم جزاء أهل السوء على جزاء أهل الإحسان ، ليكون الجزاء بالحسنى هو آخر ما يباشر أسماعنا .

ثم تشرح الآيات وتُفصِّل القول فى الذين أحسنوا ، ما وجوه الإحسان فى أعمالهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ [1] ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

فمن صفات الذين أحسنوا أنهم ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] أى : يتركون بالكلية الكبائر من الذنوب ولا يقتربون من هذه المنطقة المحرمة ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] وهو صغائر الذنوب .

فكأنَّ الله تعالى من رحمته بخلقه تكفَّل لنا بالصغائر أنْ يمحوها ، وجعل لها (أستيكة) أى ممحاة تزيلها وهى الصلوات الخمس ، شريطة أنْ نجتنب الكبائر .

وفى الحديث : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتْ الكبائر »[2] فمَنْ فعل ذلك وسار على هذا المنهج كانت له الحسنى ، وكان من أهل الإحسان .

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٢٦) فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا يقولون : إذا هلك لهم صبى صغير هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ..﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى وكذا فى شعب الإيمان (٣٤٦٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤٤) وكذا (٣٤٢) بلفظ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) .

إذن : الإثم والفواحش هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد الله مرتكبيها ، والفواحش ما فَحُش من الكبائر وعظم ، وقد جعل الله له عقوبة وحَداً .

أما (اللمم) الذى استثناه الله وعفا عنه فهو لمم . يعنى : صغائر هيِّنة لا يترتب عليها كبيرُ ضرر ، وهذه أيضاً مشروطة بعدم الاجتراء عليها أو المبالغة فيها حتى تصير لك عادة .

وإذا عاملك الله تعالى بهذا المنطق فاستح منه سبحانه أنْ تتجرأ عليه ولو بالصغائر ، لأن الصغيرة إذا أضيفت إلى الصغيرة وكان فى الأمر مداومة وإصرار صارتْ كبيرة ، ثم للعاقل أنْ ينظر فى حَقِّ مَنْ هذه الصغيرة ، إنها فى حق الله ، إذن : فاقصر .

قلنا : إن الكبائر جمع كبيرة ما توعد الله عليه بالعذاب فى الآخرة ، أو أقام عليه الحدَّ فى الدنيا ، وهذا فيما يتعلق بحقوق العباد ، فالله سبحانه قدَّم حقَّ العباد على حقِّه تعالى ، وجعل له القصاص العادل فى الدنيا .

ألا ترون أن الله جعل أداء الدَّيْن مقدَّم على أداء فريضة الحج ؟ ورسول الله ﷺ لم يُصل على جنازة أحد الصحابة لأن عليه ديناً ، وحثَّهم على قضاء دينه أولاً .

حتى أنهم قالوا فى معنى « مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[(١)] قالوا : هذا فيما يتعلق بحقِّ الله ، أما

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٣٩) بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمه » . وعند البيهقى فى شُعبه (٣٩٣٣ ، ٣٩٣٤ ، ٣٩٣٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٧٦٤) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٣١٤) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كأنما ولدته أمه » ليس فى الحديث لفظة « من ذنوبه » وقد أخرجها أحمد فى مسنده (٩٨٨٥) .

حقوق العباد فتظل كما هى ، إلى أنْ يكون الأداء أو القصاص ، ذلك يُحدِثُ الردع ولا يجترىء الناس على التعدِّى وانتهاك الحرمات .

وقد علّمنا رسول الله هذا الدرس فى دعائه : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى »[(١)] يعنى : إنْ لم أقدر على الوفاء به .

لذلك قلنا فى السارق الذى أسرف على نفسه وتمادى فى هذه الجريمة ، ثم أراد أنْ يتوب ماذا يفعل ؟ لا بدّ أنْ يجهد فى إعادة الحقوق إلى أصحابها ، فإذا لم يقدر يحسب جملة ما سلبه من خَلْق الله ويتصدّق به بنية صاحبه ، وحين يعلم الله منه صدق التوبة ، فقد يتحمل عنه هذه الحقوق رحمة به .

نلاحظ أن الآية عطفت ﴿الْفَوَاحِشَ .. (٣٢)﴾ [النجم] على ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ .. (٣٢)﴾ [النجم] لأنها كلها كبائر ، لكن الفواحش تضيف إلى الكبيرة صفة الفحش والقبح ، فهى أعظم وأشدّ إثماً من الكبائر ، لأنها منكر مستبشع .

---

(١) أقرب ما وجدته فى هذا بعد طول بحث ما أورده ابن حبان فى (المجروحين) ترجمة إبراهيم بن زيد الأسلمى من حديث أبى هريرة ، وكذا الذهبى فى ميزان الاعتدال (٩٤) وابن حجر فى لسان الميزان ، وأخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (ترجمة شيخه مكى ابن أحمد بن سعدويه) مطولاً ونصه : اللهم أستغفرك وأسألك التوبة من مظالم كثيرة لعبادك علىّ اللهم فأيما خلق من خلقك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى ماله أو بدنه أو عرضه أو دمه قد غاب أو مات نسيته أو فرطته عمداً أو خطأ لا أستطيع أداءها إليه وتحللها منه ، فإنى أسألك يا رباه يا رباه يا سيداه يا سيداه يا سيداه ، أسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت » الحديث . قال ابن حبان فى المجروحين : منكر الحديث جداً يروى عن مالك ما لا أصل له من حديث الثقات ، لا يحل الاحتجاج به بحال .

وقد تكلم العلماء فى الكبائر وربطوا بينها وبين الجوارح التى تُؤدَّى بها ، فعمرو بن عبيد[1] كان عالماً ورعاً يتجنب ما يفعله غيره من العلماء والشعراء من الدخول على الملوك والأمراء لنيْل عطاياهم ، حتى قال فيه الشاعر ، وذلك فى العصر العباسى :

كلُّهُمْ طَالِبُ صَيْدْ   غَيْرْ عَمْرو بن عُبَيْدْ

عمرو بن عبيد وقف عند مسألة الكبائر هذه ، وأراد أنْ يسأل عنها أعلم أهل زمانه بالكتاب والسنة ، فلم يجد أعلم من سيدنا جعفر الصادق[2] بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء .

وكان جعفر الصادق كثير البحث فى آيات القرآن واستيعاب أسراره والتفتيش عن كنوزه ، وكان يستنبط المعانى ويأتى بالدليل عليها .

ومن ذلك قوله : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عمرو بن عبيد التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين ، ولد ٨٠ هجرية وتوفى عام ١٤٤ هجرية عن ٦٤ عاماً . كان جده من سبى فارس وكان أبوه شرطياً للحجاج بن يوسف فى البصرة ، توفى قرب مكة ، من العلماء من يراه مبتدعاً دهرياً .

(٢) هو أبو عبد الله الهاشمى القرشى ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ولد ٨٠ هجرية وتوفى ١٤٨ هجرية عن ٦٨ عاماً ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، مولده ووفاته بالمدينة . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦]

وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ..(٤٥)﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..(٤٠)﴾ [الكهف]

فهذه (روشتة) وضعها سيدنا جعفر ، أخذها بالدليل من كتاب الله وتشمل كلَّ ما يطرأ على العبد من أحوال . وراح عمرو بن عبيد يسأل سيدنا جعفر عن الكبائر ، كل كبيرة بحسب الجارحة التى تؤديها .

فقال : القلب مطلوب منه ألاَّ يشرك بالله ، وألاَّ ييأس من رَوْح الله ، وألا يأمن مكر الله . ثم أتى بالدليل من كتاب الله على كل واحدة ، ففى مسألة الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] وفى اليأس من روح الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ..(٥٣)﴾ [الزمر] وهكذا .

وكبائر اللسان : شهادة الزور ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ [الفرقان] وقذْف المحصنات المؤمنات الغافلات ، واليمين الغموس وهو الحلف على شيء مضى وتعمد مخالفة الواقع ، كذلك من كبائر اللسان السحر .

أما البطن فيتعلق بها شُرب الخمر والعياذ بالله ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . والفرج يتعلَّق به الزنا . واليدان السرقة والقتل . والرِّجْلان الفرار من الزحف . ولكل من هذه الكبائر دليلها الواضح من كتاب الله .

ومن الكبائر ترك الصلاة وهى كبيرة ، يشترك فيها جوارح كثيرة ، وتَرْكها كبيرة لأنها فُرضَت كما قلنا من الله مباشرة لرسوله ، فهى لا تسقط عن المسلم بحال ، لذلك قُلْنا عنها أنها ركنٌ من أركان الإسلام ، وكذلك هى ركن من أركان المسلم ، لأنها ملازمة له لا تسقط عنه .

أما اللمم فهو ما دون الكبائر من الذنوب ، وتُسمَّى الصغائر مثل النظرة ، لذلك قالوا : لك الأولى وليس لك الثانية[1] ، لأن النظرة الأولى طرأتْ عليك وبها تتعرَّف على الأشخاص .

أما النظرة الثانية ففيها قصد للتمادى ، وهذا يجرُّنا إلى النظرة المحرمة ، فالذى يطيل النظرة الأولى ليقول أنها الأولى التى رخص فيها عليه أنْ يحذر ، لأن المراقب للنظرة هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وحتى النظرة الأولى فى الواقع ليست لك ، لكنك معذور فيها ،

---

(١) عن بريدة بن الحصيب الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة » . أخرجه أبو داود فى سننه (١٨٣٧) وكذا الترمذى فى سننه (٢٧٠١) وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢١٨٩٦ ، ٢١٩١٣ ، ٢١٩٤٣) .

لأنها طرأتْ عليك ، فهى تلقائية ليس فيها قصد .

وكذلك من الصغائر الضربة الخفيفة التى لا تؤذى ، أو أنْ تعيب على غيرك صفة من صفاته ، أو خُلقاً من خُلقه ، إلى غير هذا من الأمور ، لذلك سماها الله (اللمم) ، وهذا السجل سرعان ما يُغفر بالاستغفار وفعل الطاعات اليومية .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم] . نعم واسع المغفرة . أى : كثير المغفرة ، لأنه تعالى خلق الإنسان ويعلم مناطق الضعف فيه ، ولما كلَّفه لم يُضيِّق عليه ولم يشقّ عليه ، بل كلّفه على قدر الاستطاعة ، ولم يكلفه إلا بعد سنِّ البلوغ ، فيظل يرتع فى الكون دون تكليف أكثر من عشر سنوات .

ثم بعد أنْ يكلَّف يتحمل عنه الصغائر ، ويُبيِّن له عاقبة الكبائر حتى لا يقربها ، وهذه رحمة من الله بعبده ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] فالله واسع المغفرة ، كثير العفو ، سبقتْ رحمته غضبه ، وسبق عفوه عقابه .

ثم تأتى التوبة الكبيرة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف]

لذلك الذى يعصى ربه عز وجل بعد سنِّ الأربعين يكون (بايخ) ، نعم لأنه وصل للسنِّ التى لا عذر له فى أنْ يتجرأ على الله بالمعصية ،

---

(١) أوزعنى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

فإذا ما بلغ المسلم فى الإسلام الكِبَر والشيخوخة استحى الله أنْ يعذبه ، وقد شاب فى الإسلام .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] نعم النشأة الأولى للإنسان لا يعلمها إلا الله ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١) ﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿ أَنشَأَكُم .. (٣٢) ﴾ [النجم] خلقكم بداية من طين الأرض ، والمراد خلق آدم عليه السلام وما دُمْنا من الأرض نشأة وهى البداية والأم ، فالابن متعلق بأمه ومردّه إليها .

ثم يذكر سبحانه طَوْراً آخر من أطوار الخلق ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] فإذا كان آدم خُلِق من طين الأرض فنسلُه جاء من التزاوج الذى تنشأ عنه الأجنة فى بطون الأمهات .

﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] تزكية النفس يعنى : مدحها وادعاء الصلاح ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم] أى : أن الله تعالى أعلم بخفىِّ الأمور وحقيقتها ، أعلم بكم من ساسكم لرأسكم ، ولا يخفى عليه منكم شىء ، فلا مجال إذن لتزكية النفس .

حتى فى حالة مدح الآخرين والثناء عليهم علّمنا أنْ نقول : ولا نُزكى على الله أحداً ، لأن الله تعالى هو الذى يُزكِّى ، وهو أعلم بأهل الطاعة وبأهل التقوى الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ[2] ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

قالوا[3] : نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة ، حيث كانت بداية علاقته بدعوة الحق أنْ تولَّى عنها وأعرض عن سماع القرآن ، ثم حَنّ قلبه وأُعجب بما يقوله رسول الله ، فأعطى قليلاً من الأمان لأمر الدعوة واطمأن لها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس والسدى والكلبى والمسيب بن شريك : نزلت فى عثمان ابن عفان ، كان ينفق ويتصدق فى الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئاً . فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم] فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٢٧] قال ابن عطية : « عثمان رضى الله عنه منزه عن مثله » .

(٢) أكدى الرجل : بخل ومنع وانقطع خيره . وأصله من أكدى حافر البئر أن وصل فى أثناء حفره إلى الكدية وهى الأرض الصلبة فينقطع عن الحفر يائساً من ظهور الماء . [القاموس القويم ٢/١٥٦] .

(٣) قاله مجاهد وابن زيد ، أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيَّره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ قال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . [ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٢٧] .

ثم تذكر عزته ومكانته بين قومه وخاف أنْ يُقال صبأ عن دين الآباء والأجداد فنكص على عقبيه وتراجع . وقالوا : جاءه رجل وحذَّره من الإيمان بمحمد . وقال له : إن كنت خائفاً من العذاب ، فأنا أتحمله عنك مقابل أنْ تعطيني كذا وكذا ، فأعطاه ثم تراجع ومنعه .

وقالوا : نزلتْ في النضر بن الحارث[1] أيضاً : جاءه رجل وقال له : إن عذاب الله شديد وأنا أتحمله عنك ، وأعطني خمس قلائص[2] أي : خمساً من الجمال لكنه استكثرها ، فمنع الرجل هذا العطاء . وقالوا أيضاً : نزلت في صفوان .

هذا معنى ﴿ أَفَرَأَيْتَ .. (٣٣) ﴾ [النجم] يا محمد ﴿ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) ﴾ [النجم] أي : أعرض عنك وتركك ومضى ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً .. (٣٤) ﴾ [النجم] من العطاء أو من الأمان .

﴿ وَأَكْدَىٰ (٣٤) ﴾ [النجم] منع عطيته من الكدية يقولون : حفر فلانٌ الحفرة فاستقامتْ له . أي : وجد ما ينتظره منها ، وحفر فلان الحفرة فأكدتْ . أي : لم يجد شيئاً ، أو وجد حجراً كبيراً منعه من الوصول إلى بُغيته ، والحجر هذا يُسمى كدية . ومنه قولنَا : عقبة كأداء . يعني : تمنعك من الوصول إلى هدفك .

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) ﴾ [النجم] أطلع على الغيب وعلم

---

(١) النضر بن الحارث ، قاله الضحاك ، أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه . (كان صاحب لواء المشركين ببدر وقتل فيها (٢ هجرية) الأعلام للزركلي ٨/٣٣) .

(٢) قلائص : جمع قلوص ، وهي كل أنثى من الإبل حين تركب . وفي التهذيب : سميت قلوصاً لطول قوائمها ولم تجسم بعد . [لسان العرب - مادة : قلص] .

الحقيقة ، أو علم أن هذا الرجل سيَفِى فى التحمل عنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] يعنى : ألم يعلم هذا المعرض عن دعوة الحق ما جاء فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ؟

لكن ماذا يعنى بما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ؟ يجيب القرآن ويُفصِّل المجمل فى الاسم الموصول (بمَا) فيقول سبحانه :

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

هذا الذى ورد فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] لا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى ، فإياك أنْ تظن أن أحداً يتحمل عنك وزرك ، ويقع عليه العذاب بدلاً عنك ، لأن الحساب فى الآخرة بالقسط وبالعدل .

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] ليس له إلا عمله ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرٌ ، وهذا يقطع الأمل فى الانتفاع بعمل الغير ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر] فأنت لا تنتفع إلا بعملك وسعيك فاجتهد .

وفى آخر سورة الأعلى ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] لكن لما كان المقام هنا مقام الحديث عن الوفاء فيمن قال له : أتحمل عنك ذنوبك ، ذكر

سبحـانه صفة الوفاء فى سيـدنا إبراهيم ، فقال ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم]

لذلك قـال تـعـالى فى سـيــدنا إبراهيم : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] نعم أتم سيدنـا إبراهيم ما أمره الله به غاية التمـام ، ونجح فى الامتحان بامتياز مـع مرتبة الشرف ، وهذا واضح من قصة بناء البيت ، وقصة ذبح ولده إسـماعيل عليهما السلام .

فلمـا أتمَّ مـا أمر به قـال الله له : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] فكانت المكافأة على قدْر الإتمـام ، وعلى قدْر صدق الأداء .

وقف بعض المستـشرقين عند هذه الآية ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) ﴾ [النجم] وقـالوا : كـيف نـجـمع بينهـا وبين قــوله تعـالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] فأيّهما أصح ؟

نقول : كلاهمـا صحيح ، لأن لكل منهما معنى ، فـالأولى تتحدث عن الذنب وعن الشـر يرتكبه الإنسـان بنفسـه فى ذاته ، فهو يـحمل

---

(١) فى الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم أقوال كثيرة منها :
أولها : أنها خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . أما التى فى الرأس فالفرق والمضمضة والاستنشاق وقص الشـارب والسواك . وفى الجسد تقليم الأظافـر وحلق العانة ونتف الإبط والاستطابة بالماء والختان . رواه طاووس عن ابن عباس .
الثانى : أنها المناسك . الثـالث : أنه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمـر ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير آية البقرة ٢ .

عقوبة ذلك ، لا يحمله عنه أحد .

أما الآية الأخرى فتتحدث عن الإنسان الذى يُضل غيره ، ضَلَّ فى نفسه وعدَّى ضلاله إلى الغير ، فيتحمل وِزْره ووزر مَنْ أضلَّه بغير علم .

وقد اختلف العلماء حول قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] فقال بعضهم : المعنى أن الإنسان ليس له إلا ما قدّم ، ولا ينتفع أحد بعمل أحد . وقال آخرون : بل ينتفع الإنسان بعمل غيره ، وفى تاريخنا وسُنَّة سيدنا رسول الله ما يؤيد ذلك .

ونحن نُرجِّح القول الثانى ، لأن السعى هو مطلق الحركة لغاية ، وهذه الحركة قد تكون بالشر كالذى يسعى فى الأرض فساداً وظلماً ، وقد تكون بالخير كالذى يسعى لإصلاح الكون وصلاحه .

والسعى يختلف باختلاف قوة الساعى ، ومدى إيمانه بقضايا دينه ووطنه ، فواحد يسعى لنفسه ولا يرى إلا ذاته ، وآخر يسعى لأسرته ، وآخر يسعى لبلده ، وآخر يسعى لإسعاد العالم كله ، نعم :

عَلَى قَدرِ أهْلِ العَزْمِ تَأتِى العَزَائمُ وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكرَامِ المكَارِمُ

لذلك قالوا : للرجال أوطان تختلف باختلاف هممهم ، فرجل وطنه نفسه ، ورجل وطنه أسرته ، ورجل وطنه بلدته ، ورجل وطنه العالم كله ، وهذه من فلسفة الإيمان الذى يحثّ المؤمن على أنْ يُعدى خيره للناس جميعاً حتى الكافر منهم .

وبهذه الفلسفة ، وبهذا المعنى ينفع الرجل غيره ، والأدلة على هذا الرأى كثيرة ، فسيدنا رسول الله ألم يُبعث للعالم كله ؟ ألم تشمل

رحمته المؤمن والكافر ؟ ألم يقل الله فى حقه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ومن رحمته بأهل الموقف فى الآخرة أنْ يشفع لهم فى أنْ يُعجِّل لهم الحساب ، لأنهم فى موقف يتمنون فيه الانصراف ولو إلى النار . ومن شفاعته ﷺ أنْ يشفع فى أهل التوحيد الذين دخلوا النار أنْ يخرجوا منها ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ثم ألم يأمرنا الشرع بالصلاة على الميت ؟ ولو كانت الصلاة على الميت لا تنفعه لكانت عبثاً ، بدليل أننا ندعو له فيها ، وهذا انتفاع ، لكن المعارضين لهذا الرأى يقولون : وهل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المسلم ، فالمنفعة تأتى من كونه مسلماً ، فإسلامه هو الذى ينفعه .

قلنا لهم : خذوا دليلاً آخر فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم(١) مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] ألم ينتفع الأبناء بصلاح الآباء ؟

قالوا : انتفعوا بصلاحهم لأنهم تحملوا مشقة هذا الصلاح فى الدنيا ، فعوَّضهم الله ما حُرِموا منه فى الآخرة ، بمعنى أن الإنسان المستقيم الذى يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه لا شكّ يضيق على أولاده ، على خلاف الذى يرتع فى الدنيا طولاً وعرضاً ، ولا يلقى بالاً لمسألة الحلال والحرام ؛ فأولاده يكونون أحسنَ حالاً فى المأكل والمشرب والملبس ، وهكذا ، إذن ما يجده أبناؤه الصالحون من نعيم

(١) ألتناهم : نقصناهم . ألته يألته : نقصه ، أى ما أنقصناهم شيئاً من ثواب عملهم . [القاموس القويم ١/٢٣] .

الآخرة ، جاء عوضاً عمّا تحمّلوه فى الدنيا .

أيضاً يُروَى[(١)] عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مَرَّ على رجل يصلى وحده ، منفرداً ، فقال : ألاَ رجل يتصدَّق على هذا ؟ أى : يصلى معه ليأخذ ثواب الجماعة ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

وسيدنا رسول الله لما امتنع عن الصلاة على الميت المدين[(٢)] كان امتناعه لمنفعة الميت ، وقد انتفع بهذا الامتناع بالفعل ، رسول الله امتنع عن الصلاة عليه ، لأنه قال فى الحثِّ على قضاء الدَّيْن : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه .. »[(٣)] .

ويبدو أن هذا الميت مات وعليه دين لا يستطيع قضاءه ، فأراد رسول الله أنْ يحرك مشاعر الخير فى نفوس الصحابة ليبادروا بسداد دين صاحبهم ، وبالفعل لما قال عليه الصلاة والسلام : صلوا على صاحبكم ، قام أبو قتادة وقال : أنا أسُدُّ عنه يا رسول الله ، عندها

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٧) وأحمد فى مسنده (١١١٨٧ ، ١١٣٨٠) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧١٤) والدارمى فى سننه (١٤١٩ ، ١٤٢٠) كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وهو عند أحمد فى مسنده (٢١١٦٥) من حديث أبى أمامة وفيه زيادة « هذان جماعة » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته . (أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٠٤٠) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » .

صلى عليه رسول الله[1] ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ولكى ننهى هذا الخلاف ونحلُّ هذا الإشكال نقول : لو تأملنا الآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] سنجد فيها ما يؤيد رأينا ، فاللام هنا كما يقول أهل اللغة للملك ، كما تقول : ليس لزيد عندى إلا عشرة . هذا هو الحق .

إذن : الله تعالى ذكر العدل ولم يذكر الفضل ، فأنت حين تدخل مطعماً مثلاً لتتناول الغداء وعند الانصراف تقول للعامل : كم الحساب ؟ يقول : كذا وكذا . تقول له (خُذْ وخلى الباقى علشانك) .

هذا بين الناس فى أمور الدنيا الهيِّنة ، فما بالك بأمور الدين والشرع ؟ وإنْ كان هذا عطاؤك فكيف بعطاء الله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ [النجم] فهذا السعى لا يُترك هكذا دون تعقيب عليه ، بل سيُراقب وسيُرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .. (١٠٥) ﴾ [التوبة]

وكلمة (سوف) تدل على المستقبل ، فسعيك لن يذهب هباءً بل عملك فى الدنيا سيراه الله ويراه رسول الله ويراه المؤمنون . أى : فى الآخرة وسوف تنال عليه الجزاء المناسب ، ليس الجزاء بالعدل ، إنما الجزاء بالفضل .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة ، فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم ، قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صلِّ عليه يا رسول الله وعلىَّ دينه . فصلّى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧ ، ٢١٣١) وأخرج أبو داود فى سننه نحوه (٢٩٠٢) وكذا الترمذى فى سننه (٩٨٩) .

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] تأمل ، لم يقل : الجزاء العادل ، بل الجزاء بالزيادة والفضل والحوافز ﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] والأوفى من صيغ التفضيل التى تدل على الزيادة .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾

إلى ربك المرجع ، وإلى ربك المصير والمنتهى ، والآية فيها أسلوب قَصْر بتقديم الخبر على المبتدأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم] إلى ربك وحده دون سواه تنتهى الأمور فى الآخرة ، فالدنيا ليست هى نهاية المطاف ، وليست هى الغاية ، وهذه مسألة يُقِرُّ بها العقل قبل الشرع .

فلو كانت الدنيا هى الغاية وهى النهاية ، لكانت الحظوة لأهل الشهوات ولأهل الظلم والتعدِّى ، لأنهم حققوا ما يريدون فى الدنيا وعاشوها بالطول والعرض ، ففازوا بمتاع الدنيا ، ولم يعاقبوا عليه ولم يحاسبوا .

إذن : العقل يقول : لا لابدَّ أن هناك يوماً للحساب وللقصاص ، العدل يقتضى ذلك .

ولو أيقن الناسُ بهذه الآية وفهموا هذا المعنى لاستقامتْ أمورهم ، ولفكَّر الإنسانُ مرة وألف مرة قبل أنْ يُقدم على معصية الله أو ظلم الخَلْق ، ولعمل حساباً لهذا المنتهى الذى لابدَّ له أنْ ينتهى إليه .

وهذه الآية أيضاً تدلنا على أن العبد وإنْ خلقه ربه مختاراً يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإن هناك منطقة أخرى قهرية لا اختيار

له فيها ، وهل لك اختيار فى غِناك أو فقرك ؟ صحتك أو سقمك ؟ حياتك أو موتك ؟

إذن : مهما كنتَ حراً ومختاراً فلا غنى لك عن ربك ، ولا ملجأ لك غيره ، فلا تتمرد عليه بالعصيان ، لأن منتهاك إليه فى الآخرة للحساب ، ومنتهاك أيضاً فى أمور حياتك الدنيوية إليه وحده ، فأنت فى قبضة قدره لا تستطيع الانفلات منها .

فالذى يتمرّد على منهج الله أيستطيع أنْ يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أيستطيع أنْ يمتنع عن ملَك الموت إنْ جاء أجله ، إذن : لك منتهى فى الدنيا قبل منتهى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] أى : خلق فيك الضحك وخلق فيك البكاء جعلك تُسر وتحزن ، أنت مثلاً حينما تشاهد عملاً (كوميدياً) تضحك ، (فالكوميديا) سبَّبتْ عندك الضحك ،

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول) ص ٢٢٧ عن عائشة رضى الله عنها قالت : مر رسول الله ﷺ بقوم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً . فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل عليه السلام فقال : ائت هؤلاء وقل لهم : إن الله عز وجل يقول ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] .

لكن لم تخلق فيك طبيعة الضحك .

لذلك لما كان فى هذا الفعل شبهة المشاركة أكّد الحق سبحانه تفرّده بالعمل ، فلا دخلَ لأحد غيره فيه ، فقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٣)﴾ [النجم] فأكّد الضمير المتصل بضمير آخر منفصل ، فهو وحده الذى جعلك تضحك ، بمعنى خلق فيك هذه الطبيعة وجعلك صالحاً لها .

لذلك نجد أن المشاعر والعواطف والأمور الطبيعية فى البشر تتحد فى جميع اللغات وعند كل الشعوب على اختلافها ، فليس هناك مثلاً ضحك عربى ، وضحك إنجليزى أو ألمانى ، ليس هناك بكاء روسى ، وبكاء يابانى .

ففى هذه الأمور يتحد الناس ، حتى فى الإشارة نجدها واحدة على اختلاف اللغات ، الكل يفهمها لأنها أصل التفاهم بين البشر قبل وجود اللغات ، فالإشارة لغة عالمية .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] أكد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، لأن مسألة الإحياء والإماتة فيها شبهة المشاركة ، فقد يظن البعض أن الطبيب مثلاً هو الذى أمات المريض أو أحياه ، أو يظن أن القاتل هو الذى أمات القتيل .

فالحق سبحانه يختصّ لنفسه سبحانه بهذه الأمور له وحده سبحانه دون سواه ﴿أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] فالواقع أن القتيل حين قُتل لم يُمتْه القاتل ، إنما جاء أجله موافقاً لهذه الضربة فمات ، مات لأنه سيموت فى هذه اللحظة حتى لو لم يضربه القاتل .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

.. ﴿ ② ﴾ [الملك] فالموت والحياة خلق لله وحده لا دخلَ لأحد فيهما ، لذلك قال الشاعر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِه تَعدَّدَتْ الأسْبَابُ وَالموْتُ وَاحِدُ

وقالوا : والموت من دون أسباب هو السبب . يعنى : مات لأنه سيموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم] لاحظ هنا أنه سبحانه لم يقل : وأنه هو ، لأن المسألة لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، فقضية الخلق الكل يُسلِّم بها لله ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، وليس فيها شبهة المشاركة من الخَلْق .

ومعنى (الزوجين) أى : النوعين الذكر والأنثى . فالزوج فرد معه مثله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] فأصل الخَلْق نطفة وهى قطرة المنى .

﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] أى : تُدفع وتلقى فى رحم المرأة ، فيكون منها الولد بقدرة الله .

وهذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً طال الخلاف فيه بين العلماء ، فقد كان البعض يعتقدون أن المرأة هى المسئولة عن النوع : ذكر أم أنثى . لكن حينما نقرأ هنا ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] نعلم علم اليقين أن الرجل هو المسئول عن هذه المسألة ، فالنطفة هى نطفة الرجل يلقيها فى رحم زوجته ،

فالزوجة إذن مُستقبلة تعطى ما أخذتْ .

وقلنا : إن المرأة العربية قد توصلتْ بطبيعتها وفطرتها إلى هذه الحقيقة ، فالمرأة التى تزوج عليها زوجها لأنها لا تلد له إلا البنات ، قالت :

مَا لأبِى حَمْزَةَ لاَيَأتينَا يظَلّ فى البَيْتِ الذى يلينا
غَضْبَانَ ألاَّ نَلدَ البَنينَا تَالله مَا ذَلكَ فى أيْدينَا
ونَحْنُ كَالأرْضِ لغَارسينَا نُعْطِى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطينَا

إذن : انتهتْ المرأة العربية بفطرتها إلى ما انتهى إليه العلماء مؤخراً ، ولابد أن نفرِّق بين النطفة والمنى : النطفة هى السائل الذى يعيش فيه الحيوان المنوى ، والمنى الميكروب نفسه الذى يكون منه الولد .

ورحم الله العقاد[1] حينما قال : إن نصف كستبان الخياطة يحوى أنْسَال الدنيا كلها ، ويمكن أنْ نملأ نصف كستبان الخياطة بقذفة واحدة للرجل ، سبحان الله .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، ولد ٢٨ يونيو ١٨٨٩ م بأسوان ، تخرج من المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ م ، كان مولعاً بالقراءة فى مختلف المجالات ، عمل فى أعمال كتابية فى عدة محافظات ، ثم اتجه للعمل فى الصحافة (صحيفة الدستور) ، دخل فى معارك أدبية مع زكى مبارك والرافعى وبنت الشاطىء . توفى عام ١٩٦٤ م عن ٧٦ عاماً .

يعنى : لا تظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، فالذى أنشأكم هذه النشأة فى الدنيا قادر على إعادتكم فى نشأة أخرى يوم القيامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ أَفَعَيِينَا(١) بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

والخَلْق الجديد سيكون فى الآخرة حين يبعث اللهُ الموتى ، والذى خلق بداية من عدم قادر من باب أوْلَى على الإعادة من بقايا الخَلْق الأول ، لذلك قال سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ [النجم] لاحظ هنا التخصيص والتأكيد بإعادة الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل ، وهذا يدلنا على أن مسألة الرزق والغنى والفقر لله وحده لا دخْلَ لأحد فيها ، فهو وحده سبحانه الذى يسوق الأرزاق ، ويجعل هذا غنياً وهذا فقيراً .

إذن : لما وُجدت الشبهة فى أن أحداً يشارك الله فى هذه المسألة جاءت الآية بهذا الأسلوب ، ألا ترى للآية قبلها ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) ﴾ [النجم] هكذا بدون (هو) لأن مسألة النشأة الأخرى ليس فيها شبهة المشاركة .

معنى ﴿ أَغْنَىٰ .. (٤٨) ﴾ [النجم] أغناك أيها العبد بما ملكه لك عما فى يد غيرك ، فالغنى إذن كلّ ما أغناك عن الناس من مال أو قوة أو غيره ﴿ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ [النجم] أقنعك وأرضاك بما عندك مهما كان قليلاً .

---

(١) أفعيينا : أى أعجزنا فعيينا بالخلق الأول ، والاستفهام للنفى ، أى لم نعجز ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

وكثيراً ما نرى أناســاً ضُيِّق عليهم الرزق ، ومع ذلك تراهم راضين بقسم الله ، بل سعداء به ، ورُبما كـانوا أحسن حالاً من الأغنياء ، إذن : هذا عطاء وهذا أيضــاً عطاء ، فالقناعـة والرضــا تســاوى الغنى وســعة العيش .

ومن ذلك قالوا[1] : « القناعة كنز لا يفنى » فى حــين أن كنز المال ربما يفنى ، فــالغنى الحقيقى إذن فى النفس ليس فى الــعرض . وقالوا ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم] من القنيــة أى : ما يقتنيــه الإنسان من المــتاع والأثاث ونحوه .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ[2] الشِّــعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] الشِّــعْرى[3] كـوكب من الكواكب ، قالوا : إنه من الضــخامة بحيث يسع مليـون شمس مثل هذه الشــمس ، وأنه لو اقتــرب من الأرض لاحــترقتْ ، فكــأنه يمد الشــمس بالحرارة وهى تمدنا ، فلا نأخذ منها مباشرة مثل التيار الكهربائى .

---

(١) أورده السيــوطى فى الدر المنثور (٢/٢٣٢) وعزاه للبـيـهقى فى الزهد عن جابر بن عـبد الله ، وأخرجه البيهقى (١١٤) ثم قال : « هذا إسناد ضعيف » . قال الألبانى فى (ضعيف التـرغيب والترهيب) (٥٠٠) : « ضعـيف جداً » . وقال ابن حجر الهـيثمى فى الزواجر (١/٤٨٤) : رفعه غريب .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥١٩) : « إنما ذكر أنه رب الشعـرى وإن كان رباً لغيره لأن العرب كـانت تعبـده . واختلف فيـمن كان يعبـده ، فقال الســدى : كانت تعـبده حمـير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى ﷺ من قبل أمهاته » .

(٣) الشعرى : نجم منه الشعـرى الشامية وهو ألمع نجم فى كوكبة الكلب الأصــغر ، يبعد عن الأرض بــ ١١ سنة ضوئية . وهناك الشـعرى اليمانية فى كوكبـة الكلب الأكبر ، وهو أقرب للأرض من الشِّعرى الشــامية فهو يبــعد ٨ سنوات ضوئية . [الموســوعة الفلكية ص ٢٢٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

فلو أخذنا للبيوت من التيار العالى فى الأكشاك لاحترقتْ الأجهزة والمصابيح فى البيت ، لأن الضعيف لا يستطيع أنْ يستقبل من القوى مباشرة ، بل لابدّ من المنظم أو (الترانس) ، وهكذا تكون الشمس بالنسبة للشعرى .

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ ﴾

معلوم أن عاداً قوم سيدنا هود عليه السلام ، وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذّبوا نبيهم ، ومعنى ﴿عَاداً الأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم] أن هناك عاداً أخرى ، قالوا : لما نزلت عليهم الريح أهلكتْ الموجودين منهم فى هذا المكان الذى حَلَّ عليه العذاب ، وكان منهم جماعات متفرقة تجمعوا ، والتمسوا مكاناً آمناً ، فذهبوا إلى مكة ، وهذه هى عاد الأخرى .

﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١﴾ [النجم] فكما أهلك عاداً أهلك ثموداً بالصيحة ﴿فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١﴾ [النجم] لم يُبْق منهم أحداً .

كذلك ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ .. ۝٥٢﴾ [النجم] أهلكهم الله ، ثم ميَّزهم عن سابقيهم بصفتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم]

إذن : كان الظلم والطغيان موجوداً فى عاد وفى ثمود ، أما قوم نوح فهم (أظلم) أشد ظلماً (وأطغَى) أشد طغياناً . ويكفى دليلاً على ذلك أنْ نبيهم لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا قليل .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ (٥٣) ﴾ [النجم] معطوفة على عاد وثمود وقوم نوح . وهى قرى قوم لوط ، سُميت المؤتفكة ، لأن الله تعالى كفأها رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، لذلك نسمى الكذب إفكاً لأنه يَقلب الحقائق ، ومنه حادثة الإفك التى تناولتْ السيدة عائشة فى سورة النور .

ومعنى ﴿ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أنها هوتْ وسقطت ، لأن الملائكة رفعتها إلى عنان السماء ثم كفأتها على مَنْ فيها ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم] غشَّاها نزل بها وعَمَّها أو غطاها .

﴿ مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم] ما تعجبية تفيد الكثرة التى تفوق الوصف . أى : غشَّاها أمر فظيع عجيب وهول رهيب . نعم لأن الله تعالى جمع على قوم لوط ألواناً من العذاب فى وقت واحد أو متتابعة بعضها إثر بعض .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا (٨٢) ﴾ [هود] أى : بهلاكهم ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ مُّسَوَّمَةً (٨٣) ﴾ [هود] أى : مُعلّمة ، كل حجر عليه اسم صاحبه فلم تكُنْ عشوائية ، بل كانت محسوبة بدقة ، فالحجر ينزل على صاحبه لا يتعدَّاه ، ومثلها الحجارة التى أمطر بها أصحاب الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) ﴾ [الفيل]

والعجيب بعد أنْ صرح السياق القرآنى بلفظ الحجارة أنْ نسمع مَنْ يقول ، بل هى ميكروب أو فيروس أصابهم جميعاً ، والميكروب له مدة حضانة لينشط بعدها ، أما هذه فنزلت عليهم فى لحظتها[1] .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه على نُصْرة الله له وتأييده الدعوة ، فسنة الله فى الدعوات أنْ ينتهى الأمر بنصرة الحق ، وها هى الأدلة باقية شاهدة على إهلاك المكذِّبين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] فآثارهم باقية ترونها ليل نهار .

(١) عمدة من قال هذا التفسير هو الإمام محمد عبده فى تفسير جزء عم طبعة دار الشعب القاهرة (ص ١٢٠) واعتمد فيما ذهب إليه على قول عكرمة ويعقوب بن عتبة أنه جدرى وحصبة ، وأن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ، فقال : « قد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه » .

أقول : ليس هناك تعارض بين تفسير الإمامين الشعراوى ومحمد عبده ، فالمشترك بينهما أن هناك طيراً وأنها تحمل حجارة ، فجائز أن يكون هناك من مات بفعل الحجارة مباشرة ، وأنها فى ذات الوقت مسمومة ، فمن لم يمت بها مباشرة مات بفعل ما تحمله من جراثيم بعد يوم أو اثنين أو أكثر . وجائز أيضاً أن يكون الميكروب انتشر وظهر فى أرض العرب كما قالت الرواية ، وهذا يحدث بعد كل الحروب سواء من السلاح المستخدم أو نتيجة تحلل الجثث ، فلا تعارض [عادل أبو المعاطى] .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] بأىِّ نِعَم ربك يا محمد ﴿ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] المراء الشك أو الجدال ، كأنه تعالى يقول له اطمئن فسوف يُتم الله عليك نعمه .

وفى سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] والحديث للإنس والجن ، والرسول ﷺ لما قرأها قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن فكانوا أحسنَ استجابة منكم ، فلما سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد(١) .

إذن : مشروع أن ننفعل للقرآن عند سماعه بما يناسب المقام ، فعند الحمد نحمد الله ، وعند التسبيح نقول سبحان الله . وعند ذكر الجنة ندعو الله بها ، وعند ذكر النار نستعيذ بالله منها وهكذا .

وفرْقٌ بين إعجاب صامت مكبوت فى النفس ، وإعجاب منطوق مُعبَّر عنه ، ثم إنك حين تعبر عن تفاعلك مع القرآن باللفظ تكون قدوة فى ذلك لمَنْ يسمعك .

كلمة (أى) هنا تفيد الكثرة و (آلاء) نِعَم جمع (ألىً) أى : نعمة(٢) . والمراء أى : الجدال ويكون بين طرفين يجتهد كل منهما لإقامة حجته على الآخر . والمراء فى اللغة مأخوذ على معنيين : مرو الحبل يعنى فتله لتقويته ، وبحسب مهمة الحبل يكون عدد الخيوط المفتولة . أو مأخوذ من يمرى الناقة . أى : يحلبها ويأتى بكل ما فى ضرعها .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٣٢) من حديث جابر بن عبد الله وكذا الترمذى فى سننه (٣٢٩١) فى كتاب التفسير ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه للبزار وابن جرير وابن المنذر والدار قطنى فى الأفراد وابن مردويه والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر .

(٢) وقد يكون المفرد (إِلْىٌ) و(إِلىً) .

إذن : تجادل لتقوى حجتك ، أو تجادل لتخرج كلَّ ما في جعبة الخصم .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا .. (٥٦) ﴾ [النجم] إشارة إلى النبى ﷺ ، وما جاء به من دعوة الحق ، والنذير هو الذى ينذر الناس ويحذرهم من الشر قبل أوانه ﴿ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) ﴾ [النجم] النذر الأولى . أى : التى خلتْ قبل رسول الله من مواكب الرسل السابقين ، فعظمة النذارة فى سيدنا رسول الله أنه آخرُ نذير وخاتم الرسل أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] أى : اقتربتْ الساعة فكأنه ﷺ جاء على فم الساعة ، فبعد أنْ قال ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ (٥٦) ﴾ [النجم] أعقبها ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : «بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى»[2] فبعثته ﷺ تُعد من علامات الساعة .

وقد خاطبه ربه تعالى بقوله : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) ﴾ [النازعات] أى : من ذكرى الساعة وعلاماتها . وما دام أزفت الآزفة

---

(١) فيه قولان : أحدهما : أنه القرآن نذير بما أنذرت الكتب المتقدمة . قاله قتادة . والثانى : أنه رسول الله نذير بما أنذرت به الأنبياء . قاله ابن جريج . [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] . ومثله فى تفسير الماوردى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٨٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٤٤) من حديث سهل بن سعد الساعدى . فهو حديث متفق عليه .

واقتربتْ فانتبه ، فهذه آخر الرسالات فتعلّق بها وتمسّك بهذا الرسول الخاتم والنذير الأخير الذى ليس بعده نذير فانْجُ به .

ونفهم من معنى ﴿ أَزِفَتِ (٥٧) ﴾ [النجم] اقتربتْ أنها هى التى تسعى إليك وتطلبك بخطوات حثيثة تسرع إليك . وبعد قليل فى أول القمر سيقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ (١) ﴾ [القمر]

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ [النجم] يعنى : إذا جاءت أهوال الساعة لا أحدَ غير الله يستطيع أنْ يدفعها ، فأنت فى أحداث الدنيا وخطوب الحياة قد يوجد مَنْ يكشف عنك الكرب أو يدفع عنك السوء .

أما فى الآخرة فالخطب جلَل ، ليس لأحد قدرة على دفعه ، وإلا كيف يدفعها ، وهى الطامة الكبرى التى تعم الجميع ، كيف يدفع عنك وهو لا يستطيع أنْ يدفعها عن نفسه ؟

إذن : استعدوا لهذا الموقف ، وخذوا لكم دافعاً من الله ، فهو وحده لا شريك له القادر أنْ يدفع عنك فى هذا اليوم .

ولا غرابة فى أزفتْ الآزفة واقتربت الساعة ، وقد ظهرت لنا فى واقع الحياة علاماتها الصغرى التى أخبرنا بها سيدنا رسول الله من وجود نساء فى مجتمع المسلمين كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة[1] البخت المائلة[2] .

---

(١) كأسنمة البخت : أى كظهور الجمال جمع سنام . قال فى لسان العرب : شبَّه رؤوسهن بأسنمة البخت لكثرة ما وصلن به شعورهن حتى صار عليها من ذلك ما يفيئها أى يحركها خيلاء وعجباً .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٣١١) والبيهقى فى شُعبه (٥١٢٤ ، ٧٥٥٤) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٤٩) وابن حبان فى صحيحه (٧٥٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله : إذا أُسندَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[(١)] ، وقوله : « وإعجاب كل ذى رأى برأيه » ،[(٢)] «وأن ترى الحفاة العراة رِعَاء الشاة يتطاولون فى البنيان »[(٣)] . إلى غير هذه من العلامات التى شاهدناها بالفعل ، فلِمَ العجب إذن ؟

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

الهمزة هنا استفهام للتعجب ، فهم يتعجبون من ﴿ هَـٰذَا الْحَدِيثِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النجم] أى : من القرآن وهو يتعجب منهم ، يقول لهم : أتتعجبون من القرآن ؟ الأوْلَى بكم أنْ تتعجبوا من حالكم وما أنتم فيه من لهو وغفلة وانصراف عن الحق ، وهذا يُفوِّت عليكم الفرصة ويحرمكم خيراً كثيراً .

ونفس المعنى فى ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النجم] تضحكون سخرية واستهزاءً ، وكان الأوْلَى بكم أنْ تبكوا على أنفسكم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » . وفى رواية عند البخارى (٦٠١٥) والبيهقى فى سننه الكبرى « إذا أسند » .

(٢) أخرج نعيم بن حماد فى كتاب الفتن عن أبى ثعلبة الخشنى عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت إعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع عنك أمر العوام » وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٠٣٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩٣٩٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٨٦) ولكن ضعفه الألبانى فى صحيح وضعيف الجامع الصغير (٦٠٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٩) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٧٥) ، والترمذى فى سننه (٢٥٣٥) ، والنسائى فى سننه (٤٩٠٤ ، ٤٩٠٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وعلى ما فاتكم من الخير ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم] لاهون غافلون .

وهذا حال مَنْ قستْ قلوبهم وغلبهم الشيطان والنفس ، تراهم إلى جانب انصرافهم عن الحق يسخرون من أهله ويضحكون استهزاءً بهم .

كما قال تعالى فى تصوير هذا الموقف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا (٢٩)﴾ [المطففين] سماهم مجرمين ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

نعم ، هذا حال أهل الباطل الذين يقلبون الحقائق فى الدنيا ، لكن الدنيا ليست هى الغاية ، وليست هى نهاية المطاف ، فهناك اليوم الآخر الذى يفصل فيه بين الظالم والمظلوم ، كما قالوا : وعند الله تجتمع الخصوم .

فالله يُطمئن أهل الإيمان : ﴿فَالْيَوْمَ (٣٤)﴾[المطففين] أى : يوم الحساب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)﴾ [المطففين] ومَنْ يضحك أخيراً يضحك كثيراً ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] وعندها نقول : نعم يا رب جازيتهم بما يستحقون .

وقوله سبحانه : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] نلاحظ

(١) فكهين : بطرين أشرين . والفكه : من البطر والأشر والاستكبار والاستهزاء بالآخرين . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

أولاً أسلوب الاختصار فى الأداء القرآنى الذى يترك مجالاً لفطنة المتلقى ، فالمعنى : فاسجدوا لله واعبدوا الله ، لأنه وحده المستحق للعبادة لا شريك له ، فالأمر بالعبادة لا ينصرف إلا إليه سبحانه ، حتى لو لم يُذكر المعبود سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى حينما يأمرهم بالسجود والخضوع والطاعة كأنه يقول لهم : كان أوْلَى بكم البكاء والخضوع والتضرع ، وأنْ تتمسكوا بهذا الحق الذى جاءكم ليأخذ بأيديكم ، فهو حبل النجاة فلا تقابلوه بالسخرية .

وهنا ملحظ فى نهاية السورة يأتى الأمر بالسجود ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] كأن الله يتودد إلى عباده حتى الكافرين يقول لهم : يا عبادى أنتم صنعتى وعيالى ، فتعالوا إلى ساحتى .

انهوا الخلاف والمعارضة ، واخضعوا لى بالسجود والعبادة ، فأنا أريد لكم الخير ، وهل هناك صانع يريد الشر لصنعته ؟ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، أنا لك محب فبحقِّى عليك كن لى محباً »[1] .

ولله المثل الأعلى : أرأيتَ لو أن رجلاً غنياً وسّع الله عليه وعنده ولد فاسد ، فينادى عليه : يا بُنى تعالَ انتفع بمالى ، فأنت أحقُّ به ،

---

(١) أورده القشيرى فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (٦)﴾ [إبراهيم] قال : فى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء وذكره . وذكره إسماعيل حقى فى تفسيره [النحل ٧١] من كلام كعب الأحبار عن التوراة أوله : « يا بن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب » وكذا فى المستطرف (١/ ٦٩) فصل القناعة .

كذلك الحق سبحانه ينادى على الخارجـين عن منهجه : تعالوا فالخير ينتظركم .

وإذا كـان الأمـر فى ﴿فَـاسْـجُـدُوا لِلَّهِ وَاعْـبُـدُوا (٦٢)﴾ [النجم] للكافرين ، فهو أيضـاً يكون للمؤمنين : اسجدوا شكراً لله الذى هداكم إلى الإيمان ونجاكم من الكفر .


سُورَةُ القَمَرِ

سورة القمر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾

الساعة من أسماء يوم القيامة ، فهى : الساعة ، والحاقة ، والصَّاخة ، والواقعة ، والطامة ، وغيرها ، وكلٌّ وصف من هذه الأوصاف فيه جانب من الفزع والإخافة .

ونلاحظ المناسبة بين أواخر النجم وبداية القمر ، فهناك قال : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۝٥٧ ﴾ [النجم] وهنا قال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ . ۝١ ﴾[القمر] وقلنا : إن مجرد بعثة رسول الله ﷺ من علامات الساعة ، نعرف أن الساعة لن تقوم إلا على شرار الخلق حين لا يقال فى الأرض : الله ، الله[2] .

---

(١) سورة القمر هى السورة رقم (٥٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجمهور ، وهى خمس وخمسون آية ، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص ، فهى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب النزول .

(٢) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٣٥٥٠) أن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشىء إلا رده عليهم . فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة : هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك . فقال عبد الله : أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسُّها مسّ الحرير فلا تترك نفساً فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .

أما أهل القبور من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى مَنْ مات قبل قيام الساعة ، فكما قلنا إن الزمن فى حقِّهم متوقف ، لأن الزمن فرع الأحداث ، فإذا لم توجد الأحداث لا يوجد الزمن .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] أى : القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] والرجل الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أماته الله مائة سنة ، وقال بعد أنْ أحياه الله ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وقالها أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن هذه هى الفترة التى يمكن أنْ يستغرقها النائم فى نومه ، كذلك ستمر فترة البرزخ على أهل القبور هكذا ، وكأنهم ناموا نوْمة وقاموا منها .

والله سبحانه وتعالى هو مالك الزمن ، وهو القابض الباسط ، يقبضه لمَنْ يشاء ويبسطه لمَنْ يشاء .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر] يعنى : هى قريبة منك على المستوى الشخصى ، فلا تنظر أنت إلى العلامات الصغرى ، ثم إلى العلامات الكبرى وتقول : ما زال الوقت طويلاً بيننا وبين القيامة ، لا ليس كذلك يكون تصور القيامة .

فالقيامة للإنسان هى أنْ يموت ، ليستْ بعد آلاف أو ملايين السنين لقول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : رواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » . وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته . ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته . وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وعزاه لابن أبى الدنيا وقال : هو من قول الفضيل بن عياض ، وفى المقاصد هو للديلمى عن أنس رفعه .

نعم لأنه انتقل من مرحلة الدنيا إلى مرحلة الآخرة ، وانقطع عمله فى الدنيا ، والحق سبحانه أبهم وقت الموت ومكانه ليظل الإنسان على ذِكْر له فى كل لحظة .

وقوله تعالى : ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ [القمر] انشقاق القمر آية كونية ثابتة بالكتاب والسنة ، فقد ورد أن القمر انشقّ لرسول الله حتى ظهر حراء بين الشقين[١] ، وقد رأى هذه الآية أهل هذا الزمان ممَّنْ تيسر لهم الرؤية فشاهدوه على هذه الصورة .

لا نقول رآه العالم كله ، لأن الآيات الكونية معجزات يُراد منها تثبيت الرسل ، وبيان صدقهم فى البلاغ عن الله ، فليس بالضرورة أنْ يرى هذه الآية كلُّ أهل هذا الزمان ، كيف ونحن الآن مع التقدم العلمى الهائل وتوفر وسائل الاتصال نسمع عن حدوث خسوف أو كسوف فى وقت كذا وكذا ، وفعلاً تنقله القنوات المختلفة ، ومع ذلك ومع الإعلان عن الظاهرة مُقدَّماً إلا أن القليل هم الذين يتمكنون من رؤيتها . والقمر آية ليلية فى وقت معظم الناس فيه نائمون .

ثم إن المعجزات والآيات الكونية للرسل لا يُقصد منها المعجزة الدائمة ، بل معجزة لمَنْ شاهدها ليثبت على إيمانه إنْ كان مؤمناً ، أو يؤمن بالله إنْ كان كافراً .

لذلك قالوا : هى كعود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة ، وهكذا

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٧٩) وعن جبير ابن مطعم قال : انشق القمر ورسول الله ﷺ بمكة ، حتى رأيت حراء بين شقتيه . أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٣٦٤) .

كل معجزات الرسل ، فلولا أن القرآن أخبرنا بعصا موسى ما كنا عرفنا عنها شيئاً .

والآيات الكونية هذه خَرْق للنواميس فى لحظتها ، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها ، فالقمر انشقّ فعلاً وخرق العادة ، ثم عاد إلى ما كان عليه بعد أنْ رآه كفار مكة المكذبون لرسول الله ، ليس كل الكفار بل بعضهم ، فهذا البعض الذى شاهد المعجزة كافٍ لإثباتها .

وقالوا : معنى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١)﴾ [القمر] أى : ساعة كل إنسان وأجله الذى ينتظره ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾ [القمر] أى : ينشقّ عنه ويغيب ويعتزل حياته .

وما دام أن الله تعالى قال ﴿اقْتَرَبَتِ .. (١)﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، ولا تبحث فى هذه المسألة .

والحق سبحانه قال أيضاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل] فقال (أتى) بلفظ الماضى كأنه حدث بالفعل فكيف يقول ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] قالوا : لأن الله هو الذى قال (أتى) ولا أحدَ يستطيع أن يعترض عليه أو يمنعه أنْ يحقق ما أخبر به .

كذلك فى قوله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١)﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، إما ساعة كلّ إنسان حينما يأتى أجله وهذا قريب ، أو الساعة العامة فهى أيضاً قريبة ، لأن انشقاق القمر من علاماتها وبعثته ﷺ من علاماتها .

ويُروى أن المكذبين لرسول الله قالوا له : إنْ كنتَ صادقاً فيما

تخبر به فأت بآية الآن تدل على صدْقك ، قالوا : الوليد بن المغيرة وأبو جهل بنَ هشام والعاص بن وائلَ ، والعاص بن ربيعة ، والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث .

وكل هؤلاء وغيرهم حضروا هذه الواقعة ، حيث دعا رسول الله وسأل ربه فانفلق القمر نصفين ، نصف على جبل أبى قبيس ، ونصف على قينقاع حتى ظهر غار حراء بينهما ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا سحر ، أما أهل التعقل فقالوا : نسأل المسافرين فى الصحراء بعيداً عن هذا المكان ، فلما سألوهم قالوا : نعم رأيناه وقال آخرون : لم نره[1] .

وقد أرجع الإمام على رضى الله عنه هذا الاختلاف إلى أن آية انشقاق القمر آية ليلية ، البعض رآها بالفعل ، والبعض بل الأكثر لم يرها[2] .

وباستقراء الآيات التى وردت فى قيام الساعة وما يسبقها من علامات ، نقرأ ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢)** ﴾ [التكوير] وغيرها كثير مما يُصوّر لنا انهدام هذه الكيانات .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية قال : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبى ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار فسألوهم . فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل الله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ [القمر] .

(٢) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « انشقاق القمر وقع فى الليل وزمان الغفلة وكان فى زمان قليل ، ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين » .

أما القمر فلم يأت فيه إلا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ ﴾ [القيامة] والخسف أهون ، وأقل من تكوير الشمس .

ونفهم من هذا أن حادثة انشقاق القمر فى الدنيا ستُدخر له فى الآخرة ، فلا يحدث له ما يحدث لغيره من النجوم .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ۝٦٨ ﴾ [الزمر] إذن : هناك مَنْ يُصعق وهناك مَنْ ينجو .

وفى تصوير سيدنا رسول الله ﷺ لموقف القيامة يقول : فلما أفقتُ وجدت أخى موسى آخذاً بعضد العرش . وهذا يعنى أنه عليه السلام لم يُصعق فيمَنْ صُعق - لذلك تعجب رسول الله(١) .

ثم بيَّن أنه صُعق مرة فى الدنيا وهو على جبل الطور : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ۝١٤٣ ﴾ [الأعراف] وما كان الله سبحانه وتعالى ليجمع على نبيه موسى الصعقتين ، فلما صُعق فى الدنيا نجّاه من صعقة الآخرة .

وهذا هو الاستثناء ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ۝٦٨ ﴾ [الزمر]

وهكذا الحال فى مسألة انشقاق القمر ، وهذا يعنى أن الانشقاق كان حقيقياً وآية كونية أخرجتْ القمر عن طبيعته وكيفيته ، لذلك لا يصيبه ما يصيب النجوم الأخرى فى الآخرة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٢٣٤) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٧٧) كلاهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ②﴾

الآية هنا بمعنى الشيء العجيب الخارق للعادة ، والعظيم الأثر الذى لم يَرَ الناسُ مثله ، فالمراد الآيات الكونية ، كما قال سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ⑤﴾ [الزمر] وقال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ㊲﴾ [فصلت]

ومع أن هذه الآيات واضحة الدلالة على قدرة الله ووجوب الإيمان به وتصديق رسوله إلا أنهم قابلوها بالإعراض والانصراف ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. ②﴾ [القمر] أعرضوا حتى عن الآية التى اقترحوها وطلبوها من رسول الله ، حتى جاءتهم كفلق الصبح ، وهذا يدل على استكبارهم عن قبول الحق ، وعنادهم لرسول الله رغم وضوح الآية ، فشدة العناد والكراهية لرسول الله أعمتْ أعينهم عن الحق .

ويكفى هنا أنْ نذكر موقف عمه أبى لهب ، وكان قد زوَّج ولدين من أولاده بنتين من بنات رسول الله ، فلما صدع رسول الله بدعوته ، وحدثتْ العداوة من ناحية عمه آل على نفسه إلا أنْ يُطلِّق ابنتى رسول الله وبالفعل طُلِّقتا .

وهذه فى حدِّ ذاتها لم تُغظ رسول الله ، لكن غاظه أنْ يمر عليه أحد[1] هذين الولدين ، ثم يتفل ناحيته فدعا عليه رسول الله وقال :

---

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٣٣٨/٢) .

أكلك كلب من كلاب الله[1] . فلما سمع أبو لـهب بدعوة رسول الله على ولده توجّس خيفة منها ، لأنه يعلم فى قرارة نفسه أن ابن أخيه على الحق .

فلما جاء موعد القافلة التى سيخرج فيها ولده للتجارة أوصى رفاقه ألاَّ يتركوه ، وقال لهم : إذا بتُّم فاجعلوا ولدى فى وسطكم ، فإنى أخشى عليه دعوة محمد .

وبالفعل فى ليلة من ليالى القافلة جاءه أسد ، فأخذه من بينهم فأكله . والطريف هنا أن رسول الله قال : كلب من كلاب الله ، وهذا أسد ؟ قالوا : لأن الكلب إذا نُسب إلى الله فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً .

إذن : هذه آية أخرى حدثتْ مع هذا الصّنديد المعاند بشخصه ، وليست بعيدة عنه ، ومع ذلك لم يؤمن ولم يَرِقّ قلبه لدعوة الحق التى جاء بها ابن أخيه .

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أنه سبحانه لم يهلك المكذبين منهم ، ولم يستأصلهم كما حدث للأمم السابقة ، فقوم سيدنا عيسى

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦٢٣) أن أم كلثوم ابنة رسول الله كانت فى الجاهلية تحت عتيبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة ، فلما أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية وسألته رقية ذلك ، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية وهى حمالة الحطب : طلّقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقها ، وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم ، فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشقّ قميصه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » قال عروة بن الزبير : أن الأسد لما طاف بهم تلك الليلة انصرف عنهم فناموا وجعل عتيبة فى وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه (أى شقّه) .

قالوا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا .. (١١٤)﴾ [المائدة] هذه آية حسِّية اقترحوها ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة]

كذلك قوم صالح لما عقروا الناقة قال الله فيهم : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف]

أما أمة محمد فلم يعاملهم الحق سبحانه هذه المعاملة ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. (٢)﴾ [القمر] يعنى : أنهم رأوها بأعينهم على الحقيقة ، فلماذا يُكذِّبون بها ؟ قالوا : عناداً وإصراراً على التكذيب ، لأنهم ظنوا أن محمداً يريد من دعوته شيئاً لنفسه يريد الوجاهة والرياسة بين قومه ، يريد علواً فى الأرض .

لذلك لما أرسلوا وفدهم إليه ﷺ قالوا له : يا محمد إن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملَّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. إلخ فقال لعمه قولته المشهورة : والله يا عَمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٩٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « يا عم لو وُضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه » . وأورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٤٧٤) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٦) .

ثم لم يقفوا عند حَدِّ الإعراض والتكذيب ، بل تعدَّوْه إلى السَّبِّ والإيذاء .

﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر] واتهام الرسل بهذه التهمة أمر قديم وعادة عند جميع المكذِّبين على مَرِّ العصور ، فهؤلاء بعدما عاينوا انشقاق القمر تأبى طباعهم السقيمة أنْ يعترفوا بالحق فيُلفّقون له التهم ، ماذا يقولون ؟

يقولون : هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر] أى : دائم(١) كأن محمداً يأتيهم بسلسلة من أعمال السحر واحدة بعد الأخرى . وقلنا : هذا اتهام باطل وأهون ما يقال فى الرد عليه : إذا كان محمد ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ومعلوم أن السحر تخييل للعين وليس حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. ۝١١٦﴾ [الأعراف] وقال : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه] أما الآيات التى جاء بها محمد فكلها حقيقة وعليها دليل هم يعرفونه ويعترفون به .

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾

---

(١) حكى ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى معنى ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر] :
الأول : ذاهب . من قولهم : مرّ الشيء واستمر : إذا ذهب . قاله مجاهد وقتادة والكسائى والفراء ، فعلى هذا يكون المعنى : هذا سحر والسحر يذهب ولا يثبت .
الثانى : شديد قوى . قاله أبو العالية والضحاك وابن قتيبة . وهو مأخوذ من المرَّة . والمرّة : الفَتْل .
الثالث : دائم . حكاه الزجاج .

معنى ﴿ وَكَذَّبُوا ..﴿٣﴾ ﴾ [القمر] أى : كذّبوا بالآيات الواضحات ، والكذب قولٌ يخالف الواقع وهو صفة مذمومة عند الناس جميعاً ، وهؤلاء كذَّبوا عناداً واتباعاً لهواهم ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [القمر]

فالهوى يدعوه لأنْ يكذّب بالحق ليحقق ما يهواه ، والهوى لا يدعو صاحبه إلى خير ، إنما يدعوه إلى الشر والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ(1) فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف] وقال فيهم الحق سبحانه ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ..﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم] فهوى النفس متحكم فيهم مسيطر على تصرفاتهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر] كل أمر من الكفر أو الإيمان ، الطاعة أو المعصية ، كلّ أمره مستقر إلى غاية معلومة وأجل يعلمه الله ، وعلم الله بالأشياء أزلىّ ، يعنى قبل أنْ يحدث الحدث يعلمه الله وسجلته الكتبة .

فالحق سبحانه حينما قضى بكفر الكافر لم يرغمه على الكفر ، إنما ترك له الاختيار ، لكن لعلمه الأزلى كتب عليه ما سيحدث منه ، وهذه من عظمته تعالى وإحاطة علمه سبحانه بما كان وما يكون وما لم يكن .

وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

---

(١) قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] فيه أربعة أقوال :

الأول : أنه أفرط فى قوله ، لأنه قال : إنّا رؤوس مضر ، وإن نسلم يسلم الناس بعدنا . قاله أبو صالح عن ابن عباس .

الثانى : ضياعاً . قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سرفاً وتضييعاً .

الثالث : ندماً . حكاه ابن قتيبة عن أبى عبيدة .

الرابع : كان أمره التفريط . والتفريط تقديم العجز . قاله الزجاج .

﴿ ١ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿ ٢ ﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿ ٣ ﴾ وَامْرَأَتُهُ[١] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿ ٤ ﴾ فِي جِيدِهَا[٢] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿ ٥ ﴾﴾ [المسد]

فقد نزلتْ هذه الآيات وتُليت على أسماع أبى لهب ، وهو ما يزال فى سعة الدنيا وفى سعة الاختيار[٣] ، وكان فى إمكانه أنْ يُكذّب هذه الآيات ، وأنْ ينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، لكنه لم يفعل ولم يقدر حتى على هذه ، ونفذ فيه حكم الله عليه وعلى زوجته . لماذا ؟ لأن الله تعالى قضاء لا يرده أحد ، وكلمته لا يُعقِّب عليها أحد .

هذا معنى ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿ ٣ ﴾﴾ [القمر] نعم مستقر ففى علم الله ، فلا تُتعب نفسك يا محمد ولا تُجهد نفسك فى دعوة هؤلاء ، وما عليك إلا البلاغ ، أما الإيمان والكفر فقد سبق فى علم الله أن هذا سيؤمن ومُستقره فى الجنة ، وهذا سيكفر ومُستقره فى النار ..

فهوى هؤلاء المكذِّبين لن يغير من هذا المستقر شيئاً ، لأنه واقع ومُستقر فى اللوح المحفوظ فى أم الكتاب الذى لا يغيره أحد .

---

(١) امرأة أبى لهب : هى أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان بن حرب ، عمة معاوية بن أبى سفيان وكانت تقول : مذمماً عصينا .. وأمره أبينا . وكانت تطرح الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، فكانت شديدة العداوة لرسول الله . وكانت عوراء . قاله أبو بكر بن العربى .

(٢) جيدها : الجيد بكسر الجيم العنق . [القاموس القويم ١/١٣٨] . وقيل : مقدم العنق . وقيل مُقلَّده أي : موضع القلادة منه . وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

(٣) نزلت هذه السورة في أبي لهب عم النبى ﷺ ، ولم يمت إلا بعد ١٥ سنة بعد نزولها ، وهو أخ غير شقيق لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى محمد ، وقد هلك بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض كالطاعون وبقى ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾

الكلام هنا عن المكذبين من كفار مكة ، وكيف أن الله تعالى أخبرهم بخبر الأمم السابقة ، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار لما كذّبوا رسلهم ، بل إن آثار هذه الأمم باقية عندهم يمرون عليها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أن هذه الآثار موجودة بطرق مسلوكة ومعلومة لهم يمرون بها ﴿ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] يقيم الآيات .

ومعنى ﴿ الأَنبَاءِ .. (٤) ﴾ [القمر] الأخبار مفردها نبأ ، وهو الخبر الهام الذى يترتب عليه الاتعاظ وأخْذ العبرة ، ومن هذه الأنباء ما أخبرهم به من نبأ عاد وثمود وقوم لوط والأحقاف ، وغيرها .

ومعنى ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) ﴾ [القمر] أى : لهم عبرة وعظة فيمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة الذين أهلكهم الله ، فهذا زاجر لهم عن الوقوع فى التكذيب والتصدى لدعوة الحق .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ .. (٥) ﴾ [القمر] الحكمة : وضْع الشيء فى موضعه ﴿ بَالِغَةٌ ..(٥) ﴾ [القمر] أى : بلغت الغاية ، فلا حكمة أعلى منها ، لأن الحكمة تختلف باختلاف العقول التى تأتى بها .

إذن : فالبشر يُوصفون بالحكمة التى تناسب عقولهم ، والحق سبحانه له حكمة هى الحكمة العليا ، كما قلنا فى صفة الخَلْق ، فأنت تُوصف بهذه الصفة حينما تخترع شيئاً لم يكن موجوداً ، فأنت خالق والله سبحانه أحسن الخالقين .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى قصة تحريم التبنى مع رسول الله وزيد بن حارثة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⁅٥⁆ ﴾ [الأحزاب]

إذن : حكم رسول الله بتبنى زيد قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، ما فعله سيدنا رسول الله عدالة بشرية وتكريم لمن فضّله على أبيه وأهله ، وما حكم الله به من دعوة الشخص لأبيه الحقيقىَ أعدل .

لأنه يعطى للأب الحقيقى حقه ، فهو سببُ الحياة وسبب الوجود المباشر للإنسان ، وفى تقدير الأب تقدير للرب الخالق والمُوجد الأول للجميع .

ولذلك قرن الحق سبحانه بين عبادته وبين بر الوالدين ، فقال فى أكثر من موضع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ⁅٣٦⁆ ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ⁅٢٣⁆ ﴾ [الإسراء] لذلك جعل عقوق الوالدين من الكبائر[1] ، وهى كبيرة شائعة فى كل الجوارح كما بيّنا .

وقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⁅٥⁆ ﴾ [القمر] النذر : قالوا هى الرسل التى تنذرهم وتحذرهم العذاب وعاقبة التكذيب ، جمع نذير . والمعنى : أنهم لم ينتفعوا بها ، ولم تؤثر فيهم دعوات الرسل .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٩) ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦٧٠٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن أكبر الكبائر عقوق الوالدين . قال : قيل وما عقوق الوالدين ؟ قال : يسب الرجلُ الرجلَ فيسبّ أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ(١) إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾

الأمر هنا لسيدنا رسول الله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ..﴿٦﴾ ﴾ [القمر] أعرض عنهم ودعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم] وهذا يعنى أنهم لا فائدة منهم .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ [القمر] أى : ينادى المنادى والمراد النفخة الثانية التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ، ومعنى ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ [القمر] أى شىء منكر لا يعرفه الناس ولا عهدَ لهم به لبشاعته وفظاعته ، لذلك تنكره النفس .

لكن ما العلاقة بين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ..﴿٦﴾ ﴾ [القمر] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴿٦﴾ ﴾ [القمر] قالوا : يعنى أعرض عنهم من الآن ، فلا تقُلْ لهم شيئاً عن هذا اليوم ، وقالوا : المراد تولَّ عنهم ولا تشفع لهم فى هذا اليوم .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ(٢) كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٣) ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) الداعى هنا هو إسرافيل عليه السلام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٢٩) وقال ابن الجوزى فى زاد المسير « الداعى : إسرافيل ينفخ النفخة الثانية » .

(٢) الأجداث : القبور . جمع جدث . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يس] .

(٣) هنا قال ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [القمر] وفى آية أخرى قال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾ [القارعة] قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٣٠) : « هما صفتان فى وقتين مختلفين : أحدهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها .

الثانى : فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها » .

السياق هنا موصول بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) ﴾ [القمر] ففى هـذا اليوم يأتى هؤلاء المكذبون ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ (٧) ﴾ [القمر] خُشَّع جمع خاشع .

الحق سبحانه يصف حالهم فى هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى فيخرجون ﴿ مِنَ الأَجْدَاثِ ..(٧) ﴾ [القمر] من القبور وهم أذلاء صاغرون ، بصرهم ذليل منكسر ، ينظر إلى أسفل ولا يَقْوى على أنْ يرفع بصره .

إذن : حركة العين للرؤية لها دلالات ولها انفعالات ، وحركة العين ترتبط بحالة صاحبها ، فأهل الحق أعينهم قوية جريئة ، أما أهل الباطل فأعينهم ذليلة منكسرة ، لذلك نعيب على أهل الباطل حينما يتبجحون بباطلهم . نقول : فلان يقول كذا وعينه قوية (يندب) فيها رصاصة ، نعم لأنه خالف طبيعة الموقف الذى يعيشه .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) ﴾ [القمر] أى : حين خروجهم من القبور يخرجون منتشرين كالجراد ، والمراد الكثرة والتفرّق هنا وهناك ، وتصوّر لو أخذنا أىّ رقعة من المعمورة كم دُفن فيها جيل بعد جيل من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، فكم فيها من القبور ؟

ثم تأمل بناء الفعل ﴿ يَخْرُجُونَ .. (٧) ﴾ [القمر] للمعلوم ، فلم يقل يُخرجون للمبنى للمجهول ، إنما يخرجون كأنهم يخرجون بأنفسهم فى وقت واحد بعد أنْ أحيتهم النفخة الثانية بإذن الله فيقومون ويخرجون .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ..(٨) ﴾ [القمر] أى : مسرعين ، ومَنْ

يستطيع فى هذا الموقف أنْ يتباطأ أو يتلكأ ؟ والمهطع هو الذى يمد عنقه إلى الأمام ليندفع فى سيره ، ولك أنْ تتأمل حال هؤلاء فى الدنيا ، وكيف أخذهم الكبر والغطرسة والعناد فأبعدهم عن الجادة ، والآن يأتون منكسرين أذلاء صاغرين مسرعين إلى الغاية التى طالما كذّبوا بها كالمجرم يُساق إلى العقاب .

لذلك قال بعدها : ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر] فخصّ الكافرين بهذا القول ، نعم يوم عسر شديد لأنه لا فكاكَ منه ولا مهرب ، ولا مدافع ولا نصير ، وكيف يكون لهم مهرب أو نصير والآلهة التى عبدوها من دون الله ويظنون أنها تشفع لهم سيسبقونهم إلى جهنم .

قال سبحانه عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ(١) قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود] وهذا تيئيس لهم وقطع لأملهم .

ثم يترك السياق قريشاً ويُحدِّثهم عن قوم آخرين من المكذِّبين هم قوم سيدنا نوح عليه السلام ، فيقول :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾

كأنه تعالى يقول لكفار مكة : لستم بعيدين عن هذا المصير الذى آل إليه غيركم من الأمم المكذّبة ، لأنكم لم تقفوا عند حدِّ التكذيب ،

---

(١) يقدم قومه : يتقدمهم إلى النار . قال الشوكانى فى فتح القدير فى تفسير الآية : « أى : يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار . وقال الزمخشرى : « كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه » .

بل آذيتم رسول الله بكلِّ ألوان الإيذاء ، آذيتموه بالقول وبالفعل ، آذيتموه علانية وجهراً ، فلما لم تصلوا إلى شيء آذيتموه بالكيد والمكر والتبييت .

بل استعنتم على إيذائه بكيد الجن فسحرتموه(١) ، وحاولتم قتله بالسُّم فلم تستطيعوا(٢) . إذن : أريحوا أنفسكم فدعوة محمد ماضية فى طريقها لا يُثْنيها شيء ، فانتهوا عن مصادمتها ، وما قومُ نوح منكم ببعيد .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ .. (٩) ﴾ [القمر] إذن : خذوا منهم العبرة ، وبدأ بقوم نوح لأن سيدنا رسول الله بُعِث للناس كافة فى كل زمان ومكان ، وسيدنا نوح أُرسل لقومه ، وعمومية رسالته محصورة فى هؤلاء ، ليس فى الزمان والمكان ، ثم حُصِروا بعد ذلك فى أهل السفينة .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٢١ ، ٥٣٢٤ ، ٥٩١٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٥٩) كتاب السحر . قال المازرى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى : « أنكر المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء ، قال المازرى : وهذا كله مردود لأنه الدليل قد قام على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته فى التبليغ » .

(٢) عن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : لا . فما زلتُ أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢٤) ومسلم فى صحيحه (٤٠٦٠) بأبسط منه] .

ثم إن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالتكذيب في قصته واضح ، وقد سلك معهم كلّ سبيل فلم يؤمنوا ، فجعلهم الله عبرة ومثلاً لمَنْ جاء بعدهم من المكذبين .

ألا ترى أن هذه الآية ذكرت تكذيبهم لنبيهم مرتين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ..(٩)﴾ [القمر] ثم ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا .. (٩)﴾ [القمر] فتكذيبهم فاق كل تكذيب ، لذلك كان سيدنا نوح أطولَ الرسل عمراً ، ودعوته أطول الدعوات .

وقوله سبحانه ﴿عَبْدَنَا ..(٩)﴾ [القمر] أي : سيدنا نوح ، وهذا تشريف له عليه السلام أن الله تعالى يقول عنه عبدنا ، ومثلها قوله تعالى في قصة إسراء سيدنا رسول الله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء]

لذلك فالإخلاص في العبودية يستجلب عطاء الربوبية ، وقلنا : العبودية للبشر مذلة ، والعبودية لله عزّة وشرف ، فالعبد في العبودية للبشر يعطي خيره لسيده ، أما العبد لله فيأخذ خير سيده ، فهي إذن عبودية السيادة .

ثم لم ينتهوا عند التكذيب لنبي الله ، بل تعدوا ذلك إلى الإيذاء ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] فاتهموه بالجنون وقلنا : إنها تهمة واهية مردود عليها ، وإنْ دلتْ فإنما تدل على سفاهة هؤلاء وإفلاسهم .

﴿وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] أي : أنهم زجروه ومنعوه من إتمام دعوته وتبليغ رسالته .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى
ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ
وَدُسُرٍ[1] ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد هذا الصبر الطويل من سيدنا نوح لم يؤمن معه إلا القليل[2] من القوم حتى يئس من هدايتهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر] أى : انتصر لى منهم لأنى لا طاقة لى بهم ، يُقال : انتصر له . أى : أخذ له الحق الذى يعجز أنْ يأخذه بنفسه ، لذلك قال تعالى عن الكافرين ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم] لا ينتصرون لأنفسهم ، ولا يجدون مَنْ ينصرهم .

---

(١) فى الدسر أربعة أقوال (ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير) :
أحدها : أنها المسامير . رواه الوالبى عن ابن عباس . وبه قال قتادة والقرظى وابن زيد .
الثانى : أنه صدر السفينة ، سُمِّى بذلك لأنه يدسر الماء أى يدفعه . رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة .
الثالث : أن الدُّسُر أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .
الرابع : أن الدُّسُر طرفاها وأصلها . والألواح جانباها . قاله الضحاك .

(٢) اختُلف فى عددهم على ثلاثة أقاويل :
أحدها : ثمانون رجلاً منهم جرهم . قاله ابن عباس .
الثانى : أنهم ثمانية . قاله ابن جريج .
الثالث : سبعة ، قاله الأعمش ومطر ، وكان فيهم ثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة . [ذكرها الماوردى فى تفسيره لآية هود ٤٠] .

فلما دعا نوح بهذا الدعـاء استجاب الله له ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ..(١١) ﴾ [القمر] أى السحاب ﴿ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) ﴾ [القمر] ينصبّ بغزارة ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ..(١٢) ﴾ [القمر] انشقتْ الأرض عن عيون الماء ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ .. (١٢) ﴾ [القمر] ماء السماء من أعلى ، وماء الأرض من أسفل ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر] على أمر قدَّره الله وقضاه ، وهو هلاك هؤلاء المكذّبين ونجاة المؤمنين ، فهذا أمر قدِّر أزلاً .

وفى موضع آخر أتى تفصيل هذه القصة ، فقبل أنْ ينصبّ عليهم الماء من السماء ويتفجَّر من عيون الأرض أمره ربه أنْ يصنع السفينة ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود] لأنها أول سفينة تُصنع على وجه الأرض ، ولا عهدَ للناس بهذا الشيء ، فعلَّمه الله كيف يصنعها .

ويُقال : إن الله تعالى أعطاه أول الخيط الذى يقوده فى صناعتها حينما أراه جذوع الشجر تطفو على سطح الماء ولا تسقط ، وهذه لها قانون خاص بالحجم والكثافة ، فلما رأى نوح هذه الظاهرة فاهتدى إلى أنْ يجمع الجذوع ويجمعها إلى بعضها بالحبال ، ثم اهتدى إلى فكرة المسامير .

وهنا قال : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] والمراد السفينة . والدُّسُر هى المسامير التى يجمع بها ألواح الخشب ، وبعد أن انتهى من صنع السفينة ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) ﴾ [القمر]

وقوله سبحانه ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر] أى : السفينة تجرى على صفحة الماء ﴿ بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر] بقدرتنا ورعايتنا

وحفظنا ومراقبتنا ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] ولولا عناية الله ، ما كان لهذه السفينة أنْ تستقر على هذا الموج المتلاطم .

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] أى : أن هذه السفينة وما كان من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين جزاء لنوح الذى كفر به قومه وكذَّبوه ، فهو الذى كُفر أى كُفر به ، فجزاؤه والذين آمنوا معه أنْ أنجاه الله وأنجى المؤمنين به .

ويجوز أن تكون جزاء لمَنْ كَفر[1] وجزاؤهم الإغراق .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

الكلام عن السفينة ﴿ تَّرَكْنَاهَا آيَةً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر] عبرة وعظة للأمم بعد نوح ، قالوا : والترك قد يُراد به تركناها قصة تُتلى فى كتاب محفوظ إلى يوم القيامة هو القرآن ، يقصُّها على الناس على مَرِّ العصور ، ليأخذوا منها العبرة .

أو : تركناها آية باقية بعينها فى المكان الذى استقرتْ عليه بعد أن جَفَّ الماء ، وهو جبل الجودى[2] الذى قال الله فيه ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى

(١) قرأها : لمن كان كَفر . يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد نقله القرطبى فى تفسيره (٦٥٣٣/٩) .

(٢) الجودى : جبل فى تركيا يقع فى جنوب شرق تركيا بالقرب من الحدود العراقية السورية . وهو يقع إلى الشمال من مدينة زاخو بحوالى ٢٠ كم ، والشواهد أن هذا الجبل هو المقصود كثيرة ، فأسماء القرى والمدن المحيطة بها منسوبة إلى نوح عليه السلام ، فأول قرية تقع إلى الجانب الشمالى من الجبل تسمى هشتقيان أى قرية الثمانين وهو عدد من كانوا مع نوح . [موقع زاخو التى بها جبل الجودى] .

الْجُودِيِّ .. (٤٤)﴾ [هود] ويقال : إنه موجود فى تركيا ، وأظنكم قرأتم بحثاً فى هذه المسألة ، يثبت وجود آثار فى هذه المنطقة ، وقد يكون هذا إلهاماً من الله لنصل إلى هذه الآية العجيبة التى أنجى اللهُ بها المؤمنين وأغرق الكافرين .

ولأنها آية ينبغى التأمل فيها والاعتبار بها ، يقول سبحانه : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥)﴾ [القمر] أى مُتذكر ، مُفكر فيها ، متعظ بها ؟

ثم يعود السياق لمخاطبة سيدنا رسول الله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] استفهام لتقرير الحقيقة ، الحق سبحانه يسأل رسول الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] أى : إنذارى . فهناك إذن علاقة بين العذاب والنذر .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ولم يأخذهم على غفلة ، إنما قدَّم لهم الإنذار ، وأى إنذار بعد دعوة استمرتْ ألف سنة إلا خمسين عاماً أنذرهم فيها نوح بعذاب الله ، وكما يقولون : قد أعذر من أنذر ، مَنْ أنذرك فقد قطع عذرك ، فلا عذرَ لك بعد ذلك .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾

اللام للتوكيد ، وقد حرف تحقيق ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن القرآن سهل ميسَّر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..(١٧)﴾ [القمر] يسَّرنا قراءته وتلاوته ، ويسَّرنا الاستماع إليه ويسَّرنا فهمه وتذوقه والانفعال به .

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذى تزداد له حباً كلما كررته ،

وتزداد له فهماً وتذوقاً واستكشافاً لكنوزه ، فعجائبه لا تنتهى ، وعطاءاته لا تنفد ، لأنها فيوضات المتكلم بهذا القرآن .

لذلك يقول ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ، ولا يخْلَق عن كثرة الرد »[1] ذلك لأنك حين تتكلم تعطى كلامك من المعانى على قدرك ، وعلى قدر كمالاتك الأدبية والعقلية .

فإذا كان المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى فإن عطاءاته لا تتناهى ، وما دام ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ، فسوف يظل القرآنُ بكْراً يعطيك من فيوضاته إلى يوم القيامة .

ثم إن كلام الله صفته وصفة الكامل كاملة ، لذلك قال عن القرآن ﴿ لا يأْتيه الْبَاطلُ من بيْنِ يديْه ولا منْ خلْفه تنزيلٌ مّنْ حكيمٍ حميدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت]

وقالوا فى القرآن :

بيَّن فيه كُلَّ شَىء   وَمِنْه آخذ قدْرَ ذهْنه كُلّ تَال

ولو تأملتَ مثلاً تفسير القرآن على مرِّ العصور لوجدتَ عجباً ، فلو كان التفسير مقصوراً على أحد لكان رسول الله الذى نزل عليه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول وفى الحارث مقال .

القرآن أوْلَى بتفسيره ، لكنه ﷺ ترك هذه المهمة .

ولو فسَّره رسول الله لمَا كان لأحد أنْ يزيد عليه ، لكن تركه للأجيال يأخذ منه كلّ جيل على قدر إدراكه وتطوره ومستجداته وما تصل إليه من أسرار ، كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

ولو أن القرآن أعطى جيل الصحابة مثلاً كلّ عطاءاته لاستقبلتْ باقى الأجيال القرآن بلا عطاء ، والله يريد عطاء الله دائماً إلى يوم القيامة .

فقال ﴿ سَنُرِيهِمْ..﴿٥٣﴾ ﴾[فصلت] يقرأها كلّ جيل بهذه الصيغة المستقبلية ، مهما أخذوا من عطاءات ، لأنهم يأخذون من معين لا ينضب .

ومن التيسير فى قراءة القرآن أنْ يقرأه العربى والأعجمى ، وتتعجب وأنت فى الحرم حينما تسمع القرآن من أناس أعاجم لا يعرفون من العربية جملة واحدة ، ومع ذلك يقرأون القرآن بلسان عربى ، نعم يتعتعون فيه ويجدون فى قراءته مشقة ، ولولا أنهم يجدون له لذة ما تحملوا هذه المشقة فى القراءة .

ثم يقرأه الطفل الصغير ، بل ويحفظه وهو فى سنِّ السابعة ، ولو أتيتَ له بأىّ كتاب بشرى لما استطاع أنْ يحفظه .

هذا كله فيض من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] ولولا هذا التيسير ما حفظه الطفل الذى لم يكتمل عقله بعد فيحفظه . وهو لا يعرف معناه ، ولا يعرف ما فيه من أحكام .

وقد علَّمنا النبى ﷺ أن القرآن ليس جُملاً ، إنما يُحسب بالحروف ،

كلُّ حرف له سرّ وله عطاء ، بل وله ملَك موكّل[1] به ، فحين تود قراءة القرآن فإنما تود ملائكة الحق ، فساعة تريدها تأتيك وتسعفك .

وجرِّب نفسك مع القرآن وأنت تقرأ بتأنٍّ وتأمل ثم تنسى حرفاً أو كلمة فتعيد السياق على ذهنك وسرعان ما تأتيك ، لأنها تودّك كما تودّها مثل العبد الذى يوده سيده ، فساعة يستدعيه يسرع إليه ، وأنتم تعرفون هذا الحديث : « .. لا أقول ألف لام ميم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] .

لذلك رأينا عجائب فى مسابقات القرآن الكريم للأطفال والشباب ، فكيف تمتحن مثلاً سبعمائة متسابق فى وقت محدود ، لذلك كانت هناك أسئلة فنية يمكن بها أنْ تقيس حفظ المتسابق للقرآن كله بسؤال واحد ، فمثلاً تقول له :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ [المزمل]

اقرأ :

فإنْ كان الولد حافظاً يقول : من أين أقرأ ؟ لأنها فى أكثر من موضع ومن الأسئلة التى نظموها شعراً :

كم فى كتاب الله جمع الناسِ   قد يوم ندعو أخرجوا وأنَاسى

ففى الشطر الأول : كم مرة ذكر جمع الناس فى القرآن الكريم ؟

والإجابة فى الشطر الثانى : يقصد ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) من حديث ابن مسعود . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) .

وبيوم ندعو : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ.. (٧١)﴾ [الإسراء]

وبأخرجوا : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)﴾ [الأعراف]

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل]

وبأناسى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ [الفرقان]

هكذا يجيب عن سؤال الشطر الأول ، بالشطر الثانى وأن المواضع ستة :

واحدة فى البقرة الآية ٢٠ ، اثنان فى الأعراف الآيتان ٨٣ ، ١٦٠ ، واحدة فى الإسراء الآية ٧٠ ، واحدة في الفرقان الآية ٤٩ ، واحدة فى النمل الآية ٥٦ .

لماذا ؟ لأنه مُيسَّر : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (١٧)﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر] فهل لهذا القرآن الذى يسَّرناه أحد يعتبر به ويتعظ بما فيه من الآيات .

لكن تيسير القرآن لمن ؟ الله يسَّر القرآن لمن آمن بقائل القرآن وآمن بالنبى الذى أنزل عليه القرآن ، وإلا فهناك مَنْ يستمع القرآن وهو لاهٍ منصرف ، ومَنْ يستمع القرآن ويستهزىء به ، وقد حكى القرآن عن هؤلاء :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦)﴾ [محمد] يقولون هذا استهانة وسُخْرية من القرآن .

وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت] فالقرآن واحد كما قلنا ، لكن المستقبل مختلف .

لذلك رأينا الوليد[1] لما هدأت نفسه وأحب أنْ يستمع ، وأحسن استقبال

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو عبد شمس ، من قضاة العرب فى الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها ، ولد ٩٥ قبل الهجرة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون ، وهو والد خالد بن الوليد . [الأعلام للزركلى ٨/١٢٢] .

كلام الله حَنَّ إليه وانفعل به ، فأثَّر فيه القرآن وهو ما يزال على الكفر .

فقال : والله لقد سمعتُ كلاماً ما هو بسحر ، ولا بشعر ، ولا كهانة ، والله إنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه(١) .

وتأمل أول تأثير للقرآن في نفس هذا الرجل وما يزال على كفره ، وكيف عبَّر عنه هذا التعبير الرائع الجميل : إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .

فشبَّه القرآن بالشجرة المثمرة من أعلى ، والخضراء النضرة من أسفل ، والمعروف أن الشجرة تثمر من أعلاها ، في حين يكون أسفلها ورقاً جافاً يتساقط ، أما القرآن فهو خير كله ، عطاء كله في كل حرف من حروفه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا(٢) فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ(٣) ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن كثير في السيرة النبوية (٤٩٩/١) والشامي في سبل الهدى والرشاد (٤٠٨/٩) . وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٨٣١) والبيهقي في دلائل النبوة (٥٠٥) وكذا في شعب الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس .

(٢) الريح الصرصر فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : باردة . قاله قتادة والضحاك .

الثاني : شديدة الهبوب . قاله ابن زيد .

الثالث : التي يُسمع لهبوبها صوت . [ذكر هذه الأقوال الماوردي في تفسيره] .

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير الآية : « معنى الكلام كأنهم أصول نخل منقعر أي منقلع .. وقال مقاتل : شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التي لا رؤوس لها ، وإنما شبههم بالنخل لطولهم » .

القرآن يُعدِّد للمكذبين برسول الله والمعادين لدعوته ، يُعدِّد لهم الأمم المكذِّبة على مرِّ التاريخ كلمهم عن قوم نوح وما حلَّ بهم ، ثم يُحدِّثهم عن قوم عاد ماذا فعل بهم لما كذّبوا رسولهم هوداً عليه السلام .

وعاد هى التى فى الأحقاف جنوباً ، وكانت لهم حضارة عظيمة قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر] إذن : هى أعظم من حضارة الفراعنة فى مصر ، والحضارة الفرعونية أذهلت العالم كله ، ومع التقدم العلمى الآن لم يصلوا إلى أسرار هذه الحضارة ، وما تزال الأهرامات عجائب لم تُعرف أسرارها حتى الآن .

وحضارة عاد كانت أعظم منها ، لكنها مطمورة تحت التراب لأنها بيئة صحراوية تكثر فيها العواصف والرمال فطمرها مرور الزمان عليها ، لذلك قالوا عن رمال الأحقاف أنها يمكن أنْ تطمر قافلة كاملة إذا هبَّتْ عليها العاصفة ، لذلك نجد آثار هذه الأمة التى أهلكها الله تحت طبقات الثرى .

وقال فى عاد كما قال فى قوم نوح ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾ [القمر]

فالعذاب لم يأتهم فجأة ، ولم يأخذهم ربهم على غِرَّة إنما قدَّم لهم الإنذار على يد نبيهم هود عليه السلام ، لكنهم لم ينتفعوا به. ومن أنذر فقد أعذر .

ثم يبين سبحانه كيف أهلكهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] الصرصر هى الريح شديدة البرودة ، يصاحبها صوت مزعج يزلزلهم .

وفى آية أخرى سمَّى هذا الصوت (الصيحة) والصيحة تكون مصحوبة إما بريح شديدة تدمر أو نار حامية تحرق ﴿ فِي يَوْمِ

نَحْسٍ ..(١٩)﴾ [القمر] يوم شؤم ودمار ﴿مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾ [القمر] أى : استمر عليهم مدة قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

ومعنى ﴿تَنزِعُ النَّاسَ ..(٢٠)﴾ [القمر] أى : أن هذه الريح الشديدة كانت تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم ، وترمى بهم ، وتطيح بمتاعهم .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر] تعرفون أصل النخلة حينما يُقطع جريدها ، ثم تُجز من الأرض وتقتلع ، فكأن الريح لشدتها تقتلعهم من أصولهم ، وتأخذهم من بيوتهم ، وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

ثم يكرر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر] كررها ليُكرر العظَة ، ولأن العذاب النازل بهؤلاء متنوع يأخذ كلاً منهم بما شاء من ألوان عذابه وانتقامه ، وهذه من طلاقة القدرة فى الجزاء ، فلله تعالى طلاقة قدرة فى النعمة ، وكذلك له سبحانه طلاقة قدرة فى النقمة .

قال سبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا(١) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يعيد السياق ويكرر أيضاً :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾

ليؤكد على هذه الحقيقة ، وهى تيسير القرآن ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر] كأنه يلتمس واحداً يتعظ ، ياناس ألاَ من مُتذكر معتبر بما فى هذا القرآن من آيات ؟

(١) حاصباً : حصبه قذفه بالحصى . والحاصب إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦ ﴾

يُحدثنا الحق سبحانه عن قوم سيدنا صالح عليه السلام وهم ثمود ، ومساكنهم هي مدائن صالح قريباً من المدينة ، وقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) ﴾ [القمر] جمع نذير وهو الرسول ، وقد خاطب الله نبيه بقوله : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) ﴾ [فاطر] ما أنت إلا نذير .

وجاء بصيغة الجمع هذه لأن الذى يكذب برسوله كأنه كذّب بجميع الرسل ، لأن هدفهم واحد ، ومنهجهم واحد ، ينتهى إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١) ﴾ [آل عمران] فالرسول عليه أنْ يوصى قومه إذا جاءهم رسول جديد بمثل المنهج الذى جاء به - يوصى قومه أن يتبعوه ، وأنْ يؤمنوا به وينصروه .

فالعادة أن القوم يتعصّبون لرسولهم ، فيعلمهم أن الهدف واحد والمنهج واحد ، فإنْ جاءكم مَنْ هذه صفته فاتبعوه ولا تصادموه ، فكلنا نأخذ من مشكاة واحدة .

ثم يذكر سبحانه صيغة التكذيب التى نطق بها القوم ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا .. (٢٤) ﴾ [القمر] وهذا القول شبيه بقول قريش : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فثمود تستنكر أنْ يتبعوا رجلاً واحداً منهم هو سيدنا صالح وهو بشر ،

فاعـترضـوا على كونه بشـراً وعلى كونـه رجلاً واحداً ، إذن : مـاذا تريدون ؟ يريدون جماعة تتعاون فى حمل هذه الرسالة بحيث يعدل بعضـهم لبعض .

والواقع أن النبـى لا يأتى بشىء من عنده ولا من عـند غـيـره ، إنما يأتى بوحى من الله ، وشبهة البشرية فى النبى أو الرسول مردود عليها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ ٩ ﴾ [الأنعام] ثم إن الملَك لا تحدث به القدوة للبشر .

وقولهم : ﴿ إِنَّا إِذًا .. ۝ ٢٤ ﴾ [القمر] أى : إذا اتبعـنا واحداً ﴿ لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ۝ ٢٤ ﴾ [القمر] السُّعُر يُطلق على الجنون ، ويُطلَق على سعير النار[1] .

وقولهم : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا .. ۝ ٢٥ ﴾ [القمر] استفهام يقصدون منه التعجب والاستنكار لهذا ، فكيف يُلقى إليه الذكر وتنزل عليه الرسالة من دوننا ، وهم بهذا القول يسوُّون بينهم وبين نبى الله صالح ، فالنبوة ليست مجالاً للمساواة ، لأن الله تعـالى يصطفى لها مَنْ يشاء من عباده ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ۝ ١٢٤ ﴾ [الأنعـام] ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ٧٥ ﴾ [الحج]

ثم يتعـدَّوْنَ مرحلة الاستنكار إلى الاتهام صـراحةً بالكذب ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝ ٢٥ ﴾ [القمر] والكذَّاب هو الذى يقول خلاف الواقع ، وهذا اتهام باطل لأن سيدنا صالحاً لم يخبرهم بشىء مخالف للواقع أبداً .

﴿ أَشِرٌ ۝ ٢٥ ﴾ [القمر] شديد البطر والتكبُّر والتعالى ، يعنى : أنه لم يقنع بما هو فـيه ، ولم يرضَ بما عنده ، بل يريد أنْ يسـتعلى علينا ،

---

(١) سُعُر : السُّعر الجنون . وبه فسر الفارسى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ۝ ٢٤ ﴾ [القمر] قال : لأنهم إذا كـانوا فى النار لم يكونوا فى ضلال لأنه قـد كشف لهم ، وإنمـا وصف حالهم فى الدنيا ، يذهب إلى أن السُّعر هنا ليس جمع سعير الذى هو النار . [لسان العرب – مادة : سعر] .

ويجعل نفسه رئيساً فى قومه ، والجمع تابع له .

فيردُّ الله عليهم : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا .. (٢٦) ﴾ [القمر] أى : يوم القيامة والجزاء ، وكلمة الغد تطلق على المستقبل القريب ، وهو اليوم الذى يلى يومك الحاضر ، لكنه قال عن القيامة غداً ، لماذا ؟

لأنها فى الواقع قريبة منا بالفعل ، فليس بينك وبينها إلا أنْ تموت .

لذلك قال عنها : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء] وقال هنا : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ..(١) ﴾ [القمر]

﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر] وهذا تهديد لهم وردّ للتهمة عليهم ، بل أنتم الكذابون وأنتم الأشرون ، لأنكم كرهتم صالحاً وحسدتموه ، لأن ربه اختاره للنبوة من بينكم ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، فكان ينبغى عليكم أنْ تُصدِّقوه لا أنْ تُصادموه .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(١) (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى(٢) فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ(٣) الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾

(١) محتضر : أى كل نصيب من الماء يحضره صاحب نوبته ، أو كل وقت للشرب يحضره صاحبه فى موعده المحدد له ، وكان النبى صالح قد طالب قومه بأن يتركوا لناقته يوماً تشرب فيه ولهم يوم آخر معلوم يشربون فيه فلم يرعوا ذلك وعقروا الناقة فغضب الله عليهم وسوّى بهم الأرض وأهلكهم .

(٢) فتعاطى : أى تصاول على الناقة وهى واقفة وتناولها فعقرها ونحرها ، ويتضمن معنى تجرُّا عليها واعتدى عليها . [القاموس القويم ٢/ ٢٦] .

(٣) هشيم المحتظر : الهشيم ما يبس من الورق وتكسَّر وتحطم ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة أى قد بلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب - مادة - هشم] . والمحتظِر (بكسر الظاء) الذى يعمل الحظيرة . والمحتظَر (بفتح الظاء) أى الحظيرة .

الناقة هى الآية التى جاء بها سيدنا صالح ، وهى آية ظاهرة مشاهدة اقترحوها بأنفسهم ، فقالوا لنبيهم : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة[1] ، وبالفعل خرجتْ الناقة من الصخرة بشكل معجز .

فقال تعالى : ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] أى : اختبار وامتحان لهم ، أيؤمنون بالله أم يكفرون ؟ ﴿فَارْتَقِبْهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] انظر ماذا يكون ردّ فعلهم ؟ ﴿وَاصْطَبِرْ (٢٧)﴾ [القمر] اصبر على عنادهم ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم ولا تتعجل فى دعوتهم .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ .. (٢٨)﴾ [القمر] وما دام أنها معجزة فلها وضع خاص فى طعامها وشرابها ، وقد أوضح لهم أن الماء الذى يشربون منه قسمة بينها وبينهم .

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾ [القمر] كل منهما يحضر مَشْربه ويلتزم بدوره ، فهم يشربون فى يومهم ، ولا يقربون الماء فى يوم شُرْبها ، ثم يوم لا يشربون من الماء تعطيهم الناقة من لبنها ما يكفيهم ويُغنيهم عن الماء فى هذا اليوم .

وفى سورة الأعراف تحدثتْ الآيات عن أكلها : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف]

لكنهم ما فهموا هذا التحذير ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير آية الأعراف ٧٣ : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر ، يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض » .

وما صدقوا بهذه الآية فتواطئوا على قتل الناقة وتمالئوا على ذلك ، فقام رجل أحمق منهم شرير طائش ، كما نقول (بلطجى) قالوا عنه : أحيمر ثمود ، واسمه كما ذكر المفسّرون قيدار بن سالف .

والدليل على أنه أحد سفهاء القوم وأشقيائهم أنه لما أراد عقر الناقة لم يكُنْ معه شيء يعقرها به ، فخطف سيفاً من أحدهم فعقرها ، وحملوا جميعاً تبعة هذا الفعل لأنهم اتفقوا عليه وتعاونوا .

فلما فعلوا ذلك استوجبوا أنْ ينزل بهم العذاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ..(٣١)﴾ [القمر] الصيحة هى الصوت المزعج المدمر . قالوا[1] : صيحة صاحها جبريل فكانت كافية لإهلاكهم وإبادتهم .

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر] شبَّههم الحق سبحانه بالهشيم ، وهو القشّ المفتّت الذى تذروه الرياح ﴿الْمُحْتَظِرِ(٣١)﴾ [القمر] هو الفلاح[2] الذى يصنع بهذا القش حظيرة لمواشيه ، إذن : لما حلَّت بهم هذه الصيحة أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وجعلتهم فتاتاً كالهشيم .

ثم تكرر الآيات :

---

(١) قال الطبرى فى تفسير سورة هود آية ٩٤ : « قيل : إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم »
وقد ذكر الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال :
أحدهما : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .
الثانى : أن الله تعالى أحدثها فى حيوان صاح بهم .
الثالث : أن الله أحدثها من غير حيوان .

(٢) فى الصحاح : المحتظر الذى يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية (المحتظَر) بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . وقرأ الباقون بكسر (الظاء) أرادوا صاحب الحظيرة .. فمن كسره جعله الفاعل ، ومن فتحه جعله المفعول به . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٤٢] .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

نلاحظ أن السياق يذكر هذه الآية ويأتى بذكر القرآن بعد كل حديث عن أمة من الأمم المكذبة ، ذلك لأن القرآن هو الكتاب الخاتم والمهيمن على كلِّ الكتب قبله كما قال تعالى :﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(١) ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ثم عاد ثم ثمود تُحدِّثنا هنا عن إخوانهم من قوم لوط ، فهذه الأمم جمعهم شيء واحد هو تكذيب رسل الله ، لذلك نلاحظ على الأداء القرآنى أنه يقول فى كل أمة من هذه الأمم أنها كذبت ﴿ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القمر]

وقلنا : النُّذر جمع نذير وهو الرسول لأن الذى يُكذِّب برسول واحد كأنه كذَّب بكل رسل الله ، لأن هدفهم واحد ومنهجهم واحد والآيات هنا تنقلنا مباشرة إلى مشهد العقاب والانتقام .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ..﴿٣٤﴾ ﴾ [القمر] الحاصب هى ريح قوية

---

(١) السَّحَر : بفتح السين والحاء ، الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

تهبُّ عليهم وترميهم بالحصباء ، وهى حجارة صغيرة مُهلكة أمطرهم الله بها .

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] فلم يستثْنِ من هذا العذاب إلا آل لوط ، أى أهله والمؤمنين به ﴿بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] أى : فى وقت السحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ..(٣٥)﴾ [القمر] أى : نجاة لوط وأهله والمؤمنين به ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (٣٥)﴾ [القمر]

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا(١) بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾

أى : لوط عليه السلام ﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا .. (٣٦)﴾ [القمر] حذَّرهم عذابنا وأخْذتنا القوية لمن كذَّب بالرسل ، وفى آيات أخرى تفصيل لهذه القصة وبيانٌ لمناقشة سيدنا لوط لقومه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾ [هود]

---

(١) تماروا : تجادلوا وتشككوا فيه ، ويتضمن معنى التكذيب . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] أى : تشككوا وكذبوا . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

لكنهم كـذَّبوا لوطاً ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] لما أنذرهم بطشتنا تمادوا أى : شككوا فيها وكـذَّبوا بها ، ثم تمادوا فى الفاحشة التى يرتكبونها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] أى : ضيوف سيدنا لوط عليه السلام .

وكلمـة ضيف تُطلق على المـفرد والجـمع معاً ، لأن الـضيف إذا جاءك واحد أو اثنان أو جماعة فإياك أنْ تمـيز ضيفاً على ضيف ، بل تجعلهم كضيف واحد ، لذلك تحدث عنهم السياق القرآنى فى أكثر من موضع بصيغة المفرد .

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] وقال : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات] وضيف إبراهيم لم يكُنْ واحداً ، بل كانوا جماعة .

ومعنى ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] طلبوا منه أنْ يترك لهم ضيـوفه يفعلون بهم ما يريدون من الفـاحشة التى فشتْ فـيهم ، لأنهم رأوا أمامهم أنـاساً على أجمل ما يكون ، فأول مـا يخطر ببالهم هو هذا الفعل الفاضح الذى يفعلونه .

ولا يعلمون أن هؤلاء ليـسوا بشراً بل هم مـلائكة ، لذلك تدخلت السماء فوراً تدافع عن لوط عليه السلام وتحفظ كرامته .

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ..(٣٧)﴾ [القمر] قـالوا : أعمـاهم الله وأخـذ أبصارهم ، وقـالوا : بل طمس الله عيونهم فى وجـوههم كأنْ لم تكُنْ وليس لها أثر فى وجوههم .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر] نلاحظ أن السياق فى الحديث عن الأمم السابقة كان يختم الحديث بقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

(٣٠)﴾ [القمر] أما هنا مع قوم لوط فقد وجّه الحديث إليهم هم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر] أي : ذوقوا ما تستحقونه من العذاب ، وكلمة ذوقوا فيها سخرية منهم واستهزاء بهم ، هذا لِكِبَر جرمهم وبشاعة فعلتهم .

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨)﴾ [القمر] صبَّحهم العذاب أي نزل عليهم في الصباح الباكر ، كما قال سبحانه :﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾[الصافات] ولنزول العذاب على المكذِّبين في الصباح خاصة لحكمة ، لأن الصباح الباكر غالباً يكون الناس نائمين أو قائمين من نومهم .

وحين ينزل العذاب في هذا الوقت يفاجئهم فلا يستطيعون تفادي ما ينزل بهم ، وهذا أنكى وأشدّ عليهم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر] وأيضاً يأتي بذكر القرآن : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر]

لأن كل قصة من قصص هؤلاء المكذِّبين فيها عبرة ، فيكرر مع كل قصة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾ [القمر] أي : متعظ معتبر من هؤلاء .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾

يحدثنا هنا عن جماعة أخرى من المكذِّبين هم قوم فرعون ، فقد كذَّبوا سيدنا موسى عليه السلام وكذَّبوا ما جاء به من الآيات البينات ، وهي الآيات التسع التي جاء بها : العصا واليد .. وغيرها .

فكانت النتيجة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] والأخْذ فى الأصل الجذب بشدة ، فالأخْذة إذن تتناسب وقوة الآخذ ، والأخذة هذه لله تعالى فهى شدة ، ثم أضيفتْ إلى صفتين لله تعالى ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] العزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو الذى يملك القدرة المطلقة التى لا تنفد .

وقلنا : إن مهمة موسى عليه السلام مع فرعون أنْ ينقذ بنى إسرائيل من قبضته ، ومن العذاب الذى يتعرضون له من آل فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ..(٤٧)﴾ [طه]

كانت هذه هى المهمة الأساسية ، ثم جاتْ دعوة موسى لفرعون على هامش هذه المهمة ، فأخذ يدعوه إلى الله ويشرح له العقائد وأمور الدين .

وسبب العداء بين الفراعنة وبنى إسرائيل أن ملوك الهكسوس(١) لما دخلوا مصر عاونهم بنو إسرائيل وساعدوهم وأعانوهم على الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل فى هذا الوقت هم مَنْ تبقى من قوم سيدنا يوسف فى مصر .

فلما تغلب الفراعنة على الهكسوس وطردوهم من مصر رجعوا إلى بنى إسرائيل بالمعاملة السيئة وساموهم سوء العذاب ، فأرسل الله تعالى سيدنا موسى لا ليدعو فرعون وقومه ، بل ليستخلص بنى إسرائيل من هذا العذاب .

---

(١) الهكسوس : كلمة من المصرية القديمة تعنى الملوك الرعاة (هكاسوس) وهو شعب سامى بدوى غزا أرض شمال مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحكمها لأكثر من ٢٥٠ سنة ، حكموا الدلتا حكماً مباشراً ، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة فكانتا تخضعان لهم اسمياً وتؤديان نوعاً من الجزية السنوية طيلة قرن ونصف إلى ملك الهكسوس فى عاصمته زوان . [موسوعة ويكيبيديا] .

وتعرفون قصة خروج سيدنا موسى ببنى إسرائيل ، وأن فرعون تبعه وجنوده ، وما كان من حادثة انشقاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل بمعجزة بينة واضحة ، لما ضرب البحر بالعصا فانفلق فكان كل فرْق كالطود[1] العظيم .

قالوا : أنهم لما نجوا من فرعون ونجوا من الغرق مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] قال المفسرون : أنهم طلبوا من موسى هذا المطلب وما تزال أقدامهم مبللة من عبورهم البحر[2] .

إذن : كذَّبوا بالآيات فى وقت كانوا فيه أجدر وأحق أن يؤمنوا بالله الذى أنجاهم وأنقذهم من العذاب .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ[3] (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . وفى حديث عائشة تصف أباها أبا بكر الصديق : ذاك طود منيف أى جبل عال . [لسان العرب مادة : طود] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] أن رجلاً يهودياً لقى ابن عباس فقال اليهودى : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال اليهودى : أنت من القوم الذين قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فقال لهم موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] فأطرق اليهودى مفحماً » .

(٣) الزبر : زبر الكتاب كتبه فهو مزبور وزبور أى مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء] أى كتاباً وجمعه زبر . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

بعد أنْ قصّ علينا القرآن قصص الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ، ثم عاد قوم هود ، ثم ثمود قوم صالح ، ثم قوم لوط يعود إلى كفار مكة الذين كذَّبوا بمحمد وعاندوه ووقفوا فى وجه دعوته ، عاد ليقول لهم : هذا موكب الرسالات على مرِّ العصور قبلكم وحال المكذبين الذين سبقوكم .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ .. (٤٣) ﴾ [القمر] كفار مكة ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ .. (٤٣) ﴾ [القمر] خير من هؤلاء المكذبين الذين نزل بهم انتقام الله وعذابه ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) ﴾ [القمر] أم أعطاكم الله عهداً أنه لن يعذبكم كما عذبهم ، ويترككم بدون عقاب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) ﴾ [القمر] أى : جميع المكذبين سيُكتب لهم النصر والغلبة ، فهم إذن مغترُّون بجمعهم واجتماعهم على الباطل ، وأن هذا الجمع سيضمن لهم الغلبة .

إذن : القرآن نزل يناقش كفار مكة ويُقنعهم ، فخيَّرهم بين هذه الثلاثة الأمور : أأنتم خيرٌ من المكذِّبين قبلكم الذين أهلكهم الله ؟ أم عندكم براءة وعهد فى الكتب السابقة أن الله لن يعذبكم ؟ أم أنَّ جمعكم وكثرتكم ستغنى عنكم ؟

وهذه الثلاثة مردود عليها بالنفى ، فليستْ لكم خيرية على سابقيكم ، وليستْ لكم براءة من العذاب ، لأن الله تعالى لم يُعْطِ براءة لأحد ، ولم يُرخِّص فى تكذيب رسله .

بقيتْ الثالثة ، فقال فيها ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] هذا الجمع الذى تغترون به سيُهزم[١] .

---

(١) قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٤٦] .

ونزلت هذه الآية فى وقت كان الكفار أشدَّ ما يكونون على المسلمين ، والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، لذلك عندما سمع سيدنا عمر هذه الآية قال : أيُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا وتأمين حياتنا(١) ؟ فلما حدثتْ غزوة بدر وهزِم الجمع فعلاً قال : نعم صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

لذلك ساعة ترى القرآن يُسجِّل على نفسه هذه الحقائق بصيغة المستقبل فاعلم أنها حق ، ولا بد أنْ تحدث ، لأن القرآن يُسجلها ويحفظها ، والعادة أن الإنسان يحفظ ما له لا ما عليه ، مثل (الكمبيالة) يحفظها صاحبها لا مَنْ أخذت عليه (الكمبيالة) .

فالقرآن هو الذى حفظ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] ولا يمكن أنْ تأتى الأحداث بما ينقض هذا الحكم ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] فطالما توفرتْ الجندية لله تعالى توفر لها النصر ، فإنْ خالفوا شروط الجندية خالفهم النصر ، كما رأينا فى أُحُد لما خالفوا أمر رسول الله(٢).

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] يفرون منهزمين ، وهذا فى الدنيا ، أما عقاب الآخرة فشىء آخر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ.. ﴿٤٦﴾﴾ [القمر]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] وكانت ليوم بدر . ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣ ، ١٧٨٥٩) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .

القيامة موعد الجزاء والعقاب ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] نعم أدْهى أشد داهية وأفظع من عقاب الدنيا .

﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] أشد ألماً ومرارة مما عانوه فى الدنيا ، لأن داهية الدنيا لها نهاية ومصيبتها تُجبر ، أما الآخرة فهى الطامة الكبرى التى ليس لها نهاية ولا جبر .

والعجيب هنا أن سيدنا رسول الله وقف فى الميدان قبل الحرب وأخذ يشير بعصا بيده ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان يقصد صناديد[1] قريش ، وفعلاً قُتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ، انظر إلى هذه الثقة فى نصر الله لرسوله ، فهو يُخبر بهذا ولا يخاف أنْ يُكذِّبه واقع المعركة وهى كَرٌّ وفَرٌّ ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يتوقع ما يحدث بهذا التفصيل وبهذه الدقة . لكنه إخبار مَنْ لا ينطق عن الهوى .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

نعم ﴿فِى ضَلالٍ ..﴿٤٧﴾﴾ [القمر] لأنهم عرفوا الحق فلم يتبعوه ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] السُّعُر يأتى على معنيين : إما نار مُسعرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٣٠ ، ٥١٢٠) وأبو داود فى سننه (٢٣٠٦) والنسائى فى سننه (٢٠٤٧) وأحمد فى مسنده (١٧٧ ، ١٢٨١٩ ، ١٣٢٠٧) قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله . فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ ، فجُعلوا فى بئر بعضهم على بعض » الحديث .

مشـتعلة أو السُّعُر يعنى الجنـون ، والآية التى بعدها ترجح أن تكون بمعنى النار المستعرة .

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ..(٤٨)﴾ [القمر] أى : يوم القيـامة يُسحب هؤلاء المـجرمون على وجـوههم فى النار ، والوجه أكرم مـا فى الإنسان . لذلك يـحاول الحفـاظ عليه ويُجـنِّبه الأذى ، فهو عنوانه وأعـزُّ ما فيه ترتفع إليه اليـدان تلقائياً ، ودون أنْ تفكر لتحـمى وجهك أولاً لو مـرَّتْ مثـلاً بجانبك سيـارة و (طرطشت) عليك الماء .

إذن : منتـهى الذلة والإهانة فى هذا المـوقف يوم يُسـحبـون فى النار على وجـوههم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر] كلمة ذوقوا فيها استـهزاء بهم وسـخرية منهـم ، وقال ﴿مَسَّ .. (٤٨)﴾ [القـمر] لأن مسّها كاف لأنْ يذيقهم العذاب والإهانة ﴿سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر] اسم من أسماء النار . وقيل : وادٍ فى جهنم .

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾

الضمير فى ﴿إِنَّا .. (٤٩)﴾ [القمر] للحق سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر] كل شىء فى الكون صغيـراً أو كبيراً من الذرة إلى المجرة ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر] بحساب دقيق وقدر مقـدور من الله تعالى الـقادر على إنفـاذ ما قدّره ، لأنـه سبحـانه إله

واحدٌ لا شريكَ له ، وليس هناك قوة تغير الذى قدَّره وقضاه .

لذلك قلنا فى شهادة أن لا إله إلا الله : أن هذه الشهادة قبل أنْ يشهد بها الخَلْق شهد بها الخالق لنفسه ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] ولولا هذه الشهادة لم يكُنْ فى جرأة أن يقول للشيء : كن فيكون ، لأنه سبحانه وتعالى لو كان له شريك لكان بإمكانه أنْ يقول للشيء : لا تكُنْ .

إذن : الخَلْق كله الله وحده والأمر له وحده ، لذلك قال سبحانه عن الأرض وهى خَلْق من خَلْق الله : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ وأنصتت لتلقى الأمر .

وفى قصة أم موسى قال لها الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (١) وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

الحق يُطمئن أم موسى ويُعطيها هذا الوعد أنه سينجو ، بل وسيكون من رسل الله ، لأن البحر بحره وخلقه يأتمر بأمره أنْ يحفظ هو الوليد ، وأنْ يُلقى به فى مكان كذا .

إذن : الحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله غيره ، ثم قضى قضاءه فى كونه قضاءَ مَنْ يرى أنه لا إله غيره ، ولا أحدَ ينقض أمره ، وبعد أنْ قالها سبحانه لم يكذبها الواقع أبداً .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره : اليم البحر . وأراد هنا النيل . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) : « يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء » .

لذلك قلنا : أول دليل على الإيمان بالله أنه تعالى هو الذى أخبر أنه وحده الخالق ، ولم يقُمْ له منازع ، لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] أى : أننا لا نكرر الأمر لأن أمرنا نافذ ، فيصدر مرة واحدة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]

هكذا كلمة واحدة من حرفين (كن) فيستجيب على الفور (فيكون) والفاء للترتيب والتعقيب . وقال سبحانه ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..(٢١)﴾ [مريم] وقال : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾ [إبراهيم]

وتأمل هنا سرعة الاستجابة فى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] واللمح هو الرؤية الخاطفة التى ليس لها ثبوت ، والحق سبحانه يشبه سرعة الاستجابة بأسرع شىء وأعجل شىء يعلمه الإنسان وهو لمح البصر .

فهذه الأشياء مخلوقة لله وتعرف خالقها وتسرع بالاستجابة لأمره ولا يشذ منها شىء لأنها مُستجيبة طائعة بالفطرة ، قال تعالى :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ[1] فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾

---

(١) أشياعكم : أى أمثالكم من الأمم الماضية ومن كان مذهبه مذهبهم . [لسان العرب – مادة : شيع] .

الخطاب لكفار مكة ﴿ولَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ..(٥١)﴾ [القمر] أهلكنا أمثالكم ومَنْ على ملتكم من العناد والتكذيب ومصادمة الرسل على مرِّ عصور الرسالات.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر] متعظ معتبر من دروس التاريخ ومن سنة الله فى الرسالات .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ..(٥٢)﴾ [القمر] من التكذيب ﴿فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر] مسجل فى الكتب مسطور محفوظ ليكون حجة على صاحبه ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

وإذا كنا الآن نشاهد الأحداث بالصوت والصورة وبكل تفاصيلها ، فلم نستبعد ذلك على قدرة الله ؟ فالعقل الذى ينظر فى التطور العلمى و(التكنولوجى) فى مجال تسجيل الصوت والصورة لا بدّ أنْ يصل إلى الإيمان بالحفظَة الذين يسجلون الأعمال .

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾ [القمر] مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(١) (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

---

(١) ذكر هنا (نهر) بالمفرد وهو يقصد الجمع أى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ودليله قوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٧)﴾ [الفتح] . وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ..(١٥)﴾ [محمد] وظاهر هذه الآية أنها ليست أربعة أنهار ، بل هى أنهار من كل صنف .

وقال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٤٩) : « وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة (ونُهُر) بضمتين » .

هذه هى خلاصة الأمر ، والغاية التى ينبغى أنْ نسعى إليها ، وهى تحقيق التقوى التى تؤدى بنا إلى جنات ونهر . فلم يقل جنة بل للمتقى جنات ، وكذلك ﴿ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [القمر] أى : أنهار .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر] مقعد مكان القعود أو مجلس صدق ، لأن الإنسان قد يجلس مجلساً بالصدق أى مجلس خير هو أهْل له ويستحقه ، وآخر يجلس مجلس شر مجلساً بالباطل ، لا يستحقه وليس أهلاً له .

فالمؤمن الذى حقق التقوى أهْلٌ لأنْ يجلس هذا المجلس ويسعد به ، لذلك نجد حينما نستقصى كلمة الصدق هذه فى القرآن نجدها مطلباً ودعاء لأهل الإيمان ، اقرأ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فإذا أردتَ أنْ تدخل فى عمل فاطلب من الله وادْعُه أنْ يُدخلك فيه مدخلاً صحيحاً نافعاً ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] بحيث يُعينك عليه فتؤديه بحقٍّ وتؤديه بإخلاص ، وتؤديه على الصورة التى يرضاها الله ورسوله .

كذلك فى الخروج من العمل ، ادْعُ الله أنْ يُخرجك منه مخرج صدق ، وأنْ يُتمه لك على الصدق الذى بدأتَ به .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] اللسان هنا يُراد به الذكر والمدح ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو الله أنْ يجعل الثناء عليه ، ومدحه بالصدق وبالحق لا بالباطل ، يريد أنْ يكون أهلاً للمدح لا أنْ يمدح كذباً أو نفاقاً يقول : اجعلهم يمدحوننى صدقاً لا كذب ، وبواقع ما عندى من

الخير الذى تتناقله عنى الأجيال .

إذن : مَنْ يحرص على الصدق فى الدخول ، والصدق فى الخروج ، والصدق فى المدح والثناء ، مَنْ يحرص على الصدق فى حياته ينتهى به إلى الصدق فى الآخرة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ..(٥٥)﴾ [القمر] أين ؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

ووالله لو كان هذا المقعد عند ملك من ملوك الدنيا لكان عزاً وشرفاً ، فما بالك إذا كان هذا المقعد عند الله المليك : أى الذى يملك الملوك وما تملك الملوك .

اللهم أنلْنَا هذه الغاية وألهمنا جميعاً فى قلوبنا العقيدة الصحيحة ، وأعِنْ جوارحنا على تنفيذها تنفيذاً صحيحاً على وفق سنة سيدنا رسول الله ، ليأخذ بأيدينا جميعاً إلى حضرته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . آمين .

كلمة ﴿ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] من أسمائه تعالى المقتدر وتدل على القوة والبطش .

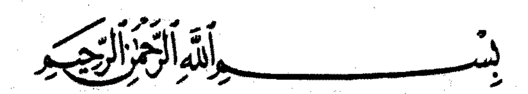
ومن سمات الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين المعنى ونقيضه ، لأن الضدَّ يُظهر حُسْنه الضدُّ .

ولما انتهتْ هذه السورة باسم المقتدر بدأت الرحمن بقوله تعالى :

(الرَّحْمَن) فنقرأ : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فالمليك المقتدر هو الرحمن .


سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

سورة الرحمن (١)



﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾

الرحمن : اسم من أسماء الله الحسنى ، وهى من صفة الرحمة ، وتعنى إسداء النعم وإنْ كان المنعَم عليه لا يستحقها ، لذلك علّمنا أنْ نقول حينما نقبل على الأعمال « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنك ربما كنتَ عاصياً وتستحى أنْ تُقبل على العمل باسم مَنْ تعصاه ، فيقول لك : قُلْها لأننى أنا الرحمن .

والمبالغة فى الرحمة تأتى بمعنيين : مبالغة فى ذات الصفة أى رحمة واسعة ، ومبالغة تأتى من تعدُّد الرحمات بتعدُّد المرحومين ، يعنى : لا رحمةَ تغنى عن رحمة .

---

(١) سورة الرحمن هى السورة رقم (٥٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية فيها هى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٢٩ ﴾ [الرحمن] . وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٥١) : « القول الأول أصح » . عدد آياتها ٧٨ آية .

وهذا هو معنى الرحمن أى الذى تعمُّ رحمته المؤمنَ والكافر أيضاً ، حيث لم يضنّ عليه لو أخذ بالأسباب ، كما قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى] فكأن العصاة والكفار ينعمون فى الدنيا بحضانة كلمة (الرحمن).

إذن : فالحق سبحانه رحمان الدنيا ، أما الرحيم ففى الآخرة ، لذلك يقولون رحمان الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته تعالى فى الآخرة لا ينالها إلا مؤمن ، وليس للكافر نصيب منها .

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

أى : نزّله على رسول الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير]

إذن : جاء العلم من السماء لا من الأرض ، والعلم هو معرفة قضية تعود على الإنسان فى سلوكه بالخير المطلق ، أما العلم إنْ جاء من الأرض خلط بين الخير والشر .

لذلك قلنا : إن الأمية فى ذاتها عيب وضعف ومهانة ، أما الأمية فى حق سيدنا رسول الله فشرف ، لأنها تعنى فى حقه ﷺ أنه لم يأخذ علمه من بشر ، إنما أخذ كلَّ ما يعلم من السماء .

(١) ذو مِرَّة : أى ذو قوة ، وأصل المرّة : الفتل . قال المفسرون : وكان من قوته أنه قلع قريات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين . [زاد المسير لابن الجوزى] .

حتى فى الأمة كـان من حكمة الله أنْ تكون أمة محمد أمـة أمية ، بدو ليس لهم حـضـارة ولم يُعـرف عنهم تقـدّم علمى أو غـيـره من مجالات الحياة ، فلما بعث فيهم رسول الله أقام لهم حضارة جديدة ، وجعل لهم قوة دكّتْ حضارة الفرس والروم فى وقت واحد .

وهذا يعنى أن قوتهم جاءت من هذا الدين الذى جاء من السماء ، وأخذ تعاليمه لا من البشر بل من ربِّ البشر .

والعجيب أن الحق سبحانه قدَّم ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ خَلَقَ[1] الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] ليعلمنا أهمية العلم ووَضْع المناهج والأسس قبل أنْ نُقدم على العمل ، فقبل أنْ يخلق الإنسان وضع له منهج حياته ، مـثل الذى يصنع صنعـة فيـضع لهـا (الكتالوج) الذى يضـمن صيانتها ، ونحن نرى الآلة تعطب وتفسد إذا لم تُستخدم وفق المنهج الذى يصلحها ، كذلك الإنسان لا يصيبه العطب إلا إذا خالف منهج ربه .

إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] تعنى : أن وَضْع المنهج سابق على خَلْق الإنســان ، فجاء الإنسان فـوجد المنهج الذى يُحدِّد له : افعل كذا ولا تفـعل كذا ، هذا حلال وهذا حرام ، هذا خير وهذا شرّ .

ومن معـانى الرحمة فى القـرآن أنْ يعتنى الراحم بالمـرحوم عناية

---

(١) الإنسان هنا مقصود به أحد ثلاثة :

أولها : أنه اسم جنس فالمعنى خلق الناس جميعاً . قاله الأكثرون .

الثانى : أنه آدم . قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، علّمه بيان ما كان وما يكون . قاله ابن كيسان . [زاد المسير لابن الجوزى] .

تحفظ له مقوِّمات حياته ، فى سلامة ليس معها عطل ولا عطب ، لذلك يقول تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢)﴾ [الإسراء] قالوا : شفاء للداء الذى يطرأ عليك نتيجة الغفلة عن المنهج ، والرحمة ألاَّ يحدث الداء أصلاً .

وقالوا فى سبب نزول هذه الآيات أن كفار مكة اتهموا رسول الله بأنه يذهب إلى رجل أعجمى يعلمه القرآن ، فقالوا كما حكى القرآن ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم رداً منطقياً ، فقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

وقال هنا : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] وكيف لرجل أعجمى لا يعرف العربية أنْ يأتى بهذا القرآن الفصيح ، إذن : فالقرآن جاء من العلو ، نزل من السماء لم يخرج من الأرض .

ثم نقف على معنى آخر للرحمن فى قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] فجاء بصفة الرحمة بعد صفة الألوهية ، لأن الألوهية تكليف ، والتكليف قد يشقّ على النفس ، فناسب بعدها أنْ يذكر صفة الرحمة .

كأنه سبحانه يقول لك : لا تقلق ، فالذى كلَّفك هو الرحمن الذى تسع رحمته الجميع ، وتعم رحمانيته المؤمن والكافر .

وفى مسألة بدء الخلق ، قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه بعد أن خلق الخلق استوى على عرشه تعالى ،

والاستواء يعنى السيطرة واستتباب الأمـر له سبحانه ، فيذكر هنا صفة الرحمـة ليقـول لنا : إنها ليسـت سيطرة قهـر وبطش وجبـروت ، إنما سيطرة رحمانية .

حتى فى موقف الآخرة وما فيها من أهوال يذكر صفة الرحمة ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْـمَـٰنِ عَـبْـدًا (٩٣) ﴾ [مريم] الله سبحانه يتحنّن إلى خَلْقه ويعطيهم الأمل فى عطفه ومحبته لهم .

وهنا جاءت الرحمن آية مستقلة ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) ﴾ [الرحمن] لأنها حين تُطلق لا تنصرف إلا إلى الحق سبحانه ، وتجمع كل هذه المعانى وسيالها السارى فى كل تكليف .

وفى تقديم ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] تكلموا فى الغـاية والوسيلة أيهـما تسبق الأخـرى ، والمعلوم عـادة أن الغـاية تأتى بعـد الوسـيلة ، فلو أنك تريد الذهاب مـثـلاً إلى الإسكندرية فـأنت تركب وسـيلة مـواصـلات ، وتسلك طريقـاً يُوصلك ، وباستخدام الوسيلة تصل إلى غايتك وهى الإسكندرية .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

أَلاَ مَنْ يُرِينى غـاَيتِي قَبْلَ مذْهَبِـى وَمِنْ أيْنَ وَالغَايَاتُ بَعْـدَ المذَاهِبِ

نعم البشـر عاجـزون عن معرفـة الغايات مُقـدماً ، لكن رب البـشر يعرفها مقدماً وأزلاً ، فيخبر بغايتك قبل أنْ تُخلق ، وقبل أنْ تسلك إليها الوسيلة ، وعليـه يمكن أنْ تقدم الغايات على الوسـائل . نقول : أنت لم تسلك السبيل إلى الإسكندرية إلا وهى فى بالك ، فـالغاية موجودة قبل الوسيلة .

ويمكن أنْ نجمع بين الرأيين لو قلنا بأن الغاية أولاً تخطيط ، لأنك تُحدِّد الغاية قبل الشروع فى الوسيلة ، والوسيلة أولاً واقع وتنفيذً . إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] هى الوسيلة التى تُوصلنا إلى الغاية المرجوة ؛ فالوسيلة بعد الغاية تخطيطاً ، ولكن الغاية بعد الوسيلة واقعاً . أو بتعبير آخر : الغاية قبل الوسيلة دافعاً ، ولكنها تأتى بعد الوسيلة واقعاً .

والقرآن كله مقصده العقائد والأحكام والآداب والقصص ، فالعقائد لُبُّها فى القلب ، وهى أنْ نؤمن بإله واحد أحد لا نشرك به شيئاً ، وهذا الإيمان له جناحان هما الخوف والرجاء ، فإذا كنتَ فى خير وأمن وسلامة لا تأمن مكر الله .

وإذا كنتَ فى شدة وبُؤْس لا تقنط من روح الله ، ولو أُشْرِبَ القلبُ هذه العقيدة الصحيحة لَضخّها إلى باقى الجوارح ، فجاء سلوك الجوارح موافقاً لعَقيدة القلب .

وحين تتبع أحكام القرآن وأوامره وآدابه تجد رحمانية (الرحمن) سيالاً عاماً فى كلّ الجوارح ، وأول جارحة فى التكليف هى اللسان ثم الأذن ، لأن اللسان هو المبلِّغ ، والأذن هى التى تتلقى ، والاستقبال الأول من الله تعالى لا بدّ أن يتوفر فيه الصدق والأمانة لأنه مبلِّغ عن الله .

لذلك قلنا فى الثناء على سيدنا رسول الله : الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا أذن الخير التى استقبلتْ آخر رسالات السماء ، ويا لسانَ الصدق الذى بلّغ عن الحق مراده من الخلق .

وقد أعدَّ الله رسوله محمداً لهذه المهمة ، وجعل فيه من مواصفات التلقى والبلاغ ما يُؤهله لها ، وقد شهد له قومه حتى قبل بعثته ، ورأينا أن الذين سبقوا للإيمان بمحمد قبل أنْ يروا له معجزة تؤيده

آمنوا به لسابقة علمهم بسلوكه وأخلاقه .

لذلك لما عرَّفه الله لقومه قال لهم : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] أى : محمد هذا الذى تعرفونه وتشهدون له ، ولا تختلفون على صدقه وأمانته ، هو رسول الله إليكم فكأن كلمة محمد واسمه ذاته هو حيثية كَوْنه رسولَ الله .

والمنهج القرآنى هو (الكتالوج) الذى يصلح حركة حياة البشر قد جاء بما يحفظ اللسان ، فأمرك بذكر الله وقَوْل الحق ، ونهاك عن قَوْل الزور والباطل واللغو ، وبما يحفظ الأذن ، فأمرك بسماع ما هو خير لك مفيد لحياتك ، ونهاك عن سماع الباطل.

اقرأ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء]

وهكذا تجد المنهج القرآنى يحفظ عليك كلَّ الجوارح بما بيَّنه لك من الحلال والحرام ، والخير الذى أمرك به ، والشر الذى نهاك عنه ، وحين تتأمل فى هذه الأوامر وهذه النواهى تجد أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بنا ، وتجد سيال الرحمانية فيها كلها .

فحركة الحياة إنْ قامت على وفق منهج الله ساد الأمن والرخاء ، وحفظ لكلِّ ذى حقٍّ حقه ، وإنْ قامت على غير هذا المنهج ضاعت الحقوق وعَمَّ الفساد وانتُهكتْ الأعراض .

فمن رحمة الله أنْ يحرم قول الزور وشهادة الزور[1] ، لأنها تنقل الحق لغير صاحبه وتحرم صاحب الحق من حقه ، وتأمل الفساد الذى يستشرى فى المجتمع نتيجة ضياع الحقوق .

فشهادة الزور والغش والسرقة والخطف والغصب والاختلاس والرشوة والتدليس والمحسوبية وغيرها من المحرمات نهى عنها الشرع ، وسماها القرآن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (٢٩) ﴾ [النساء] أليست هذه من رحمة الله بنا ، نعم يرحم بعضنا من ظلم بعض ؟

إذن : نقول سيال (الرحمن) فى كل الأحكام وفى كل المنهج حتى حينما يأمرنا بالقصاص ، وأن القاتل يُقتل ، حتى فى القتل رحمة ، لأنه يحمى القاتل ، ويحمى المقتول ، ويحمى المجتمع بأسْره ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرّأ على القتل .

وكلُّ التكاليف الشرعية تنطلق من هذه الرحمانية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، وأسكنه الجنة ، وأجرى له هذه التجربة التمرينية فى الانقياد للأمر ، فلما أقام آدم على أمر الطاعة استقرّ فى الجنة وتمتع بها ، فلما خالف الأمر شقى وبدتْ عورته وساء حاله .

ومن هذه التجربة عرفنا موقف الشيطان من الإنسان ، وعلينا أن نعتبر بالدرس الذى عاشه أبونا آدم ، وأن نحذر مخالفة منهج الله .

واقرأ : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر ، فقال : الشك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور أو شهادة الزور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٨) .

هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا[2] وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه]

إذن : جاء التكليف كله من سيال الرحمانية ، حتى فى حالة الخروج عن المنهج وحدوث المخالفة لا يتخلى عنك ربك ، ولا تفارقك هذه الرحمة ، إنما يشرع لك التوبة ويفتح لك باب الرجعة إلى ساحته تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ..(٤٨)﴾ [النساء] فمشروعية التوبة فى حدِّ ذاتها من سيال الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] لنفهم هذا المعنى نعود إلى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] حيث لم يخبر الحق سبحانه علَّم مَنْ ، لأنه سبحانه قال ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] وليس هناك أحد يعلمه . إذن : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] يعنى : جهَّزه وأعدَّه للعلم به ، فلما خلق الخلق قال : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى : علّم الإنسان الخليفة فى الأرض .

---

(١) ضنك : قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال :
أحدها : أنها عذاب القبر . لحديث أبى هريرة وقاله ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى والسدى.
الثانى : شدة عيشه فى النار . رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وقتادة وابن زيد .
والثالث : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه .. رواه عطاء عن ابن عباس .
الرابع : أن المعيشة الضنك هى كسب الحرام . (قال ابن عباس : المعيشة الضنك أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها وله معيشة حرام يركض فيها .

(٢) فنسيتها : أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها . [قاله الشوكانى فى فتح القدير تفسير آية [١٢٦ طه] .

والبيان هو أنْ تستطيع أنْ تعبر عما فى نفسك بأسلوب بيِّن واضح يفهمه المخاطب ، وهذا يعنى أننا لا بدّ أن نلتقى على شىء واحد نفهمه ، وهو اللغة ، وهذه هى التى علَّمها آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾ [البقرة] ليستطيع أنْ يعبِّر بها عما فى نفسه ، ومعنى علَّمه الأسماء كلها أى : أسماء الأشياء[(١)] ، فآدم عليه السلام هو مصدر اللغة .

وقلنا : إننا لو سلسلنا تعليم اللغة لَعُدنا به إلى آدم ، فالابن تعلَّم من أبيه ، وأبوه تعلَّم من أبيه إلى أنْ نصل إلى آدم ، وآدم علَّمه مَنْ ؟ علَّمه ربه عز وجل .

ولقائل أنْ يقول : علَّم الله آدم أسماء الأشياء الموجودة فى بيئته ، فعرف أسماء السماء والأرض والشمس والقمر والأشخاص والحيوانات وغير ذلك ، فما بال الأسماء التى استُجدتْ بعده ؟

نقول : معنى علّمه الأسماء أوسع مما نفهمه من مسألة التعليم ، فالمراد علّمه ما يقيم منطقه ليستطيع التعبير عما يستجد أمامه من أسماء ، ويستطيع أنْ يستخدم ما علَّمه فى الوصول إلى الجديد الذى لا يعلمه .

(فالتليفزيون) مثلاً لم يكُنْ له اسم قبل أنْ يُوجد ، لكن لما وُجد وضعوا له اسماً اتفقوا عليه ، وهذا يُنهى الخلاف مع الذين يقولون أن اللغة توقيفية . نقول : لا ليستْ توقيفية فيما يَستجد عليها من أسماء .

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ..(٣١)﴾ [البقرة] قال الماوردى فى تفسير الآية : « فى الأسماء التى علمها الله تعالى آدم ثلاثة أقوال : أحدها : أسماء الملائكة . الثانى : أسماء ذريته . الثالث : أسماء جميع الأشياء . وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد » .

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ ﴾

والشمس والقمر آيتان من الآيات الكونية فى السماء ، ومعنى ﴿ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] بحساب دقيق ، نقول : حسبتُ الأمر حساباً وحُسْباناً ، لأنهما يجريان بحساب دقيق وقدر قدَّره الخالق سبحانه ، كما نقول نحن (الشىء دا ميخرش الميه) . يعنى : دقيق دقة متناهية .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذه الدقة ، فقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَك[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فمنذ خلق الله الشمس والقمر وهما يدوران كُلٌّ فى مداره لا يشذ عنه ، ولأنهما بهذه الدقة جعلهما الله ميزاناً ودليلاً على ضبط الأوقات ، فالساعة فى يدك إنْ لم تكُنْ فى ذاتها منضبطة لا تصلح لضبط الوقت .

فالشمس تضبط لنا حساب اليوم والليلة ، والقمر يضبط لنا حساب الشهر ، والشمس بالشروق والغروب ، والقمر بمراحله التى يمرُّ بها خلال الشهر ، حيث يبدأ هلالاً ثم يكبر حتى يصير بدراً فى منتصف الشهر ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود كما كان فى أول الشهر ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[2] الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس]

---

(١) فلك : الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] أى فى مدار تدور فيه [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

(٢) العرجون : أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون فى أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[١] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس]

فالشمس لها ضياء ولها حرارة ، والقمر له نور لأنه يعكس ضوء الشمس فليس له حرارة ، ونلاحظ أن شهر القمر أقل من شهر الشمس لاختلاف حركة دوران كل منهما ، والشمس لها كل يوم مطلع .

لذلك لاحظوا فى معابد الفراعنة أن بها ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس من واحدة منها كل يوم ، وبذلك استطاعوا بحسابات دقيقة أنْ يجعلوا الشمس تتعامد على وجه رمسيس فى يوم معين .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل العبادات والصلوات اليومية مرتبطة بالشمس ، وجعل العبادات الشهرية أو السنوية مرتبطة بالقمر فلو ارتبط رمضان مثلاً بحركة الشمس لظلَّ فى زمن واحد لا يتغير أبداً .

فلو جاء مثلاً فى بؤونة[٢] يظل فى بؤونة طوال العمر ، ولو جاء فى طوبة يظل فى طوبة كذلك ، لكن ارتباطه بحركة القمر جعله يأتى على مدار العام كله ، وكلٌّ منا فى رحلة حياته صام رمضان فى الصيف وصامه فى الشتاء ، كذلك الحال فى عبادة الحج .

وتعلمون أن هذا التغيير يأتى من ١١ يوماً هى الفرق بين توقيت

---

(١) منازل القمر : هى مجموعة النجوم التى يقطعها القمر فى دورة له تامة حول الأرض فى ٢٨ يوماً ، وعدد منازل القمر ٢٨ منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، وتسمى هذه المنازل الطوالع .

(٢) بؤونة : شهر مصرى ، أصله بالهيروغليفية (با أونى) أى إله المعادن ، لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ، ولذا يسميه العامة بؤونة الحجر نسبة لشدة الحر فيه .

الشمس وتوقيت القمر ، وهذا يُسهِّل أمر التكاليف العبادية ، ويعطى الغاية بدون عطب فى الكون ، لأن الشمس والقمر آياتٌ كونية عظيمة لا تتناولها أيدى الصيانة ، فهى تؤدى مهمتها بقدرة الله منذ خلقها الله .

وقوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن] كلمة النجم تُطلق على النجم فى السماء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل] والنجم أيضاً هو العشب والنبات الذى ليس له ساق .

فالآيتان جمعتا بين جنسين من الآيات الكونية : الشمس والقمر من آيات السماء ، والنجم والشجر من آيات الأرض ، وقد جمعتهما كلمة النجم ، فالشمس والقمر منسجمان لأنهما من جنس واحد ، والنجم والشجر أيضاً من جنس واحد ، هذا فى السماء وهذا فى الأرض .

ومعنى ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن] يخضعان لمراد الخالق ، وفى آيات كثيرة بيَّن الحق سبحانه أن هذه الجمادات والنباتات تسجد لله وتُسبِّح الله بما يناسبها .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾ [الحج]

لذلك نسمع علماء الطبيعة يقولون : أن النبات يمتصّ الغذاء من الأرض بخاصية الأنابيب الشعرية ، نعم فى النبات أنابيب شعرية لكن فيها إعجاز وفيها حياة وفيها قدرة ، فلو أنك جئت بحوض به ماء ووضعت به أنابيب شعرية فإنها تمتص الماء كله بكل عناصره .

أما امتصاص النبات فأمر آخر ، لأن النبات يمتصُّ من عناصر التربة ما يحتاجه ، ويميز بين عنصر وعنصر ، ألا ترى أن قصب السكر يمتصُّ الحلاوة ، والفلفل مثلاً يمتص الحرارة .

واقرأ : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④﴾ [الرعد]

إذن : المسألة ليستْ مسألة الشعيرات ، إنما مسألة آية من آيات الله : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③﴾ [الأعلى]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⑨﴾

والسماء معطوفة على النجم والشجر ﴿رَفَعَهَا ..⑦﴾ [الرحمن] تراها فوقك بلا عمد ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦﴾ [الرحمن] أنزل أسس العدالة والحق ، والميزان هو الآلة التى تضبط الحق والباطل[1] .

(١) قال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه . نقله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٥٤) أما الحسن وقتادة والضحاك فقالوا : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض . قلت : وهو الأولى فى تأويل (الميزان) للآيات بعده الناهية عن الطغيان فى الميزان والآمرة بإقامة الوزن بالقسط .

[عادل أبو المعاطى]

ثم أمرنا سبحانه بأنْ نقيم ميزان العدالة ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⟨٨⟩﴾ [الرحمن] الطغيان هو مجاوزة الحد ، أى : لا تتجاوزوا الحقَّ إلى الباطل . إذن : الآيات تحدثنا عن منظومة كونية قامتْ على الحق وعلى نظام دقيق لا يشذ ولا يتخلف .

وميزان العدالة يحكم حركة الشمس والقمر كما يحكم حركة الإنسان ، اقرأ : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ⟨٤٠⟩﴾ [يس] فلم يطغ شىء على شىء ، كذلك الإنسان .

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⟨٨⟩﴾ [الرحمن] فالأجرام والأفلاك السماوية لما استقامتْ على ما خُلقت عليه وعلى مراد الله منها استقامتْ حركتها فى أداء مهمتها فى الكون ، فلم نَرَ مثلاً بين هذه الأجرام تصادماً ، كذلك أيها الإنسان إنْ أردتَ أنْ تستقيم حركة حياتك فسِرْ فيها على هذا الميزان الذى وضعه الله لك .

وبعد أنْ نهى سبحانه عن الطغيان فى الميزان يأمرنا سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⟨٩⟩﴾ [الرحمن] أى : بالعدل بحيث يأخذ كلّ ذى حَقٍّ حقه ، كما قال سبحانه : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ⟨١٨٢⟩﴾ [الشعراء] فإقامة الشىء تعنى آداؤه على أكمل وجه ، فلأن الميزان هو الضابط فلا بدّ أنْ يكون دقيقاً قائماً على القاعدة التى أرادها الله وهى العدالة .

ثم يؤكد الأمر السابق بنهى ﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⟨٩⟩﴾ [الرحمن]

قالوا أى : لا تُنقصوا الميزان ، لكن نقص الميزان قد يكون له صور مختلفة ، فالذى يغشّك ويضع لك الفاكهة المعطوبة على أنها سليمة يُنقص الميزان .

والذى يتلاعب فى آلة الوزن ينقص الميزان ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحفظ للعباد حقوقهم ، وهذه من سيال رحمانيته تعالى .

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

الحق سبحانه قال عن السماء ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] وقال عن الأرض ﴿وَضَعَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن] أى : جعلها منخفضة ومنبسطة ، وقال سبحانه : ﴿الْأَرْضَ مَهْدًا ..﴿٥٣﴾﴾ [طه] فهى ممهدة وقال : ﴿مِهَادًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ] تحمل الإنسان كما حمل المهد الطفل . فالأرض وُضعتْ ليستقرَّ عليها الإنسان .

ومعنى﴿لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن] لبنى الإنسان ، وقالوا : بل يدخل فى الأنام كلُّ ذى روح ، فالحيوانات بهذا المعنى هى من الأنام ، لأنها تأكل من زرع الأرض وتعيش عليها . وقالوا : الجن أيضاً من الأنام .

ونلاحظ فى هذه الآية العموم فى الأرض فلم يُخصصها أرض مَنْ ، وهذا يعنى الشمول ، فالأرض أى كل أرض فى أىّ مكان ، كذلك

﴿لِلأَنَامِ ⁽١٠⁾﴾ [الرحمن] أىّ أنام[1] فأرض الله فى كلِّ مكان لعباد الله فى كلّ مكان .

وهذا المعنى نفهمه من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⁽٩٧⁾﴾ [النساء]

فأرض الله للجميع ، إذا ضاقتْ عليك الحياة هنا فاذهب إلى مكان آخر فيه متسع ، وهذه فى حدِّ ذاتها كفيلة بأن تحل مشاكل العالم اليوم لو أخذوا بها ، لكن الحاصل أنهم قطّعوا أوصال هذه الوحدة الطبيعية التى أرادها الخالق للخَلْق ووضعوا فيما بينهم الحدود والحواجز .

ومن العجيب أنْ نراهم يختلفون على عدة أمتار على حدودهم وهم يعيشون على مئات بل آلاف الكيلو مترات من أرض الله ، ثم لك أنْ تتأمل الخريطة وترى رسم الحدود بين الدول الآن ، هل تراها على شكل مستقيم ؟

---

(١) فى الأنام ثلاثة أقوال :
أحدها : أنهم الناس . قاله ابن عباس .
الثانى : الأنام الإنس والجن . قاله الحسن .
الثالث : الأنام جميع الخلق من كل ذى روح . قاله مجاهد وقتادة والسدى ، سمى بذلك لأنه ينام . [الماوردى فى تفسير الآية ١٠ الرحمن] .

لا بل هى متعرجة وملتوية ومتداخلة بعضها فى بعض ، فهكذا أرادها الحق سبحانه ، الأرض كلُّ الأرض للأنام كلّ الأنام .

ونحن الآن نرى أرضاً تكاد تنفجر من كثرة عدد السكان لكن فيها قلة موارد ، وعلى النقيض نرى أرضاً خالية من السكان مليئة بالموارد المهملة التى لا تجد مَنْ يستخرجها ، فهل هذا هو الميزان العادل الذى قامت عليه أمور الخلق ؟ لا والله بل هذا جور وطغيان فى الميزان .

ولك أنْ تنظر إلى الحدود المصطنعة والأسوار والمطارات والبواب وما يحكمها من قوانين صارمة وتأشيرات دخول وشروط ، حتى أنك تستغرق شهراً وشهوراً تعد فى أوراق وتأشيرات لتتمكن من دخول بلد كذا وكذا .

ثم ترتّب على هذا الفصل بين الحدود وجود الخلافات الدولية ، والتمييز العنصرى ، وانفراد أصحاب الثروات بثرواتهم ، فنشأت الحروب والصراعات كما ترون .

ثم تُعدِّد الآيات طرفاً من نعَم الله فى الأرض : ﴿فِيهَا ..(١١)﴾ [الرحمن] أى فى الأرض ﴿فَاكِهَةٌ . (١١)﴾ [الرحمن] الفاكهة ما يتفكّه به، فهى من الكماليات والزيادة عن الطعام الأصلى ، وأتى بالفاكهة قبل البُرِّ والقمح وغيره من الحبوب .

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١)﴾ [الرحمن] جمع كم ، وهو الغطاء الذى يكون على الثمرة قبل نُضْجها ، والأكمام هنا المراد بها الطلع .

﴿وَالْحَبُّ .. (١٢)﴾ [الرحمن] مثل القمح والشعير والذرة وغيرها من المطعومات .

﴿ذُو الْعَصْفِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] هو القشرة التى تغطى الحبة ، وذِكْر العصف يدل على أهميته الغذائية ، وقد توصل العلماء إلى أن لقشرة القمح فوائد صحية عظيمة[1] ، وأن حبة القمح لا تؤدى مهمتها إلا مع قشرتها .

وقد حذر العلماء من تناول الدقيق الفاخر أو (العلامة) خالية من قشرتها ، والذى أسرف فى تناول الدقيق الفاخر ، يُضطر فى مراحل تقدُّم السن إلى أنْ يأكل الخبز من الردة أو السِّن ، لذلك نجد رغيف السِّن أغلى من رغيف (الفينو) .

إذن : نفهم من ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ..﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] أن نأخذ الحب كما خرج من أرضه بعَصْفه فهذه ميْزته ، وقد وردت كلمة العصف أيضاً فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الفيل : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل] يعنى : فتات وبقايا الأكل .

﴿وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] قالوا : هو لُبُّ الحبة .

وقالوا : هو النبات ذو الرائحة الطيبة المعروف بهذا الاسم .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] الخطاب للثقلين الجن والإنس ، لذلك سيخاطبهم بعد ذلك ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن] وهنا يخاطبهم الحق سبحانه بهذا الاستفهام : هذه نعم الله

---

(١) قشرة القمح هى قشرة رقيقة فيها ستة فيتامينات ب١ إلى ب٦ بالإضافة إلى عدة فيتامينات أخرى وفيها مادة فسفورية هى غذاء للدماغ والأعصاب وفيها الحديد الذى يهب الدم قوة وحيوية ويعين على اكتساب الأكسجين من الرئتين وفيها كالسيوم الذى يبنى العظام وفيها السيليكون الذى يقوى الشعر ، وفيها اليود الذى ينشط عمل الغدة الدرقية .. وهكذا .. ونحن ننزع عن حبة القمح قشرها ونرميه للبهائم ونأكل نحن النشا الصافى .

وآلاؤه ، فبأىِّ هذه النعم تكذِّبان أيها الإنس وأيها الجان ؟

ومن أساليب القرآن الكريم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يقرر حكماً ويؤكد عليه لا يأتى به فى صورة الخبر ، إنما يأتى فى صورة الاستفهام ، كأنه يقول لهم : قولوا أنتم ، وحين تبحث عن الجواب للاستفهام لا بد أنْ تقول : ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب .

وأنت لا تسلك سبيل الاستفهام إلا وأنت واثق من أن الجواب سيأتى ولا بد كما تريد ، كالذى ينكر مثلاً فضلك عليك ، فتقول له : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟

كلمة ﴿آلاءِ .. (١٣)﴾ [الرحمن] أى نعم جمع أل مثل حمل وأحمال . وهذه الآية :﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] تكررتْ فى هذه السورة عدة مرات ، وهذا له مزيّة وحكمة ، كما فى قوله تعالى فى السورة قبلها :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر] ومثل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر] ومثل هذا التكرار له حكمة ، ويضيف جديداً ، وإلا كان زيادة ، والقرآن مُنزَّه عن هذا .

فالأسلوب هنا حينما يكرر ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] تأسيس لكل نعمة مخصوصة ، فمع كل نعمة يعيد هذا الأسلوب ، فيجعل كلّ نعمة على حدة مسئولاً عنها هذا السؤال .

وقد تكررت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يؤكد لنا على سيال الرحمانية فى سورة الرحمن فيذكرها فى كل نعمة ، هل تكذِّبون بكذا ؟ هل تكذِّبون بكذا ؟

وكيف لنا أنْ نكذِّب ونـحن نتقلَّب فى هذا النعيم لـيل نهار ، لذلك سَنَّ لنا رسـول الله حـينمـا نقـرأ هذه الآية أنْ نقـول : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذِّب .

فقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن ، فكـانوا أحسن استـجابة منكم ، كانوا كلمـا قرأتُ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾ [الرحمن] قـالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد(١).

وهذا يعنى أننا حينمـا نستمع للقرآن يجب أنْ ننفـعل به ونتدبر معناه ، لا أنْ يمرّ على آذاننا هكذا كغيره من كلام البشر ، وقد رأينا أهل الإيمان والقرب من الله ، يفعـلون ذلك ، فإذا ذُكر اسم الله قالوا سبـحان الله ، أو جَلّ جلاله ، وإذا ذُكر رسـول الله قالوا : صلى الله عليه وسلـم . إذا ذُكرتْ الجنة سألوها ، وإذا ذُكـرتْ النار استـعاذوا بالله منهـا ، وهكذا يتفـاعل المؤمـن مع كلام الله . فـأيـن نحـن من هؤلاء ؟

ولقد استمعتُ إلى القرآن فى أحـد المآتم ، وكان الشيخ يقرأ آيات العذاب ويذكر النار وجهنم ، فإذا بواحـد من المشجِّعين له يقول : إيه العظمة دى ، اللهم زيدك يا شيخ !!

---

(١) أخرج الترمذى وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قـال : خرج رسول الله ﷺ على أصحـابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فـسكتوا ، فقـال : مالى أراكم سكوتاً لقـد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكم ما تكذبان) قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمـد » ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفـسير الآية ١٠ سـورة الرحمن .

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ(١) مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

الصلصال هو الطين الذى جف وتيبَّس ، والصلصال مرحلة من المراحل التى مرَّ بها الإنسان فى الخَلْق الأول لادم عليه السلام ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أن الإنسان خلق من ماء ، ومن طين ، ومن تراب ، ومن حمأ(٢) مسنون ، وكلها مراحل حتى صار صلصالاً كالفخار .

هى إذن مراحل للشىء الواحد ، فالتراب بالماء يصير طيناً ، والطين لو تُرِكَ فترة يختمر ، ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته فيصير حمأً مسنوناً ثم يجف فيصير صلصالاً .

وليس مرحلة من هذه المراحل هى بداية الخَلْق ، إنما كلها مجتمعة هى بداية الخَلْق ، والحق سبحانه أخبر : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

فنحن لا نعرف كيف خُلِقنا إلا من خلال ما أخبرنا الله به ، لذلك

---

(١) مارج : المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) حمأ مسنون : الحمأ : الطين الأسود المنتن . [لسان العرب - مادة : حمأ] . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

يقول سبحانه بعدها :﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] المضلون هم الذين يخبرون عن الخَلْق بغير ما أخبر الحق ، كالذى طلع علينا يقول(1) إن الإنسان فى أصله قرد ثم تطور إلى الإنسان ، فالقرآن يسبق الزمن ويخبر بما سيكون ، ويحذرنا من تصديق هذه الافتراءات والكذب على الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن أمر غيبى يقف العقل أمامه ، يوضحه لنا بأمر مشاهد يدلّ عليه ، فنحن نعم لم نَرَ الخَلْق الأول فهو أمر غيبى ، لكن رأينا نقيضه وهو الموت وشاهدناه ، الموت ينقضُ الحياة وعادةً الهدم يأتى عكس البناء ، فما بُنى أولاً يهدم آخراً ، وما بنى آخراً يُهدم أولاً .

فالخَلْق بدأ من ماء وتراب وطين ، ثم حمأ مسنون ، ثم صلصال كالفخار ، ثم بعد ذلك نفخ الله فيه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة ، أما الموت فيبدأ بخروج الروح ، ثم يتيبس الجسد فيشبه الصلصال ، ثم تتغير رائحته كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، ولا يبقى بعد ذلك إلا عناصر تصير إلى تراب .

إذن : نأخذ من الموت الذى شاهدناه دليلاً على الغيب فى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] أى : الجن ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] المارج هو لهب النار الصّافى الذى لا يخالطه دخان ، وطبيعة النار ألطف من طبيعة الطين ، لأن النارَ لها

(١) تشارلز داروين : عالم حيوان إنجليزى ولد ١٢ فبراير ١٨٠٩ م عالم تاريخ طبيعى ، له كتاب (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩ م ، توفى عام ١٨٨٢ عن ٧٣ عاماً .

سيالٌ نافذ على خلاف الطين ، فليس له هذا النفاذ .

مثلاً لو معك تفاحة فى حجرة وأنت فى الحجرة المجاورة ، فهل تجد للتفاحة أثراً فى الحجرة الأخرى ؟

أما النار فعلى خلاف ذلك لأنها تنفذ من الجدار ، فتشعر بحرارتها من خلف الجدار ، وقدرة الجن تأتى من هذا النفاذ .

فلديهم القدرة على أنْ ينفذوا من الأشياء لا يعوقهم شىء مادى ، وهذا يعنى أنهم خُلقوا من شفافية النار، ونحن من كثافة الطين ، لذلك هم يَروْننا ولا نراهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾

الحق سبحانه يذكر المشرقين والمغربين فى سياق نعمه تعالى ، وهذا يعنى أن فيهما ينطوى كثير من النعم .

وحينما نستقرىء هاتين الكلمتين فى القرآن نجدهما بالمفرد مرة ، وبالمثنى مرة ، وبالجمع مرة أخرى ، فقال : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ..(٩) ﴾ [المزمل] وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن] وقال : ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ..(٤٠) ﴾ [المعارج]

وهذا التعدد يأتى من تعدد المكان ، ففى المكان الواحد مشرق ومغرب للشمس ، لكن الشمس حينما تشرق عندك تغرب عند آخرين ، فكلٌّ مشرق معه مغرب ، وكل مغرب معه مشرق .

إذن : هما مشـرقان ومغربان ، إذن مع دوران الأرض وحركـتها تعطينا فى كل لحظة مـشرقـاً ومغـرباً ، فهى إذن مـشارق ومـغارب ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن]

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾ (١)

قـوله تعـالى : ﴿ مَـرَجَ .. (١٩) ﴾ [الرحـمن] أى خلـط ﴿ الْبَحْـرَيْنِ .. (١٩) ﴾ [الرحمن] العذب والمالح ﴿ يَلْتَقِيَان (١٩) ﴾ [الرحمن] قالوا : يتجاوران أو يتـعاقبان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ .. (٢٠) ﴾ [الرحمن] أى : حاجز يحجز هذا عن هذا فلا يختلطان ﴿ لاَّ يَبْغِيَان (٢٠) ﴾ [الرحمن] لا يتعدَّى أحدهما على الآخر .

وهذه آية من آيات الخَلْق أنْ يلتقى العَـذْب بالمالح دون أنْ يذوب هذا فى هذا ، لذلك حينمـا تذهب إلى العريش مثلاً تجـد على شاطىء البحر أجـود أنواع النخيل ، ولو كان هذا يتغذّى على المـاء المالح ما كان على هذه الصورة من الحلاوة ، لكن قدرة الله .

---

(١) قال المـاوردى فى تفسـيره للآية ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن] ، أمـا البحران ففيهما خمسة أوجه :

أحدها : أنه بحر السماء وبحر الأرض . قاله ابن عباس .

الثانى : بحر فارس والروم . قاله الحسن وقتادة .

الثالث : أنه البحر المالح والأنهار العذبة . قاله ابن جريج .

الرابع : أنه بحر الشرق وبحر المغرب يلتقى طرفاهما .

الخامس : أنه بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

واقـرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر] وقال سبحانه :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون]

فقـدرة الله حفـظتْ الماء العـذْب فلا يخـتلط بالمالح ، لذلك تـجد مستوى الماء العذب أعلى من مـستوى المالح ، وإذا ذهبتَ إلى دمياط ستـجد الـماء العَـذْب فى النيل يمتـدُّ لمسـافات داخل المـالح دون أنْ يطغى المالح على العذب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾

معنى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا .. (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من البحرين العذب والمـالح ، مع أن اللؤلؤ والمرجـان لا يخرجـان إلا من الماء المـالح ، وهذه المسـألة حلَّهـا لنا حاجب المحكمة الذى ذهب لخطـبة سنية بنت محضية ، فسألوه : ماذا تعمل ؟ قال : أنا حاجب المحكمة ، قالوا : كم راتبك من هذا العمل ؟ قال : أنا والقاضى نأخذ مائة جنيه .

فقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من مجموعهما معاً[1] ،

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٦٣) : « قـال (منهما) وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. (١٣٠)﴾ [الأنعام] وإنما الرسل من الإنس دون الجن . قاله الكلـبى وغيره » . فقال (منكم) مع أن الرسل من الإنس فقط .

والآن يقول العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا فى مَصبٍّ الماء العذب[1] ﴿فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾ [الرحمن]

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٢٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : لله تعالى ﴿الْجَوَارِ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] جمع جارية وهى السفينة التى تجرى على صفحة الماء ﴿الْمُنشَآتُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] التى أنشئتْ وصُنعتْ فى البحر ﴿كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : كالجبال العالية التى تُرى مثل العَلَم أو مثل القصور الشاهقة ﴿فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن]

والعجيب أنْ يخبر بهذا سيدنا رسول الله ، وهو لم يركب البحر ولم يعرف هذا النوع من السفن ، فالسفن التى كانت موجودة على عهد سيدنا رسول الله كانت صغيرة مسطحة ومن دور واحد ، ولم تعرف السفن ذات الأدوار إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذن : هذه الآية من الإعجاز ومن علامات النبوة ، ودليل على صدقه ﷺ فى الإخبار والبلاغ عن الله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾

---

(١) حتى العلماء القدامى نقلوا هذا ، فقد نقل القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٦٤) هذا القول فى سياق حديثه عن اللؤلؤ ، فقال : إن العذب والملح قد يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما يُنسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى » ثم قال : « لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح » .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ..(٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : على الأرض والأرض لم يأتِ لها ذكْر هنا حتى ينصـرف إليها المعنى ، لكن قالوا : الضمـير يعـود على مذكـور أو على معلوم بالبـديهة كـما هنا ﴿ فَانٍ (٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : هالك .

﴿ وَيَبْقَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الرحـمن] أى : بعـد فناء كل شـىء ﴿ وَجْـهُ رَبِّكَ ..(٢٧) ﴾ [الرحـمن] الوجـه يُعبَّـر به عن الذات ، لأن الوجـه فى الخَلْق جميعاً هو المميِّز للشخص ، بحيث لا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً ، فأطلق الوجه ليدل على الذات .

﴿ وَجْـهُ رَبِّكَ .. (٢٧) ﴾ [الرحـمن] أى : ذاته سـبحـانه وتعـالى ، وهذه المسألة نرد بها على مَنْ لا يرى تأويلاً فى القرآن ، وإلا فكيف نقول فى هذه الآية(١) ؟

ومعنى ﴿ ذُو الْجَلالِ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : صاحب العظمة ، وصـاحب الغنى المطلق ﴿ وَالإِكْـرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحـمن] صـاحب الكرم المطلق والفضل التام ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾

---

(١) مقصود الشيخ رحمه الله أننا إن لم نقل أن وجه ربك هـنا تعنى ذاته سبحانه فهذا يقتضى أن الله سبحـانه مكوَّن من أجزاء ستفنى كلها مع مـا سيفنى ويبقى وجهـه فقط . وقد ذهب العلماء إلى أن (وجه ربك) هنا تعنى الذات . قاله الألوسى فـى روح المعانى ، والشوكانى فى فتح القـدير قال : « الوجه عبارة عـن ذاته سبحانه ووجوده » . وقـال ابن الجوزى فى زاد المسير : « أى : ويبقى ربك » . [عادل أبو المعاطى]

قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ .. (٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : الحق سبحانه وتعالى ﴿ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] اليوم زمن يستغرق الوقت كله اليوم والليلة ، فمعنى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : كل آن وكل وقت هو سبحانه فى شأن جديد ، ففى كل لحظة يحدث أمر ، ويظهر قدر مما قدَّره الله أزلاً .

وقد سُئل المأمون[1] فى هذه المسألة : ما شُغل ربك الآن وقد جَفَّ القلم ، ومع ذلك قال ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] ؟ فقال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[2].

وقد بينَّا أن الأقدار قُدِّرتْ أزلاً ، وهى محفوظة فى اللوح المحفوظ ، فالذى يحدث الآن هو ظهور هذا المقدور فى أرض الواقع ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾ [الرحمن]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١)
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى العباسى ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، أحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولد ١٧٠ هـ ، ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة (١٩٨ هـ) ، أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الدجل والفلاسفة ، توفى فى « بذندون » عام (٢١٨ هـ) ودُفن فى طرسوس . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) هذا لا يستطيع المأمون أن يقوله من عند نفسه ، ولكن روى عن رسول الله ﷺ أنه تلا قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

قال فى البحر المديد (٦/٢٠٨) : « المراد بهذه الشؤون أمور يبديها ولايبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له » .

هذا أسلوب تهديد ، وما بالك بالتهديد إنْ كان من الله ؟ ومَنْ يتحمله ؟ لكن تبقى الرحمانية نتعلق بها ونطمع فيها ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الرحمن] تهديد كما تقول لخصمك : غداً (أفضى لك) ، يعنى (هوريك شغلك) .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بعد أنْ أمهلناكم ، فلن تفلتوا منا .

﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] الثقلان هما الجن والإنس ، وسُمِّيا الثقلان لأنهما أثقلا[1] الأرض ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟
مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ[2] (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾

هذا نداء لجماعة الجن والإنس ، وقد خاطبهم فى الآية السابقة ﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] وهنا يتحدى الجميع ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ، وقال الماوردى فى تفسيره : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض . وقال الشوكانى فى فتح القدير : سُمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض .

(٢) قوله ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تنفذون إلا فى سلطان الله وملكه لأنه مالك كل شيء . قاله ابن عباس .

الثانى : لا تنفذون إلا بحجة . قاله مجاهد .

الثالث : لا تنفذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك . قاله قتادة . ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية .

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا..(٣٣)﴾ [الرحمن] وهذا يعنى أن الجن والإنس لن يستطيعوا ذلك ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : من الله فلو أعطى هذه القوة لأحد من خلقه لاستطاع .

لذلك البعض فهم أن صعود الإنسان للقمر نفاذ من أقطار السموات والأرض ، فكيف إذن نفهم ﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] قالوا : أى سلطان العلم الذى مكّنهم من ذلك .

والواقع أن ارتقاء الإنسان لسطح القمر ليس نفاذاً ، لأن القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، هو كحلوان بالنسبة للقاهرة ، ولو تأملنا المسافات بين الكواكب لسهل علينا هذا الفهم .

فقد أثبت العلماء أن بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة(١) مائة سنة ضوئية ، والثانية الواحدة فى سرعة الضوء فيها ثلاثمائة ألف كيلو متر ، فما بالك بباقى كواكب هذه المجموعة ؟ أما القمر فهو تابع من توابع الأرض .

والاستثناء فى ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] يثبت صدق سيدنا رسول الله فيما أخبر به من حادثة الإسراء والمعراج ، وإلا لقالوا كيف هذا ؟ لأنه فوق إمكانيات البشر . إذن : إلا بسلطان منا فمَنْ أردنا له أنْ ينفذ بقدرتنا نحن .

---

(١) المرأة المسلسلة : هى إحدى كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالى وتظهر فى ليالى الشتاء والخريف . وفى هذه الكوكبة يوجد سديم المرأة المسلسلة الذى يُرى بالعين المجردة . ويقدر بُعده عن الأرض بحوالى ٣١ بارسك أى مائة سنة ضوئية . [الموسوعة الفلكية – ص ١٨٩ ، ٤٦٥] .

وذكر سبحانه الجن هنا قبل الإنس ، لأنهم أخفّ منا وأسرع فى الحركة ، لذلك رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام لما أراد أنْ يأتى بعرش بلقيس فقال لمساعديه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ..(٣٨) ﴾ [النمل] لم يتكلم أحد من الإنس ، لأنه يريده أمامه على وجه السرعة ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] والحادث أنهم فى الطريق إليه .

والإنس لا يملكون هذه السرعة ، أما الجن فقد قال واحد منهم ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ..(٣٩) ﴾ [النمل] هذا عفريت من الجن وليس من الجن العادى ، وهذا يعنى أن من الجن النشط الماهر ومنهم (لبخة) لا يستطيع أنْ يؤدى هذه المهمة .

وهذا العرض من العفريت يستغرق وقتاً لأنه لا يقوم من مقامه إلا بعد ساعات ، فقال الأمهر منه وهو الذى عنده علم من الكتاب ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..(٤٠) ﴾ [النمل]

وطرفة العين لحظة لا تستغرق وقتاً ، فلما كان الجن بهذه المهارة فى الحركة بدأ الحق سبحانه بهم لأنه فى مجال التحدى .

ثم إن التحدى فى السموات جمع سماء ، وحركة الإنس فى صعودهم للقمر ، وحركة الجن فى عملية استراق السمع كلها فى مجال السماء الدنيا ، فأين الإنس والجن من باقى السموات ؟

هذه السموات التى اخترقها سيدنا رسول الله فى صحبة سيدنا جبريل حتى وصل إلى منتهاها عند سدرة المنتهى . إذن : ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] ليس سلطان العلم ، بل سلطان قدرة الله ، وإلا فقد مرَّ رسول الله فى أماكن ليس فيها هواء للتنفس ، فكيف

يفعل العلم فى هذه ؟

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾

الخطاب للجن والإنس : إنْ أردتما النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان من الله ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾[الرحمن] وهذا يعنى أن للجن والإنس حدوداً فى الحركة لا يستطيعون تجاوزها .

ومعنى﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ .. (٣٥) ﴾[الرحمن] أى : لهب النار الصافى الخالص الذى لا دخان فيه ، وهذا اللهب يكون أشد حرارة .

﴿ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾[الرحمن] أى المذاب وهو من أدوات العذاب ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾[الرحمن] لا تتمكنان من النفاذ ، ولا تجدان مَنْ يدفع عنكما العذاب .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(١) (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) ﴾

---

(١) الدهان : فى الدهان قولان : أحدهما أنه مفرد وهو الأديم الأحمر . قاله ابن عباس . والثانى أنه جمع دهن والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة . حكاه اليزيدى . وقال الفراء : شبه تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل . وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن . [زاد المسير لابن الجوزى] .

نلاحظ أن هنا أسلوبَ شرط ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ..(٣٧) ﴾ [الرحمن] وجوابه ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) ﴾[الرحمن] وفَصل بين الشرط والجواب ، لأن فى كل منها آية وعجيبة ، وكل منهما من آلاء الله ، فجاء بكل جزء منهما فى آية وذيلها بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) ﴾ [الرحمن]

وانشقاق السماء من علامات القيامة يوم الحساب ويوم يسأل كلاً عن عمله ، لذلك وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية يقولون إنها تتعارض مع قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

وهذا التعارض الذى يرونه فى الآية ناتج عن عدم إلمامهم بملكة اللغة وتذوقها ، لأن السؤال فى العربية له وجهان : التلميذ يسأل المعلم ليعلم منه الحق ، والمعلم يسأل التلميذ ليقرره بالحق .

فقوله تعالى :﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] سؤال إقرار ليقروا على أنفسهم .

ومعنى ﴿ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) ﴾[الرحمن] نعم لأننا لسنا فى حاجة إلى كلامهم ولا اعترافهم ، لأننا سجلنا عليهم وكتبتْ ملائكتنا عليهم أعمالهم فلا داعى لأن نسألهم عنها .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي (١)
وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) ﴾

هذا موقف من مواقف القيامة ، حيث تعرف ملائكة العذاب المجرمين بعلامات مميزة ، فأهل الإجرام يُعرفون ﴿ بِسِيمَاهُمْ (٤١) ﴾ [الرحمن] أى : بعلامتهم بسواد وجوههم ، فيأخذونهم من نواصيهم أى : شعر مقدمة الرأس يجمعونها مع الأقدام ، ثم يُلقون بهم فى جهنم والعياذ بالله ، وهذا الأخذ فيه إذلال وإهانة ، فضلاً عن العذاب لأن الناصية محلّ عزَّة الإنسان وكرامته .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقرعهم ويُؤنبهم ويزيد من حسرتهم ، فتقول لهم ملائكة العذاب ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ .. (٤٣) ﴾ [الرحمن] أى : التى ترونها وتقاسون حرّها الآن هى التى كنتم تكذِّبون بها فى الدنيا ، فذوقوا حرّها الآن .

وتلاحظ أن السياق استخدم الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) ﴾ [الرحمن] أى : فى الدنيا ، أما الآن فهم

---

(١) النواصي : جمع ناصية وهو ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة . ومعنى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن] أي : يُجر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم كناية عن إذلال المجرمين وإهانتهم يوم القيامة إذ يُطوى كل مجرم فتربط ناصيته مع قدميه ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

يعاينونها ويباشرون حرَّها .

إذن : أراد أنْ يستصحب التكذيب منهم فى الدنيا ، وكأنه واقع منهم الآن ، وهذا أنكى لهم . وأشد فى تأنيبهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا .. (٤٤) ﴾[الرحمن] أى : بين جهنم ﴿ وبين حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) ﴾[الرحمن] وبين الشراب الحميم الذى تناهى حرُّه حتى بلغ الغاية فيُقطِّع أمعاءهم ، فكلما اشتدت عليهم حرارة جهنم طلبوا الشراب الذى يخفف عنهم فيذهب بهم إلى الحميم .

وهم يأملون شراباً يلطف من حرارة جهنم ، فإذا به يزيدهم حرارة ، فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ومع ذلك نرى الأداء القرآنى يُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٤٥) ﴾ [الرحمن]

فهذا الحديث وهذا الوصف للعذاب يُعد من آلاء الله ومن نعم الله علينا ، لأنه يجعلنا نهرب من هذا المصير ونتلاشى الوقوع فى أسبابه .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ[1] (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾

(١) الأفنان : جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة ، والأفنان تحمل الثمار ولها ظل ظليل وذلك كناية عن النعيم الذى يلاقيه أهل الجنتين . [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

أى : خاف صفات الجلال من الله تعالى ، خاف حسابه وعقابه ، ما جزاؤه ؟ له ﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن] لا جنة واحدة ، وهنا أيضاً وقف المستشرقون يقولون : أهى جنة أم جنتان ؟ قالوا : جنتان باعتبار أنه تعالى يتكلم عن الإنس والجن ولكلٍّ جنته .

وآخرون أخذوها بمعنى آخر ، فقالوا : جنة المؤمن التى أعدها الله له فى الآخرة ، وجنة الكافر التى أعدها الله له إنْ آمن ، فلما لم يؤمن ورثها عنه المؤمن ، كما سبق أنْ أوضحنا ، وهكذا يكون للمؤمن جنتان .

وهذه الآية وقف عندها سيدنا شقيق البلخى(١) وهو أحد العارفين بالله ، وكان له تلميذ اسمه حاتم وغلب عليه لقب الأصم(٢) وكان لهذا اللقب قصة تُرينا مدى الارتقاء فى الخَلْق عند هؤلاء الناس الذين خافوا مقام ربهم .

قالوا : إن امرأة جاءته فى حاجة لها ، فلما دخلتْ عليه غلبها ما يغلب الناس من الضراط ، فقال لها : ما تريدين ؟ وأعادها كأنه لا يسمع ما حدث منها تأدباً منه ، لذلك لُقِّب بالأصم(٣) .

---

(١) هو : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى أبو على ، زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، وكان من كبار المجاهدين استشهد فى غزوة كولان (عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م) [الأعلام للزركلى ٣/١٧١] .

(٢) هو : حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل ، شهد بعض معارك الفتوح ، توفى عام (٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) [الأعلام للزركلى ٢/١٥٢] .

(٣) ذكر الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن سبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسُرَّت المرأة بذلك . فغلب عليه هذا الاسم . [باب فى الخير والصلاح] .

الشاهد أن البلخي سأل تلميذه حاتم الأصم : كم مُكْثك معي ياحاتم ؟ قال : ثلاث وثلاثون سنة ، قال : فماذا أفدتَ مني في هذه المدة ؟ قال : مسائل .

قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، طوال هذه المدة ما أفدتَ غير مسائل ؟ قال : هو كما أخبرتك قال : ما هي ؟ فقال : أحببتُ الجنة لأنني رأيت الخلق الذين أعاصرهم كلهم غل وحقد بعضهم على بعض فكرهتُ هذه الخصال ، فلما قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. ﴿٤٣﴾ ﴾[الأعراف] اشتقتُ للجنة التي لا يُوجد فيها غلٌّ ، قال : أحسنت فما الثانية ؟ قال : عرفت أن السبيل إليها مخافة الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن] فخفتُ مقام ربي ، ونزعت من نفسي هواها فاستقامت لي الطاعة ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات]

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الثالثة ؟ فقال : استقرأتُ الخَلْق فوجدتُ لكلٍّ واحد منهم حبيباً يحبه ويصاحبه ، لكن مهما كان الحب بينهما فإنه يفارقه عند دخوله القبر ، فأحببت أنْ يكون لي صاحب لايفارقني في قبري ، فلم أجد غير عملي .

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت الخَلْق كُلٌّ منهم يحب شيئاً يحافظ عليه ، ومع ذلك قد يسرقه منه لص أو تنتابه الأغيار ، لذا جعلت عملي كله لوجه الله ليكون ربي هو الأمين عليه .

قال : فما الخامسة ؟ قال : علمتُ أن الناس يتعادون ويتحاسدون ويتباغضون ، فلما بحثتُ في سبب ذلك وجدته سعة الرزق عند هذا ، وضيق الرزق عند ذاك ، فلما قرأتُ قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فاطمأن قلبى وألقيتُ عنى الغل والحقد والحسد .

قال : فما السادسة ؟ قال : رأيتُ ما بين الناس من عداوات فقرأتُ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .. (٦) ﴾ [فاطر] فتركتُ عداوة الخَلْق ووجهت عداوتى كلها للشيطان .

قال : فما الأخيرة يا حاتم ؟ قال : وجدتُ الناس يثقُون في أشيائهم من مال وعقار أو تجارة وصناعة ، وأنها تفوت صاحبها ، فتوكلت على الحىِّ الذى لا يموت ولا يفوت .

وقوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) ﴾ [الرحمن] أى : الجنتان فيهما أفنان ، جمع فنن ، وهو الغصن ، فالجنتان مليئتان بالأغصان الكثيرة الملتفة المتشابكة ، بحيث تجن أو تستر مَنْ يسير فيها.

﴿ فِيهِمَا .. (٥٠) ﴾ [الرحمن] أى : الجنتين ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) ﴾ [الرحمن] أى : بالماء العذب ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) ﴾ [الرحمن] أى : صنفان ، قالوا : صنف تعرفه وصنف لا تعرفه ، فإذا كان هذا حال التفكه وهو زيادة ورفاهية ، فما بالك بالضروريات ؟

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ(١) وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ(٢) إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩ ﴾

تستمر الآيات فى تعداد مظاهر النعيم وألوانه فى الجنة ، ومنها أنْ ترى أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا .. ٥٤ ﴾ [الرحمن] أى : حشْوها ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ .. ٥٤ ﴾ [الرحمن]وهو الحرير الغليظ .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٤ ﴾ [الرحمن] الجنَى : هو الثمر الذى نضج وحان وقت جَنْيه ﴿ دَانٍ ٥٤ ﴾ [الرحمن] قريب فى متناول الأيدى ، لا يمنعك عنه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، فهو قريب من يدك أينما كنتَ وعلى أىِّ هيئة ، تناله وأنت قائم ، وتناله وأنت قاعد أو نائم على سريرك تتقلَّب فى هذا الحرير .

بل فيها أكثر من ذلك ، فمجرد أنْ يخطر الشيء ببالك تجده بين يديك(٣) دون أنْ تُحرك ساكناً ، ودون أنْ تبذل أىَّ مجهود ﴿ لَهُم مَّا

---

(١) إستبرق : قال الزجاج : هو الديباج الغليظ الحسن . فهو حرير سميك [لسان العرب - مادة : استبرق] .

(٢) يطمثهن : الطمث : المسّ ، ويكنى به عن المباشرة الجنسية لأول مرة واستعمل فى افتضاض العذراء . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٣) أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » . ثم أورده السيوطى فى تفسيره الدر المنثور فى تفسير آية ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ ﴾ [الواقعة] .

يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق]

ثم يحدثنا عن لون آخر من نعيم الجنة وهو الحور العين ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ..﴿٥٦﴾ [الرحمن] أى : نساء حسناوات قصرن أبصارهن على أزواجهن ولم يتعدينهم إلى غيرهم .

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ [الرحمن] أى : لم يسبق لهُنَّ الزواج ولم يفُض بكارتهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن[1] ، وهذا يعنى أنهن محفوظات مقصورات لأهل الجنة ﴿كَأَنَّهُنَّ .. ﴿٥٨﴾ [الرحمن] أى : فى الحسْن والجمال ﴿الْيَاقُوتُ[2] وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تسأل : ما السبيل إلى كلِّ هذا النعيم ؟ فتجيبك الآيات :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

فالجزاء من جنس العمل ، ولما أحسن المؤمن أحسن الله إليه ، وتداركته رحمة الله فيما قصّر فيه ، وإلا فالعمل وحده لا يكفى لبلوغ هذه المنزلة .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

---

(١) قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ [الرحمن] قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٨١/٩) : « ذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونُزهن والطمث الجماع » .

(٢) قال الحسن البصرى : هُنَّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦٥٨٢/٩] .

أى : من دون الجنتين السابقتين ، وأقل منهما فى المنزلة جنتان أخريان ، ذلك لأن الجنة منازل ودرجات بحسب الأعمال والإخلاص فيها لله تعالى ، وسيأتى فى سورة الواقعة بيان لهذه المنازل ، فالجنتان السابقتان بكل هذا النعيم هى درجة المقربين ، ومَنْ دونهما ، وأقل منهما جنتان لأهل اليمين .

ومعنى ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) ﴾ [الرحمن] أى : الجنتان مدهامتان ، والمدهام هو اللون الأخضر الذى اشتدتْ خُضْرته حتى مال إلى السواد من كثرة الخضرة فيه ، وهذا اللون لا تجده إلا فى الأرض الخصبة التى توفَّر لها الارتواء بالماء العذب .

لذلك بعد أنْ وصف الجنتين بأنهما مدهامتان قال :

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(١) (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٢) (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) ﴾

أى فى هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء ، والماء العذب هو مصدر النماء ومصدر النضرة فى النبات . ثم ذكر من نعيم هذه المنزلة ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) ﴾ [الرحمن] وفى المنزلة الأعلى قال : ﴿ مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) ﴾ [الرحمن]

---

(١) المعنى نضاختان بالخير والبركة . قاله الحسن ومجاهد . وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضح رش المطر . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٨٥] .

(٢) ذكر الله الفاكهة ثم أفرد النخل والرمان ولم يعدهما من الفاكهة فثمرة النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . فلم يخلصا للتفكُّه .

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(١) ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا وصف أيضاً لنساء الجنة فهُنَّ خـيْرات قالوا في الأخلاق والشِّيَم ، وحسان الوجوه والمنظر ، وهُنَّ ﴿ حُورٌ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] الحوَر مما تُمدح به المرأة وهو شدة بياض العينين وشدة سوادهما ﴿ مَّقْصُورَاتٌ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] محفوظات مُخدرات في بيوتهن لا يبتذلن ولا يخرجن للعمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ(٢) خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ(٣) حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

(١) فَهُنَّ خيرات أي ذوات خير وقيل : مختارات اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره سبحانه ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . وهُنَّ حسان بوصف الخالق لهن بالحسن ، لا بوصف البشر ، فانظر ما حُسْنهن .

(٢) الرفرف : اشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء . والرفرف أيضاً جوانب الفسطاط (الخيمة) لأنها ترتفع مع الهواء . فالمعنى على هذا أنهم متكئون على وسائد مرتفعة . قال القرطبي في تفسيره (٩/٦٥٩١) روى لنا في حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، فذكر أنه قال : « طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربي » .

(٣) قال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري . [تفسير القرطبي ٩/٦٥٩٢] .

قالوا ﴿ رَفْرَفٍ .. (٧٦) ﴾ [الرحمن] هو الوسادة التى يُتكأ عليها ، أو الفرش الذى يجلس عليه .

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن] العبقرى : البساط الذى بلغ الغاية فى حُسْنه ، وعبقرى فى لغة العرب نسبة إلى وَاد فى الجزيرة العربية اسمه وادى عبقر ، يعتقدون أنه تسكنه الجان ، فمَنْ أتى بشىء بديع يقولون أنه عبقرى . يعنى : ذهب إلى هذا الوادى وعلَّمته الجن ، وأصبحوا يقولون للشىء الذى بلغ فى الحُسْن مبلغاً يفوق صناعة البشر : عبقرى .

ثم يختم الحق سبحانه وتعالى هذه السورة بالثناء على نفسه سبحانه فقال :

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾

كلمة (تبارك) من البركة ، فأثبتت البركة للاسم نفسه ، فمجرد الاسم فيه بركة .

وكلمة (تبارك) لا يُشتق منها غير هذا اللفظ ، فلا يأتى منها المضارع ولا الأمر ولا اسم الفاعل . ومعناها : كَثُر خير الله وزاد ، وعَظُم هذا الخير ، وتنزَّه عن النقص .

الحق سبحانه وتعالى فى مواضع أخرى قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [الملك] فتوجهت الصفة إلى المسمى وإلى ذاته تعالى .

أما هنا فقال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ .. (٧٨) ﴾ [الرحمن] فاثبت الصفة

للاسم ، فكيف يكون الاسم مُعظماً كثير الخير وهذه الصفة تكون فى المسمى ؟

قالوا : لأن الأسماء حين تُوضع يُراعى فيها التفاؤل بمَنْ يُوضع له الاسم ، فنسمى المولود مثلاً ذكى أملاً فى أن يكون ذكياً ، وسعيد أملاً فى أنْ يكون سعيداً وهكذا .

وبعد ذلك يأتى واقع المسمى على خلاف اسمه وعلى نقيضه ، نسميه أميناً فيكون خائناً ، إذن : تبارك الاسم حين يصدق الوصف على الموصوف به فنسميه سعيداً ويكون فى الواقع سعيداً .

إذن : حصل للاسم بركة المسمى بأنْ وافقه ولم يُكذّبه ، لذلك قال سبحانه ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ..(٧٨)﴾ [الرحمن] فهو سبحانه أحق الأسماء بهذه البركة .

ومعنى ﴿ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمن] صاحب العظمة وصاحب الهيبة المرهوبة وصاحب القوة والبطش والجبروت ، وسبق أنْ قلنا : إن الله تعالى صفات جلال هى هذه الصفات ، وصفات جمال هى الرحمة والرأفة والمغفرة والتوبة وغيرها .

فحين يتجلى الحق سبحانه عليك بصفات الجلال ترى ما يُخيفك ويُرهبك ، وحين يتجلى عليك بصفات الجمال ترى ما يُريحك ويسعدك ويسرُّك .

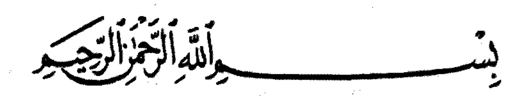
لذلك لما قال أحد الإخوان : إننى أجد نفسى فى المدينة غير ما أجدها فى مكة ، قلنا : لأن الله تعالى يتجلى فى مكة بصفات الجلال ،

ويتجلى فى المدينة بصفات الجمال .

وكما أنه تعالى ﴿ذِى الْجَلالِ (٧٨)﴾ [الرحمن] هو أيضاً - وفى نفس الوقت - ذو الإكرام وذو الفضل والإنعام والإحسان إلى الخلق .


سُورَةُ الوَاقِعَةِ

سورة الواقعة[1]



﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾

كلمة وقع تدل على أن شيئاً سقط من أعلى سقوطاً لازماً لايستطيع أحد أنْ يمنعه . ونقول : إن الجاذبية هى التى أسقطته . وتأتى هذه المادة (وقع) فى المسائل الهامة التى فيها هيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل] وقال : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الواقعة هى السورة رقم (٥٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٩٦) آية . وهى سورة مكية نزلت فى مكة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] نزلت سورة الواقعة بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٩٥ ، والإتقان للسيوطى ١/٢٧] .

إذن : وقع تدل على أمر حاسم وحاصل بذاته بأمر الله الذى قدَّره وضبطه على أنْ يقع بهذه الصورة ، كما تضبط المنبه ليُوقظك لصلاة الفجر ، وحين يرن المنبه فى وقت الفجر ويُوقظك لا يكون الفضل والعظمة للمنبه ، إنما للذى ضبطه على هذا الوقت ، كذلك إذا وقع الحق تكون العظمة لمن أوقعه .

فكلمة (وقعت) يعنى : هى أمر واقع لا مردَّ له ، فقال سبحانه : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾[الواقعة] أى : القيامة واقعة أزلاً وتدبيراً ، كأنها وقعتْ بالفعل لأن الذى يتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه الذى لا رادّ لأمره .

لذلك سماها أزلاً وقال بعدها ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ [الواقعة] لأنهم كانوا يُكذِّبون بها وينكرون الرجعة بعد الموت ، فالحق سبحانه يخبر عن القيامة بأنها وقعتْ بالفعل ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ [الواقعة] كأنها حدثت .

فالله تعالى سماها أزلاً الواقعة ، وجعل لها وقتاً مضبوطاً عنده تعالى ، ثم قال أن الواقعة التى أخبرنا بها سابقاً وقعتْ بالفعل الآن ، وساعة ما أخبرنا بها كان هناك تكذيب بها ، ولكن بعد أنْ وقعت ليس هناك تكذيب .

والواقعة اسم من أسماء القيامة ، ولها أسماء عدَّة لكل منها معنى ، ويعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير المفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخة والواقعة ، فلكل منها ملحظ وهى جامعة لكل هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

وباستقراء مادة وقع فى القرآن نجدها تدل على شىء مخيف إلا

في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

أي : سقط أجره على الله ، وحتى نفهم معنى (وقع أجره على الله) علينا أن نقرأ قوله الحق ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا السقوط ولكنه ليس كالسقوط الذي نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله ، ولماذا يستخدم الحق هنا (وقع) بمعنى (سقط) هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام ، حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا أدرك العبدَ الموتُ فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ويعرف الجزاء من يذهب إليه معرفة كاملة .

ومعنى ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أي : ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذِّب بها ، مثل : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] فاللام لام العندية : أي عند دلوك الشمس .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا[(١)] (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) ﴾

أي : خافضة لقوم رافعة لآخرين ، خافضة للكافرين الذين كذبوا بها فلم يعملوا حسابها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[(٢)] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . قال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾ [الواقعة] أي : فُتت تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٢) القيعة : جمع قاع كجار وجيرة . والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب .

فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

وهى رافعة للمؤمنين بها الذين عملوا لها وكانوا ينتظرونها ويحتسبون أجرهم فيها ، فترفعهم فى درجات الجنات ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ..(١٨)﴾[الشورى] إذن : القيامة خافضة للكافرين فى دركات جهنم ، رافعة للمؤمنين إلى درجات الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾[الواقعة] هذه الأرض المثبّتة بالجبال الرواسى ترج وتهتز ، وقد أخذنا من ذلك أن الأرض خلقها الله تعالى على هيئة الحركة ثم ثبَّتها بالجبال ، ولو كانت على هيئة الثبات ما احتاجت إلى الجبال فوقها ، إذن : تثبت الآيات أن الأرض تتحرك وتدور .

والرجّ خلخلة الشىء من مكانه وهزّه هزاً عنيفاً كما تخلع الوتد ، فلا تنزعه من مقابض الأرض عليه مرة واحدة ، إنما تحركه لتخلع جذوره وتُخفف قبضة الأرض عليه ، فيسهل عليك انتزاعه ، كذلك ترج الأرض وتهز بقوة .

وقد عبّر عن هذا المعنى بالزلزلة : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾[الزلزلة] وقال : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾[الحج] ولأن هذا الرج بقوة وعنف أكد قوته بالمفعول المطلق المبيِّن للنوع ، فقال ﴿رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾[الواقعة] أى : رجاً قوياً عنيفاً ، وما بالك إذا كان الفعل لله تعالى ؟!

وقوله تعالى : ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)﴾[الواقعة] هذه نتيجة الرجة العنيفة التى تفتت هذه الجبال الصلبة الجامدة وتجعلها كما

نقول فى الريف (بسيسة) ، ومعنى بُسَّت أى : تفتتت فصارت كالدقيق .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝ ﴾[الواقعة] أى : كالغبار الذى لا يُرى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس لدقّته وصِغَره ﴿ مُّنبَثًّا ۝ ﴾ [الواقعة] متفرقاً .

وفى آية أخرى عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] الْمَنفُوشِ ۝ ﴾[القارعة] أى : الصوف المندوف ، والصوف حينما تتفرّق شعيراته تكون كالهباء المنتشر المتفرق .

إذن : القيامة تبدأ بتهدُّم هذا الكون كله ، كل ما يحيط بك من عناصر الكون الثابتة تزول ، فالسماء تنفطر وتتشقق ، والنجوم تنكدر ، والجبال تُنسف ، ثم يأتى الدور عليكم وتقفون للحساب :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ﴾

أى : سيكون الخلْق فى هذا الموقف على ثلاثة أصناف ، أولها أصحاب الميمنة وفى موضع آخر قال (أصحاب اليمين) وهم الذين

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو ألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/ ٤٠] .

يأخذون كتبهم باليمين ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾ [الواقعة] تفخيم وتعظيم لهذه المرتبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ [طه]

واليمين تدل على الخير لذلك تستخدم اليد اليمنى فى الأعمال الخيِّرة المفضلة ، لذلك أمرنا الشرع بالتيمُّن ، وفضل اليمين لا تُحرم منه الشمال ، فأنت حينما تمسك بالمقصِّ مثلاً لتقصّ أظافرك ، فاليمين تقصّ للشمال بدقة وأمان ، أما الشمال فتقصّ اليمين هكذا كيفما اتفق وبلا دقة .

وهذا يُعلِّمنا درساً فى الحياة هو أننا يمكن أنْ نستفيد بمَنْ هو أفضل منا فلا نحقد عليه ولا نحسده ، لأنه يكمل ما عندنا من نقص ، وخيره سيعود علينا ، فيتحمل هو شيئاً من نقصك .

ومن هنا حثَّ الشارع على أنْ نتعلم العلم ونُعلّمه ، وننشر فى المجتمع الفضيلة ، ونأمر بها وننهى عن الفحش والرذيلة ، لأن الخير عند غيرك سينالك منه وكذلك الشر ، ولو التزم الناس بالمنهج لاستراحوا وأراحوا .

وقد أخبر الحق سبحانه عن أهل الميمنة أنهم يفتخرون بكتبهم حينما يستلمونها باليمين ويتباهوْنَ بها ، يقول قائلهم : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾ [الحاقة] هؤلاء هم الذين رفعتهم القيامة .

الصنف الثانى هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، وهم الذين يأخذون كتبهم بالشمال ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩﴾ [الواقعة] فاليمين تيمُّن وخير ، والشمال شُؤْم وشرٌّ .

وقد حكى القرآن عنهم حينما يأخذون كتبهم بالشمال ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة] فيؤمر به : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(١) ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا(٢) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة]

والصنف الأخير هم ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الواقعة] كررها للتعظيم ، وهؤلاء وإنْ أتوا فى الذكر مؤخراً إلا أنهم فى الترتيب أولاً ، وهم أعلى الدرجات بدليل أنه سبحانه أخبر عنهم بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الواقعة] أى : مقربون من العرش ، فإنْ أردت الترتيب من أعلى ، فالسابقون ثم أصحاب الميمنة ثم أصحاب المشأمة .

إذن : هذه مراتب ثلاث احتلها أصحابها فى الآخرة بحسب أعمالهم فى الدنيا : فالسابق إنسان باكر حياته بعمل الخير منذ صغره ، ثم ظل على هذا حتى قضى فسبق إلى الجنة ، وصاحب اليمين أو الميمنة إنسان باكر حياته منذ صغره بعمل الشر ، لكن تداركته نفسه اللوّامة فتاب وأناب وظل على عمل الخير حتى قُبض ، وصاحب المشأمة هو الرجل الذى باكر حياته بعمل الشر ، وظل على ذلك حتى قُبض .

والجنة هى عطاء الله ، وفيها يجتمع أصحاب الميمنة والسابقون ، إلا أن السابقين يكونون فى منزلة أعلى وأقرب من العرش ﴿ أُولَٰئِكَ

---

(١) صلُّوه : أى أدخلوه النار . صلاه الله النار تصلية : أدخله النار . وقوله ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة] أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) ذرعها : قال ابن عباس : بذراع الملَك . وقال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً . الباع أبعد مما بينك وبين مكة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . [زاد المسير لابن الجوزى الحاقة ٣٢] .

الْمُقَرَّبُونَ (11) ﴾ [الواقعة] أين ؟ فى جنات النعيم ، ونفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الزمر :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) ﴾ [الزمر] .. ثم قال بعدها : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ..(75) ﴾ [الزمر]

إذن : القرب هنا يعنى القرب من العرش .

والسابق هنا هو الذى ينافس غيره ليسبقه ، والمسابقة هنا فى الخير وهو أمر مطلوب شرعاً ، لذلك أمرنا الحق سبحانه بأنْ نسارع وأنْ نسابق : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..(133) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(21) ﴾ [الحديد]

والسباق هو سباق إيمان وعمل صالح ، سباق مَنْ يريد أنْ يسبق ، وفى نفس الوقت يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، سباق ليس فيه حقد ولا أنانية .

المؤمن يسابق غيره ، والمسألة واضحة فى ذهنه ، فالجوائز تنتظر مَنْ يسبق ، والعطاء عطاء لا ينفد . والعجيب أن المؤمن يسرع فى عمل الخير فى حياته ، وقد يسرع حتى فى موته شوقاً إلى الجنة التى رأى علاماتها وهو فى سكرات الموت .

لذلك عندنا فى الفلاحين يحكون أن فلاناً أسرع به النعش ، فالبعض ينكر عليهم ويقولون : هذا وهم ، لكن ثبت أن النعش قد يسرع ببعض الناس الطيبين ، ومن سيرتهم نعلم أنهم كانوا على خير وأنهم يسرعون تشوّقاً إلى الجوائز ، والذين يباشرون شئون الموتى يعلمون أن الميت تظهر عليه علامات حُسْن الخاتمة ، أو العياذ بالله علامات سوء الخاتمة .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ(١) ⑭ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ⑮ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯ ﴾

هذا الكلام متصل بما قبله ، فالسابقون المقرَّبون تجدهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ⑬ ﴾[الواقعة] أى : جماعة تمثل كثرة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ ⑬ ﴾[الواقعة] أى : من الأولين فى الإسلام السابقين إليه وهم جماعة الصحابة رضى الله عنهم .

فالسابقون المقربون كُثْر فى عصر الصحابة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ⑭ ﴾ [الواقعة] أى : هؤلاء قلة فى العصور التالية ، قلة هم الذين يُوصفون بأنهم سابقون مُقربون فى عصرنا وفى العصور السابقة علينا فى هذه الأزمان المتأخرة .

وكثيراً ما نسمع جدالاً بين الناس يقولون : فلان رجل طيب يفعل كذا وكذا من أعمال الخير وهو أشبه بالصحابة ، فيرد الآخر يقول : لا ليس بيننا أحد كالصحابة ، ولا يرقى عملنا مهما كان لدرجتهم .

لكن القرآن يحسم لنا هذه القضية ، فالسابقون المقربون موجودون فى أمة الإسلام ، فى الأولين الذين عاصروا رسول الله

---

(١) قال عروة بن رويم : لما أنزل الله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ⑭ ﴾ [الواقعة] بكى عمر وقال : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك ومع هذا كله من ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ㊴ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ㊵﴾ [الواقعة] فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال : يا عمر بن الخطاب قد أنزل الله فيما قلت ، فجعل ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال عمر : رضينا عن ربنا وتصديق نبينا . فقال رسول الله ﷺ : من آدم إلينا ثلة ، ومنى إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله . [أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٢٩] .

والتابعين لهم ، وموجودون كذلك حتى عصرنا الحالى لكنهم كثيرون فى الأولين قليلون فى الآخرين .

قليلون إما لكثرة الناس فيظهر السابقون بينهم قلة ، وإما لتفشى الفتنة وكثرة الفساد ، إذن : هم موجودون . لذلك قال الشاعر :

إنَّ الذى جَعلَ الحَقيقةَ علْقماً لَمْ يُخْلِ مِنْ أَهْلِ الحَقيقَةِ جِيلا
ولَرُبّما قَتَلَ الغرَامُ رِجالَها قُتل الغَرام كَم استَباحَ قَتيلاَ

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة] أى : جزاؤهم وإقامتهم فى الجنة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة] أى منسوجة نَسْجاً دقيقاً متداخلاً بخيوط الذهب ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ..﴿١٦﴾﴾ [الواقعة] أى : على هذه السُّرر ، والاتكاء وضع يدل على الطمأنينة والراحة والرفاهية .

﴿مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة] أى : أنهم فى وضع التقابل لا التدابر ، وجوههم متقابلة ، وهذا الوضع يدل على الأُنس والراحة ، حيث تتقابل الوجوه التى يملؤها البِشْر والسرور ، وهذا الوضع متوفر لهم دائماً حتى مع حركتهم لا يتدابرون .

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ[(١)] ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) الولدان : الغلمان . وقال الحسن البصرى : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيجزون بها ، ولا سيئات فيعاقبون عليها ، فوُضعوا بهذا الموضع . وفى المخلدين قولان : أحدهما أنه من الخلد ، والمعنى أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون وهم على سن واحد .
والثانى أنهم مُقرَّطون ويقال مسوَّرون . ذكره الفراء وابن قتيبة . أى أنهم يلبسون الأقراط والأساور . [زاد المسير لابن الجوزى – آية ١٧ الواقعة] .

ومن نعيم الجنة الذى يتنعَّمون به ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾[الواقعة] يطوف عليهم بأكواب الشراب ويقوم على خدمتهم ولدان ، وهم الصبيان الصغار حسان الوجوه ، فرؤية الوجه الحسن من النعمة ، وهؤلاء يبقون على هذا الشكل وفى هذا السن لا يكبرون .

وهذا حال أهل الجنة عامة أنهم يبقون على سِنٍّ واحدة هو سِنّ الشباب والفتوة ، لا يصيبهم هرم ولا كِبَر ، لذلك قال فى النساء ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾[الواقعة] أى : فى سِنٍّ واحدة .

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾[الواقعة] أى : يطوف عليهم الولدان الحسان بأكواب جمع كوب و (أباريق) جمع إبريق ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾[الواقعة] أى : من ماء عذب يجرى من العيون ، أو من خمر ، وهذه هى أدوات الشراب .

الفرق بينها أن الكوبَ إناء يُشرب فيه ليس له يد تمسكه منها ، وليس له (بزبوز) يُصبُّ منه الماء ، فإنْ كان للإناء يد و(بزبوز) فهو إبريق ، أما الكأس فهو الكوب شريطة أنْ يكون ممتلئاً .

وهم فى هذا النعيم ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا .. ﴿١٩﴾﴾[الواقعة] طالما قال ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة] إذن : الكلام عن شراب الخمر ، فلا بُد أنْ يُنزهها عن خمر الدنيا ، فقال ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة] أى : لا يصيبهم ما يصيب شارب الخمر فى الدنيا ، لا يصيبهم صداع .

﴿وَلاَ يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[الواقعة] لا تذهب الخمر بعقولهم كما تفعل خمر الدنيا ، وهكذا يكون خمر الآخرة متعة صافية ، خلصت من كل شائبة ومن كل نقيصة .

وخمر الدنيا أول ما تعطى شاربها تُعطيه صداعاً ، ثم يشعر أنه يريد أنْ يستفرغ أو يقىء ما فى بطنه ، وهذا معنى ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩)﴾[الواقعة] فخمر الآخرة لذة لا يشعر شاربها بهذا الشعور ، فهى متعة وسرور خالص من كل ما يكدر .

والعجيب أنْ نرى كثيراً من شاربى الخمر يشربونها ، لأن عندهم هماً يريدون الخلاص منه ، فيستر عقله ، ويُذهبه بشرب الخمر حتى لا يُفكر فى همه ، وهكذا تتعقد الأمور ولا تحل مُشكلة ، فستْرُ الهَمِّ لا يُذهبه ، والعاقل هو الذى يواجه المواقف ، وينظر فى أسباب الخروج من الهَمِّ بالتفكير والتأمل والبحث عن حلول عملية .

والقرآن لما تكلم عن الخمر قال : ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ..(١٥)﴾ [محمد] فجاء لهم بشىء كانوا يرتبطون به ويحبونه ويجدون فيه متعة فجَعله من نعيم الآخرة ، لكن صفّاه مما يشوبه من نقائص شراب الدنيا ، فقال ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة]

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾

أى : ومن نعيم الجنة أيضاً أنهم يجدون الفاكهة أمامهم ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾[الواقعة] هم ومما يحبون ، يتخيّرونها من بين أنواع كثيرة ليعرفوا الفرق بين هذه وهذه ، والاختيار يدل على كثرة المعروض عليهم .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾[الواقعة] أى : مما يُفضلون ومما يُحبون .

وهكذا أتى لهم بالطعام والشراب والفاكهة ، فماذا تبقى من متعة الإنسان فى الدنيا ؟ قالوا : متعة النساء ، فقال بعدها : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) ﴾[الواقعة] ليستوعب كلَّ المتع .

والحور جمع حوراء ، والحَوَر صفة جمال فى المرأة ، وهى شدة سواد العين مع شدة بياضها ، سواد ناصع وبياض ناصع مع اتساع العين ، لذلك مدح الشاعر العربى القديم هذه الصفة فقال :

إنَّ العُيُونَ التى فِى طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِين قَتْلانَا
يصرعن ذَا اللبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْق الله إنْسَانَا

ثم وصف هؤلاء الحور العين ، فقال ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾[الواقعة] واللؤلؤ جميل بذاته وله بريق وجاذبية ، وهو مع ذلك ﴿ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾[الواقعة] أى : محفوظ ومصُون لا يلحقه غبار يُقلل من جماله وبريقه .

ونفهم من معنى ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾[الواقعة] أن الحور العين لسْنَ فى المتعة كنساء الدنيا فإن اشتهيت النساء تجد مشاعر أرقى ولذة أرقى من هذا الذى يحدث مع نساء الدنيا .

وهذه اللذة ترتقى حتى تصل إلى درجة العليين ، وهذه الدرجة ليس فيها متعة من طعام أو شراب أو نساء ، إنما يكفيهم لذة النظر إلى الله عز وجل .

هذا كله ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾[الواقعة] أى : بسبب

أعمالهم الطيبة نالوا هذا الجـزاء ، وهذا يعنى أن الأعمال ليست مقابل الجزاء ، وإلا فقد ورد فى الحديث الشـريف أن سيدنا رسول الله قال : « لا يدخل أحد الجنة بـعمله ، قالوا : ولا أنت يا رســول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[1]

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

أى فى الجنة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] اللغو هو الكلام الذى لا خير فـيه أو هو الباطل ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] لا يؤثم بعضهم بعضاً لأنـهم لا يفعلون فيها الإثم ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴿٢٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : لا يسمعون فيها إلا هذه الكلمة كلمة السلام .

بمعنى أنْ يسلم بعضــهم على بعض أو تسلم عليهم الملائكة ، أو أشرف من هـذا ، وهو أن يُسلِّم عليهم الحق سـبحـانه وتعالى ، كـما قال فى (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) أخرج مسلم فى صحيـحه (حديث ٥٠٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخله عمله الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى ربى برحمة » .

سبق أنْ حدثتنا الآيات عن مراتب ثلاث : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، ثم السابقون ، ثم بينتْ جزاء السابقين ، وأنهم كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين . والآن تذكر الآيات جزاء أصحاب اليمين .

وسوف نلاحظ أن جزاءهم فى الجنة أقل مرتبة من السابقين المقربين ، فكأن السياق القرآنى يُفصِّل القول فى هؤلاء الثلاثة بعد إجمال .

يقول تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) ﴾[الواقعة] فكررها هنا بعد (ما) التعجبية ليفيد التعظيم والتفخيم لهؤلاء ، كما تقول : أعطيته ما أعطيته وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ [النجم] يعنى : أوحى إليه شيئاً عظيماً يجلّ عن الوصف أو الحصر .

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] السدر : جمع سدرة وهى شجرة النبق ، وهذه الشجرة لها مزية كبيرة ، وهي أن سدرة المنتهى شجرة نبق ، وإن كانت في الحقيقة ليست كشجرة النبق التى نعرفها .

لذلك لما وصف ثمرها قال « كقلال هجر »[1] وثمر النبق حينما يستوى وتكون شجرته فى أرض طيبة وبيئة صالحة تجده لذيذاً حلواً

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤١٧/١) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يخرج من تحت سدرة المنتهى أربعة أنهار ، اثنان باطنان واثنان ظاهران ، ورأيت ورق الشجرة كآذان الفيلة وحملها كقلال هجر » . وقال : حديث صحيح مشهور من حديث قتادة عن أنس .

تأكله واحدة بعد الأخرى ، لا تحب أنْ تتركه .

والذى يعكر هذه اللذة أن شجرة السدر لها شوك يؤذيك كلما أردتَ أنْ تتناول ثمرة منها ، وكثيراً ما نرى الشوك فى الأشجار النفيسة لحماية ثمارها ، كما فى الورد وفى النخل يحميه من الفئران ومن الحشرات .

أما فى الجنة فقلنا : إن النعيم فيها خَالٍ مما يشُوبه ومما يعكر صفوه ، فسدْر الجنة ﴿ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾[الواقعة] أى : مقطوع منه الشوك ، نزعنا منه ما يؤذى وأبقينا على المتعة واللذة ، والجنة ليس فيها آفات ولا حشرات تحتاج إلى أشواك لحماية الثمرة .

ومعنى ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] الطلح شجر الموز[(١)] ﴿ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] منظوم مرصوص بعضه فوق بعض ، كما نرى فى سباطة الموز ، وما فيها من تنسيق وترتيب بين أصابع الموز .

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الواقعة]ظل ممتد دائم لا يزول ، ومعلوم أن الشمس هى التى تزيل الظل ، والجنة ليس فيها شمس ، فظل هذه الأشجار ظل دائم ممدود .

---

(١) الطلح : فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الطلح الموز . قاله ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة والحسن وعكرمة .

الثانى : أنها شجرة تكون باليمن وبالحجاز كثيراً تسمى طلحة .

الثالث : أنه الطلع . قاله على . [تفسير الماوردى آية ٢٩ – الواقعة] .

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ[1] (٣١) ﴾[الواقعة] ثم ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾[الواقعة]بالله بعد أنْ استوفى لذة الطعام والشراب والتفكه ، ماذا يبقى من متع للإنسان ؟

يبقى متعة النساء فيعبر عنها السياق القرآنى هذا التعبير الأدبى اللطيف ، ويُكنِّى عنها بقوله سبحانه : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) ﴾[الواقعة] والفُرُش جمع فراش ، والفراش هو المحل ، ولذلك يُسمُّون المرأة فراش الرجل ، وهذا تعبير راقٍ لهذه المتعة التى تقوم على الستر والصيانة ، لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ (٣٥) فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتۡرَابٗا[2] (٣٧) لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (٤٠) ﴾

إذن : فهمنا من الفُرش أنها كناية عن النساء أنه سبحانه قال بعدها ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) ﴾[الواقعة] أى الحور العين أنشأهن الله

---

(١) ماء مسكوب : قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٦١٠) « أى : جار لا ينقطع. وأصل السكب الصب . أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم » .

(٢) عرباً أتراباً : العُرُب : جمع العَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ٢/ ١٣] . أما الأتراب فهن اللاتى على ميلاد واحد متماثلات مستويات فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦١٢] .

وخلقهن خلقاً جديداً ونشأة جديدة .

فلا تأخذ الصورة التى عندك فى الدنيا فتقول أنها ستكون معى أيضاً فى الآخرة ، نعم ستكون معك إنْ كانت من أهل الجنة ، لكنها ستكون على صورة أخرى مُنقاة مُطهرة مما كان يشوبها فى الدنيا ، خالية من كلّ ما لا يعجبك منها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. ١٥﴾ [آل عمران] مثل واحد صاحبنا كنا نتكلم فى قوله تعالى : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ٥٦﴾ [يس] فقال : آه يعنى فلانة ستكون معى حتى فى الجنة ؟ فقلت له : نعم لكن بعد أنْ يُطهرِّها الله من الذى لم يعجبك فيها فى الدنيا .

ومعنى :﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦﴾ [الواقعة] يعنى : كل ما الواحد يعمل العملية يجدها بكراً فلا يزهد فيها ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧﴾ [الواقعة] عُرباً جمع عَرُوب وهى المرأة المتحبِّبة لزوجها ﴿أَتْرَابًا ٣٧﴾ [الواقعة] أى : فى سن واحدة ، وهذا يعنى أن العين لا تمتد إلى غير الزوجة .

وقوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ٤٠﴾ [الواقعة] يعنى : هذه المرتبة وهم أصحاب اليمين منهم كثرة من الأولين وكثرة من الآخرين ، فهم متساوون هنا وهنا ، أما فى المرتبة الأعلى وهم السابقون فكانوا كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين .

ثم يُحدِّثنا عن الصنف الأخير والعياذ بالله :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ[1] وَحَمِيمٍ (٤٢)
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ[2] (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ[3] ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩)
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ﴾

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتبهم بالشمال والعياذ بالله ، وقال هنا أيضاً : ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) ﴾ [الواقعة] تعجباً من حالهم ، وأن ما يُقاسونه من ألوان العذاب يفوق الوصف .

فهم ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) ﴾ [الواقعة] أى : مظروفون فى سَمُوم وحميم . والسَّموم ريح شديدة الحرارة تخترق مسام الجسم ، والحميم الماء الذى بلغ غاية الحرارة .

---

(١) سموم : الريح الحارة المؤذية التى تؤثر فى الأجسام كأنها مادة سامة تنفذ فى المسام . [القاموس القويم ١/٣٢٩] والسموم أيضاً نار جهنم قال تعالى : ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الطور] .

(٢) كريم : فيه قولان :

الأول : لا بارد المدخل ، ولا كريم المخرج . قاله ابن جريج .

الثانى : لا كرامة فيه لأهله . ويحتمل ثالثاً : أنه يريد لا طيب ولا نافع . [تفسير الماوردى - آية ٤٤ الواقعة] .

(٣) الحنث : الذنب والإثم . [القاموس القويم ١/١٧٥] وقيل : هو الشرك لأنه أعظم الذنوب .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) ﴾ [الواقعة] اليحموم : دخان أسود شديد الحرارة ، فإذا رأوْه ظنّوْه ظلاً فإذا به نار تحرقهم ، ثم يصف هذا الظل بأنه ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) ﴾ [الواقعة] لأن الظل عادة نأمل فيه أنْ يكون بارداً لطيفاً يحمينا حرارة الشمس ، وكريم يُكرم فيه الإنسانُ ويستريح ، أما ظل هؤلاء والعياذ بالله فيظلهم الدخان الملتهب .

ثم يجيب القرآن الكريم على هذا السؤال : لماذا فعل الله بهم هذا ؟ فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) ﴾ [الواقعة] أى فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، فقال فى السابقين : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

كذلك أصحاب الشمال يواجهون هذا المصير لأنهم كانوا فى الدنيا مترفين ، والترف فى ذاته ليس ذنباً ، أما هؤلاء فقد قصروا الترف على أنفسهم ولم يعدوه إلى غيرهم ، بل بخلوا به على الناس الذين لا ترفَ عندهم ، ولا يؤدون حقّ الله فيما أترفوا به ، هذا هو المترف .

أما الذى يؤدى حقّ الله وينفع بترفهه الغير فلا يُعَدُّ مُترفاً لأنه بترفه يحقق للآخرين شيئاً ضرورياً ، فالذى يجدد فى منزله أو يغير أثاث بيته لا يُسمّى هذا ترفاً لأنه أخرج من ماله للنفع العام ، وحقق ضرورة للطبقات الأدنى التى تنتفع من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة] الحنث : الذنب والمعصية والمخالفة التى تُوقع صاحبها فى الإثم . وقالوا الحنث : الشرك لأنه وصف بالعظيم ، والشرك أعظم الذنوب .

إذن : جمعوا بين الترف والنعمة ومعصية المنعم سبحانه وتعالى

بقمة العصيان وهو الكفر به سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم]

بل وأعظم من ذلك ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة] فينكرون البعث لأنهم ما قدَّموا شيئاً ينفعهم فى هذا اليوم ، فلو حدث البعث والحساب فعاقبتهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ ينكروا البعث ، أو لو كان البعث فى بالهم ما تجرأوا على المعصية ، وما وقعوا فى الكفر والشرك .

فردَّ الله عليهم بما يؤكد لهم هذه الحقيقة التى ينكرونها ، فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة] وقد سبق أن أكدها فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الواقعة]

لذلك قال مسروق [(١)] رضى الله عنه : مَنْ أراد علم الأولين والآخرين ، والدنيا والآخرة والثواب والعقاب فليقرأ سورة الواقعة .[(٢)]

ويُروى أن سيدنا عثمان رضى الله عنه بلغه شىء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقطع عنه عطيته ، فلما مرض ابن مسعود ذهب إليه عثمان يعوده ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : أشتكى ذنوبى -

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الوادعى ، أبو عائشة ، تابعى ثقة من أهل اليمن . وقدم المدينة فى أيام أبى بكر وسكن الكوفة وشهد حروب على ، وكان أعلم بالفتيا من شريح . توفى ٦٣ هـ / ٦٨٣ م (الأعلام للزركلى ٧/٢١٥) .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (كلام مسروق ٩) : « من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة » . وأورده القرطبى فى تفسيره وكذا ابن عادل فى تفسير اللباب وإسماعيل حقى فى تفسيره .

وهذا حال الذين يعيشون بالله ومع الله - فلم يقل : أشتكى رأسى ولا بطنى ، فقال : وماذا ترجو ؟ قال : أرجو رحمة ربى ، فقال له : نُرجع لك العطاء الذى كان لك ؟ فقال : منعته عنى وأنا صحيح ، وتريد أنْ تعطينى إياه وأنا أحتضر ؟ فقال : يكون لأولادك ، فقال : ليسوا فى حاجة إليه لأنى علَّمتهم سورة الواقعة ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه فاقة أبداً » .(1)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ(2) ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ أكَّد لهم الحق سبحانه أنهم مبعوثون ومجموعون ليوم معلوم ، أخذ يُبيِّن لهم جزاءهم فى هذا اليوم . وشجرة الزقوم فُصِّل القول فيها فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان]

---

(1) أخرجه البيهقى فى شُعب الإيمان (٢٣٩٦ ، ٢٣٩٧) مختصراً بلفظ « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » . وقد أورده القرطبى فى تفسيره بطوله وعزاه لأبى عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبى أيضاً . وكذا النسفى فى تفسيره (٣/٣٩٦) .

(2) شرب الهيم : الهيم : جمع أهيم أو هيماء وهى الإبل الظماء . هام البعير : اشتد عليه الظمأ فإذا رأى إناء اندفع إليه فأكثر من شربه . [القاموس القويم ٢/٣١٢] .

وقال عنها : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

يريد أن يُبشِّع منظرها ، فشبَّهها بشيء فظيع لم يره أحد وهو رؤوس الشياطين ليذهب الناس في تصور بشاعتها كل مذهب ، ولو شبَّهها بشيء بشع معلوم للناس لوقفوا عنده في بشاعته ، وسبق أنْ أوضحنا أننا لو أعلنَّا عن مسابقة بين الرسامين لرسم صورة للشيطان فسوف يتقدم كلٌّ رسام بصورة بشعة تختلف عن التي يقدمها غيره ، ويمكن أنْ نجمع ملايين الصور البشعة للشيطان ، فلكلٍّ رسام تصوّره في البشاعة .

لذلك شبَّه القرآن شجرة الزقوم وهي شيء مجهول برؤوس الشياطين ، وهي أيضاً مجهولة على خلاف العادة في التشبيه ، وهي أنْ نشبه مجهولاً بمعلوم . وقلنا : إن الإبهام هنا هو عين البيان ، كما أبهم وقت الموت وقيام الساعة .

ومعنى : ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾[الواقعة] دليل على أنه لا طعام لهم غيره يملأون منه بطونهم ، وهذا لون آخر من العذاب أن تمتلئ بطونهم منه ، هذا عن الطعام ، فماذا عن الشراب والعياذ بالله ؟ ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)﴾ [الواقعة] والحميم هو الماء الحار الذي تناهى حَرُّه وبلغ الغاية .

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)﴾[الواقعة] الهيم : الإبل العطاش التي تشرب بكثرة ولا تروى . إذن : يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، ثم يحتاجون للشراب الذي يُلطف حرارتها فيسقون الحميم ، وأيضاً يشربون منه ملء بطونهم ، وفي آية أخرى قال عن الحميم :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد]

وبعد هذا العذاب يُوبِّخهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾ [الواقعة] لأن النُّزُل ما أُعدَّ لاستقبال الضيف وألوان الطعام والشراب ، فقال هنا ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ .. (٥٦) ﴾ [الواقعة] على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية منهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[1] (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

مسألة الخَلْق مُسلَّم بها لله وحده ولم يدَّعها أحد ، لذلك عبَّر عنها بهذا الأسلوب المؤكد ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ .. (٥٧) ﴾ [الواقعة] فقصر الخلق عليه سبحانه ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾ [الواقعة] يعنى : إذا قلتُ لكم هذه الحقيقة فلا تُكذّبوا بها ولا تُصدِّقوا المضلين الذين يُحدِّثونكم عن عملية الخَلْق ، لأنهم كاذبون .

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[2] (٥١) ﴾ [الكهف] وقلنا : إن الدعوى تثبت

(١) مَنَى وأمنى : قذف من فرجه الماء الذى يتكوَّن منه الجنين ولو فى الحلم وهو نائم ويسمى الماء منياً . [القاموس القويم ٢/٢٤١] .

(٢) عضداً : أعواناً . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه . وفلان يعضد فلاناً أى يعينه . [لسان العرب - مادة : عضد] .

لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، ولم يعارض أحد فى مسألة الخَلْق حتى الكفار ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾[الواقعة] هذه مرحلة من مراحل الخَلْق ، الذى بدأ أولاً من طين ، كما أوضحت الآيات التى فصّلت مراحل الخلق : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ (١)مَّهِينٍ (٨) ﴾ [السجدة] فالمرتبة الأولى كان خَلْق آدم عليه السلام من الطين ، والمرتبة الأخرى خلق ذريته من ماء مهين .

وأنتم تشاهدون عملية التناسل التى تتم بالتقاء الذكر والأنثى ، فخذوا منها دليلاً على صدقى فى الأولى ، لذلك قال : ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾ [الواقعة] أى : فى وجودكم بالتناسل . وكلمة ﴿ فَلَوْلا .. (٥٧) ﴾ [الواقعة] للحضِّ والحث والعرض .

لذلك يُحدِّثنا هنا عن هذه المرحلة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾ [الواقعة] والمنى هو ماء الرجل الذى يُقذف فى رحم المرأة والذى يكون منه الجنين .

وفى موضع آخر قال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) ﴾ [النجم]

فالنطفة هى الجرثومة التى يكون منها الإيجاد ، والمنى هو

---

(١) ماء مهين : ماء ضعيف . قاله مجاهد . [قاله الماوردى] وقال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « ممتهن لا يُعتنى به وهو المنى » .

السائل الذى تعيش فيه النطفة . الحق سبحانه يقول : أرأيتم هذه النطفة التى لا تكاد تُرى ، أأنتم تخلقونها بشراً سوياً مكتملاً ، أم نحن الخالقون ؟

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝ ﴾[الواقعة] والاستفهام هنا للتقرير ، فليس هناك إلا جواب واحد هو أن الخلق لله وحده ، ولو كنتم أنتم الخالقين ما اشتكى أحد منكم من هذه المسألة وأنه لم ينجب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [الواقعة]

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن الخَلْق والإيجاد من عدم ، يقول لنا : إياكم أنْ تَغْترّوا بأنْ أوجدناكم فى أحسن تقويم ، فالذى وهبكم الحياة قادر على أنْ يسلبها منكم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ ﴾ [الملك] فذكر الموت أولاً لنستقبل الحياة بلا غرور ، فالقوى لا يغتر بقوته وجبروته ، والغنى لا يغتر بغناه ، واذكر دائماً أنك ستموت ، لذلك قبل أنْ نستقبل الحياة استقبلنا الموت .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ..۝ ﴾[الواقعة] لا يغلبنا أحد ، ولا يمنعنا أحد أن نأتى بخَلْق جديد غيركم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ ﴾[إبراهيم] وواقع الحياة يؤيد ذلك فقد خلقتُ قبلكم الجن ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾[الواقعة] أى : نخلقكم على صورة أخرى قبيحة بعد أنْ كنتم فى أحسن تقويم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ ..﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة] أى : الخَلْق الأول ، وهو خَلْق آدم عليه السلام من طين واستدللتم على صدقها بما شاهدتموه من النشأة الثانية أى الخَلْق بالتناسل ، وما دُمتم علمتم هذا ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة] أى : هلاَّ تذكرون قدرة الله وتجعلونها دائماً على بالكم . وقالوا : النشأة الأولى أى : خَلْقكم الأول فى الحياة الدنيا .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾
لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بعد أن حدثنا الحق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان يحدثنا عن خلق النبات ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الواقعة] والحرث مكان الزرع واستنباته ، لأن الفلاح قبل أنْ يبذر البذور يحرث الأرض ليُقلِّب التربة فيتخللها الهواء وتزيد خصوبتها ، فمن الأرض خُلِق الإنسان الأول آدم ومن الأرض خلق النبات .

والحق سبحانه يسألنا وهو أعلم ، فالسؤال إذن سؤال تقرير ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] فترك الحرث وذكر الزرع ، لأنه هو المراد والهدف من عملية الحرث .

الحق سبحانه يوضح لنا قدرته فى هذه المسألة فلا أحدَ يدَّعى أنه يُخرج هذا الزرع من الأرض ، فهى عملية خَلْق لم يدَّعها أحد .

وبعد أنْ ينمو الزرع ويزهر ، هل تقدرون على حمايته ؟

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] فتاتاً وهشيماً تذروه الرياح ولا تنتفعون منه بشيء . إذن : أتى للإنسان بالحياة وما ينقضها من الموت ، ثم أتى بحياة النبات وذكر ما ينقضها من جفافه وجعله فتاتاً لا فائدة منه .

لذلك لما مثّل للحياة الدنيا قال سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ..(٤٥)﴾ [الكهف]

إذن : إياك أنْ تغترّ بزرعك وجماله ونضرته ، فنحن في الحقيقة الزارعون ، ونحن القادرون على الذهاب به ، فكلُّ دورك أيها الإنسان أنْ ترمي البذرة في الأرض ، ولا دخلَ لك بعد ذلك في عملية الإنبات وما فيها من إعجاز وقدرة هي لله وحده .

ونحن نرى محصول القطن مثلاً يزدهر ويُبشِّر بدخل وفير ، وفجأة وقبل أنْ يستوي للجني تأتيه آفة فتقضي عليه ولا يستطيع أحدٌ منعها ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] تنظرون في تعجُّب ماذا حدث ؟ وكيف أخذ المحصول بهذه السرعة وتقولون : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)﴾[الواقعة] زرعنا ولم نحصد [1] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾[الواقعة] محرومون من ثمرة زرعنا .

---

(١) قال الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرم ، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض أي : غرمنا الحَبَّ الذي بذرناه . [تفسير القرطبي ٩/٦٦٢١] .

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

بعد أنْ تحدَّث عن الطعام يتحدث عن الماء ، وهما العمدة فى مقوِّمات الحياة : الغذاء والماء ، وسبق أنْ أوضحنا أن مقومات الحياة ترتب بحسب الحاجة إليها ، فأولها الهواء ثم الماء ثم الغذاء ، فالهواء تحتاجه كل لحظة ولا تصبر على منعه عنك ، لأنه لو مُنِع عنك نَفَس واحد تموت .

لذلك من حكمة الله تعالى أنْ جعله مشاعاً لا يملكه أحد ، ثم تصبر على الماء حتى عشرة أيام ، لذلك فى العادة والغالب تجد الماء مجاناً وقلما تملَّكه الناس ، أما الطعام فيمكن أنْ تصبر عليه حتى شهر ، لأنك لو مُنِع عنك الطعام يتغذَّى الجسم على المخزون فيه من الدهون .

ونلاحظ على الأسلوب هنا أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن الحرث والزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة] بلام التوكيد ، أما فى الحديث عن الماء فقال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة] بدون توكيد للفعل جعل ، قالوا : لأن الإنسان له دَخْل فى عملية الزرع ، حيث يحرث ويبذر ويجنى .

أما الماء فلا دخل لأحد فيه ، فعملية إنزال المطر خاضعة لقدرة الله وحده ، ومَنْ يقدر على إنزال قطرة واحدة من المطر ؟ ولك أنْ

---

(١) المزن : السحاب . وقيل : السحاب الأبيض . [القاموس القويم ٢/٢٢٥] .

تتصوَّر المعاناة والتكلفة التى يتحملها مثلاً الصيدلى فى تحضير كوب واحد من الماء المقطر .

لذلك قال سبحانه ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾ [الواقعة] ولأن الإنسان لا دخلَ له فى عملية إنزال المطر ولا شبهة فيه كما فى الزرع . قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] أى : مالحاً لا تنتفعون به ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾[الواقعة] حضٌّ أيضاً على الشكر لهذه النعم التى تُساق إليكم ولا تدرُون بها .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ[1] (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

معنى ﴿ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ﴾[الواقعة] توقدون من أورى الزناد، يعنى قدحه لإشعال النار ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾[الواقعة] كان أصل النار الخشب الذى يُؤخذ من الأشجار ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣) ﴾[الواقعة] تذكرة باقية لكم .

ألا ترى أن الحق سبحانه ذكر النعمة وما ينقضها ، فبعد أن تكلم عن خَلْق الإنسان قال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ .. (٦٠) ﴾ [الواقعة] وبعد أنْ تحدَّث عن الزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة]

---

(١) المقوين : قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ، سموا بذلك لنزولهم القُوى وهو القفر . قال الفراء : إنما يقال للمسافرين مقوين إذا نزلوا القيَّ وهى الأرض القفر التى لا شىء فيها . [تفسير القرطبى ٦٦٢٣/٩] .

وبعد أنْ حدثنا عن الماء قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

أما فى الحديث عن النـار والعياذ بالله فقد تركـها بدون أنْ يذكر ما ينقـضها ، إنما قـال بعدها : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة] جعلهـا هكذا قائمة لـتكون تذكرة لكم ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقـعة] المـقوى هو الرجـل المســافر الـمنقطع عن وطنه ، ويريد أنْ يشــعل النار يستدفىء بها .

وبعد كل هذه النعم لم يبْقَ إلا أنْ نشكر الله علـيها ، وأول الشكر أنْ تقـول : سبـحان المنعم عـلينا بكلِّ هذه النعم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[الواقعة] لذلك دائماً مـا نرى كلمة سبحـان الله بعد كل أمر عجيب ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم]

لذلك قال العلمـاء : منْ قال عند النعمـة سبحان الله مـاشاء الله لا قوة إلا بالله لا يرى فيهـا مكروهاً ولا تُصيبها آفة لأنك نسـبت النعمة لواهبها فهـو يتكفّل بها ، كالصانع الذى يبيعك سلعـة ، ويعطيك معها شهـادة ضمان كـذا سنة ، وإذا أعطاك الحق سبحـانه شهادة ضـمان فهى مفتوحة غير موقوتـة .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ .. (٧٥) ﴾[الواقعة] بمعنى الإثبات أقسم بمواقع النجوم ، والمستشرقون لم يفهموا هذا المعنى لذلك اعترضوا على الآية وقالوا : كيف يقول لا أقسم ثم يأتى بعده بجواب القسم ، كأن القسم موجود .

ولبيان هذه المسألة نقول : القسم يمين ، لذلك فى إثبات الحقوق يقولون : البينة على المدعى واليمين على مَنْ أنكر ، فإذا عزَّتْ البينة نلجأ إلى اليمين . إذن : لا يتأتى اليمين أو القسم إلا للتأكيد وفى حالة وجود إنكار .

فحين تسأل مثلاً : هل محمد فى البيت ؟ يقول لك : نعم ، ولا يقول مثلاً : والله العظيم محمد فى البيت لأنك لا تكذّبه ولا تنكر عليه . فإنْ رأى منك ذلك أكّد لك الكلام بالقسم فقال لك : والله العظيم كذا وكذا .

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ[1] النُّجُومِ (٧٥) ﴾[الواقعة] أن المقسم عليه واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى بينة ، ولا إلى تأكيد وقسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ بما أقول ، لا أقسم بكذا وكذا .

ولك أنْ تتأمل القسم الذى جاء منفياً هكذا وفى جوابه ، فسوف تراه أمراً واضحاً لا يحتاج فى إثباته إلى قسَم مثل : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا

(١) هناك قراءة أخرى فى هذه الكلمة (بموقع) وهى قراءة حمزة والكسائى وعبد الله بن مسعود والنخعى والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب . أما الباقون فهى على الجمع (بمواقع). قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٦٢٥) : « فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه » .

الْبَلَدِ ① ﴾ [البلد] وتوكيد الشيء الواضح الذى لا يحتاج إلى قسم يدعو إلى الشك فيه ، فلا يصح أنْ يؤكد .

ومواقع النجوم المنازل التى تسير فيها ، وهذا خَلْق من خَلْق الله ، فيه ما فيه من الإعجاز ومن الأسرار ، ثم إن الحق سبحانه يُقسم بما يشاء من مخلوقاته على ما يشاء ، لأنه تعالى الأعلم بهذه المخلوقات .

وفى موضع آخر قال عن النجم : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⑯ ﴾ [النحل] والنجم حين يُشرق له أسرار ، وحين يغرب أو يهوى له أسرار نحن لا نعلمها ، لكن ربّ النجم يعلمها .

ويكفى لنا هذه الإشارة ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ⑯ ﴾[الواقعة] خذوا بالكم وانتبهوا فلكم فوائد كثيرة فى مواقع النجوم أنتم لا تعرفونها ، وعدم معرفتك للشيء لا تقدح فى أنك تستفيد به وتنتفع بحركته .

فالفلاح مثلاً لا يعرف شيئاً عن كيفية عمل (التليفزيون) ، ولا عن كيفية بَثِّ الإرسال ، ومع ذلك يفتح (التليفزيون) وينتفع بما يقدمه لو كان نافعاً .

فالمعنى : لو تعلمون أسراره وفوائده لكم لوجدتموه عظيماً ، ونحن نرى بعض المهتمين بحركة النجوم والبحث عن أسرارها يقولون بارتباط ما بين النجم والإنسان .

فلكلِّ إنسان منا نجمه فى السماء الذى يُشبهه ، فهناك نجوم ساطعة للمشاهير ، ونجوم دون ذلك ، ونجوم بعيدة لم يأتنا ضوؤها بعد ، لذلك يستخدمون تعبير : فلان هوى نجمه . يعنى : أَفَل وانتهى

دوره كناية عن نهاية الشخص .

ثم يأتى جواب القسم أو المقسم عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) ﴾ [الواقعة] أى : هذا الكتاب الذى بين أيدينا كريم ، ونشعر هنا بمناسبة ، فالمقسم به النجوم والمقسم عليه أيضاً نزل مُنجماً على مراحل . إذن : ذكر النجم السماوى ومعه النجم القرآنى .

ووصف القرآن بأنه كريم ، لأن الكريم هو الذى يعطى ما عنده ولا يبخل عليك ، كذلك عطاء القرآن للأجيال المتعاقبة عطاء واسع لا ينتهى وفيض لا ينضب أبداً .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) ﴾ [الواقعة] محفوظ مُصان فى اللوح المحفوظ ، ومحفوظ فى الصدور ، ولمكانته وعلو شأنه ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] مطهرون طهارة حسِّية من الحدث ، ومطهرون طهارة معنوية من التحريف والتدليس .

وختام هذه الصفات أنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة] فهو منسوب فى نزوله إلى رب العالمين الكريم للمؤمن والكافر ، واختيار صفة رب العالمين تدلنا على أن القرآن كتابٌ لكل العالمين .

فالذى نزّله ربّ العالمين الذى يعلم أحوال العالمين وما يصلحهم ، فهو خالقهم وأعلم بهم ، وقرآنه بالنسبة لهم هو كتالوج الصيانة الذى يحميهم ويحفظ سلامتهم بالمنهج ، فالذى خلق هو الذى أنزل هذا المنهج .

لذلك خاطب آدم وحواء بعد تجربة الأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

لذلك قلنا : لو سار العبد على منهج ربه وخالقه ما أصابه عطب أبداً ، وإذا رأيتَ فى رحلة حياتك (زرجنة) فقف وانظر ماذا أحدثتَ من خروج على منهج ربك ، وكان أحد الصالحين يقول : إنى لأجد أثر المعصية فى خُلق زوجتى ودابتى ، نعم مجرد أنْ (تحرن)[1] منه دابته يقول : ماذا فعلتُ ؟ والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١)﴾ [الرعد]

والذى يدلنا على أن النجم المقصود هو النجم القرآنى الذى تنزل به الآيات أنه تعالى أقسم به أى بالقرآن : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾[الواقعة] والكريم هو الذى يبذل الخير من عنده وعلى مقدار صفته فى الكرم ومدى استدامته .

ومن كرم القرآن أن عطاءه ممتد فى كل نواحى الحياة مادية ومعنوية ، ففى الزراعة والصناعة والاقتصاد والهندسة وفى اللغة والحكمة والقيم . ومن كرمه أنه لا يعطى عطاءه دفعة واحدة ، لأنه ما جاء لزمن بعينه إنما جاء للزمن كله إلى قيام الساعة .

ولو أن القرآن أفرغ عطاءه فى قرن واحد لاستقبلته بقية القرون بلا عطاء ، ونفهم هذا من السين فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ..(٥٣)﴾ [فصلت] إذن : عطاء مستمر ومتجدد ، لأن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

ومن معانى الكريم أنه الشىء النفيس . ومنه قولنا حجر كريم . أى : هو فى ذاته كريم ، لذلك قال بعدها : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ

---

(١) حرنت الدابة : التى إذا أريد جريها وقفت . وفرس حرون : لا ينقاد إذا اشتد به الجرى وقف . [لسان العرب – مادة : حرن] .

(٧٨) ﴾ [الواقعة] لأن الشيء النفيس لا بد أنْ يُحفظ في خزانة تصونه .

فالقرآن مصون ومكنون عن أن تمسه إلا يد مطهرة ﴿ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] هم الملائكة ، والمطهر هو الذي طهَّره غيره ، فلم يقل المتطهرون ، لذلك يستدل بهذه الآية الفقهاء الذين يذهبون إلى جواز لمس المصحف للمحدث ، لأن المتطهر هو الذي يُطهر نفسه .

وهذه وردت في مسألة الحيض : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فمعنى : (يطهرن) يعني : يمتنع دم الحيْض ، ومعنى (تطهرن) يعني : اغتسلن ، إذن : يطهرن جاءت من الغير لأن قطع الحيض من الله ، على خلاف التطهر بالاغتسال .

أما الذي اشترط الوضوء لمسِّ المصحف فقد نظر إلى الآية نظرة عامة ، ليبين أن المصحف ليس كأيِّ كتاب آخر إنما له قداسة في التناول ، لذلك يقول : أخذتموه من مُطهَّرين فلا تلمسوه إلا متطهرين .

إذن : وصف القرآن هنا بأوصاف ثلاثة أنه كريم ، وأنه محفوظ في كتاب مكنون ، وأنه لا يمسُّه إلا المطهّرون ، يريد أنْ يقول سبحانه خذ هذا الكتاب بعناية ففيه عطاء لا ينفد ، ووصلك بأمانة كما أُنزل من الله ، فحافظ عليه حتى من أنْ يمسه غير مطهر .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة] هذه حيثية الأحكام المتقدمة كلها ، فهو كتاب كريم ولا يمسُّه إلا المطّهرون لأنه تنزيل من رب العالمين . ورب العالمين يعني ربوبية وعطاء الربوبية للكافر وللطائع وللعاصي ، فهو قرآن كريم في عطائه من رب كريم يعطي عبده العاصي ولا يحرمه رغم عصيانه .

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (١) ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

كلمة (الحديث) يراد بها القرآن ، قال تعالى :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] والحديث ما يتحدَّث الناس به ، والحديث الشيء الطارىء الجديد وقلنا : إن القرآن يعطينا كل يوم جديداً ، لذلك لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد(٢).

ومعنى : ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الواقعة] جمع مدهن ، وأصله الذى يأتى بدهان ويدهن الشيء ليلتصق بغيره ، ومعناه الملاينة والمصانعة ، وهنا بمعنى الشكِّ والتكذيب والاستهانة بهذا الحديث وهو القرآن .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله تعالى . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا . فنزلت هذه الآيات ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة] حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] أورده الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول) ص ٢٢٩ وعزاه لمسلم .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفعه إلى رسول الله ﷺ : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » .

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾[البقرة] وفى سورة القلم قال تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم] أحبّوا أنْ تلاينهم وتصانعهم .

وقال تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة] أى : تجعلون نصيبكم وحظكم من الدنيا أنْ تكذِّبوا بهذا الكتاب ، والرزق الذى ساقه الله إليكم تجعلونه وسيلة تكذيب لمنهج الله بدل أنْ تشكروا الرازق سبحانه الذى خلقكم من عدم ، وأمدكم من عُدْم .

فصدق فيهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

ثم يذكر هؤلاء المكذبين بنهايتهم التى لا مفر منها : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة]

الضمير فى ﴿بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة] ليس له عائد لأنه معلوم للجميع وهو الروح ، كما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس . وكما فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾[فاطر] والمراد ظهر الأرض لأنه معلوم بداهة . صحيح أن الضمير لا يعود إلا على اسم ظاهر ، لكن إذا اتضح أمره واشتهر يمكن أنْ يعود على غير مذكور لأنه ما حُذف إلا للعلم به .

وبلوغ الروح الحلقوم يعنى الاحتضار ، فاذكروا أيها المدهنون

---

(١) دار البوار : دار الهلاك وهى النار . يبور : يبطل ويزول ولا يؤدى الغرض منه . [القاموس القويم ١/ ٨٩] .

هذا الموقف ، ماذا ستفعلون فيه ، وهل ستكذبون أيضاً فى هذا الموقف ؟

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الواقعة] تنظرون إليه وهو يحتضر فلا تملكون له شيئاً ، ولا تدفعون عنه الموت ، لأن الموت من الأمور المملوكة لله تعالى ليس لأحد فيها اختيار .

كلمة ﴿ فَلَوْلا ..﴿٨٦﴾ ﴾[الواقعة] حرف يفيد الحضّ والحثّ مثل هلاّ فعلت كذا . والحلقوم : أول القصبة الهوائية ، وهى موضع خروج الروح ، فقالوا أنها لا تخرج من القناة الهضمية ومجرى الطعام ، إنما تخرج من مجرى النفَس لأنه الأهم فى حياة الإنسان ، كما سبق أنْ رتّبنا أولويات الطعام والشراب والهواء . وقلنا : إن أهمها الهواء لذلك لا يصبر الإنسان على منعه أبداً ، ولو منعك النفَس لشهيق أو زفير تموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الواقعة] أى : فى هذا الموقف وفى وقت حشرجة الروح والنزع الأخير فى الوقت الذى لا حيلة لكم فيه نكون نحن أقرب إليه منكم ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة]

هذه الكلمة ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الواقعة]حلت لنا إشكالات متعددة ، لأن البعض يفهم مسألة معية الله فى مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] و ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ..﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] أنها معية علم ، ولو كانت كذلك ما قال سبحانه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة]

إذن : هى معية حقيقية ولو كان عندكم بصر حديد يُمكّنكم من الرؤية لرأيتم ، فلم لا يتسع التصور فى المعية بدون تحيُّز ، ولك فى

نفسك مثال : فالروح التى تدير حركة حياتك كلها ، هل تعلم أين هى من جسمك ؟

إذن : أنت لا تدركها وهى فيك ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى الذى يدير هذا الكون كله ، فمعية الله بذاته التى ليستْ كالذوات ، فإذا كنتَ لا تدرك مخلوقاً لله فهل تطمع فى أنْ تدرك معية الله لك ؛ إذن فمخلوق لله لا يُدرَك ، فكيف تريد أن تدرك من خلق ما لا يُدْرَك !!

﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة] يعنى : فهلا ترجعونها أى الروح ، وهل لكم قدرة على ذلك ، والحال : أنكم بالفعل مدينون لنا وفى قبضتنا ، وأنكم مملوكون لنا ولا قدرة لكم على إرجاع هذه الروح التى قضينا بخروجها ، إذن : أنتم فى قبضة القدرة وإنْ كنتم خُلقتم مختارين .

ومعنى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة] أى : فى زعمكم بعدم وجود بعث وحساب .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ(١) وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) ﴾

حدَّثتنا السورة فى بدايتها عن هؤلاء الثلاثة ، وفى نهايتها يذكر

---

(١) الرَّوْح : الرحمة . وقال الزجاج : معناه فاستراحة وبرد وتأويل الروح بالرحمة قال تعالى : ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ (٨٧) ﴾ [يوسف] أى من رحمة الله ، سماها روحاً لأن الروح والراحة بها . والرَّوْح أيضاً : السرور والفرح . والروح : برد نسيم الريح . [لسان العرب مادة روح بتصرف] .

الحق سبحانه موجزاً جزاء كل نوع منهم ، فأولهم وأعلاهم درجةً هم السابقون أو المقربون . وقلنا : إنهم مُقربون من الله ومن الجنة ، وهم الذين بادروا بطاعة الله وداوموا عليها ولم يُدنسوا أنفسهم بمعصية فنالوا هذه المنزلة .

وجزاؤهم : (فروح) ، قالوا : يعنى رحمة من الله وسرور بنعمة الله . والرحمة تتناسب سعتها وعلوها بقدر الراحم ، فإذا كانت الرحمة من الله فهى رحمة لا حدود لها .

﴿ وَرَيْحَانٌ .. (٨٩) ﴾ [الواقعة] نبات أخضر غضّ طرى له رائحة طيبة ، وهو نبات معروف ، وقد ورد فى قوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[١] وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن] لكن ريحان الجنة شيء آخر غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ذلك ، فقال عن الجنة ونعيمها : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[٢] .

ومعلوم أن ما رأتْ العين أقل مما سمعت الأذن ، لأن ما تراه العين محدود بقدرتها على الرؤية ، أما السمع فيسمع ما تراه العين وما لا تراه ويراه الآخرون ، فالأذن أوسع إخباراً ، وفوق ذلك

---

(١) العصف : التبن ، قال ابن عباس : العصف تبن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح ، وعن ابن عباس أيضاً : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه وييبس . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٥٦] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لا يخطر على القلب ولا يتصوره العقل ولا ورد على البال ، فما رأته العين موجود ، وما سمعته الأذن موجود ، لكن ما لا يخطر على البال هو شيء جديد لم نعهده ، ولا حتى يخطر لنا على بال من النعيم .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يعطينا وصفاً لنعيم الجنة لم يصف النعيم ذاته إنما وصف مثالاً له وكأنه فوق أنْ يُوصف بكلمات نعرفها نحن ، فقال سبحانه : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد]

والمتأمل فى نعيم الجنة يجد أنه يستوعب جميع حواس الإنسان ، ففيه متعة التذوق فى الطعام والشراب فى الفاكهة والماء والعسل واللبن ، وفيه متعة الرؤية فى رؤية الحور العين كاللؤلؤ المكنون ، ورؤية الغلمان الحسان وغيرها .

وفيه متعة اللمس فى لمس الحرير والإستبرق والسُّندس[(١)] ، وفيه متعة السمع ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾ [الواقعة] وفيه متعة الشم فى الريحان الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومعنى ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾ [الواقعة] النعيم ما تستطيبه النفس وتتنعم به دون ألم يتأتى منه منغصات ، فهو نعيم خالص لأنك قد تأكل الأكلة أو تشرب الشربة فى الدنيا وتتمتع ، وقد تجد لها لذة صحيح لكن بعد قليل تجد لها ألماً أو آثاراً غير مرغوب فيها .

---

(١) السندس : رقيق الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

لذلك قال سبحانه عن طعام الجنة ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] فهو هنيء فى تناوله له لذة ومتعة ومريء بعد ذلك لا يتعبك ولا تجد له منغِّصات .

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾ [الواقعة] أصحاب اليمين هم النوع الثانى ولم يُفصِّل القول فى النعيم الذى يجدونه ، واكتفى بأنْ يخبر عنهم بما يدل على النعيم فهم فى سلام ، يُسلِّم بعضهم على بعض ، كلّ فوج يُسلم على الآخر ، أو تُسلم عليهم الملائكة ، أو يسلم عليهم الحق سبحانه وتعالى كما قال فى (يس) :﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس] وتحت هذا السلام من الرب الرحيم تنطوى النعم .

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

هؤلاء والعياذ بالله أهل الشقاوة وجزاؤهم فى النار ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)﴾[الواقعة] النُّزل ما أُعِدَّ للضيف من قِرَى ، لذلك نسمى الآن الفنادق نزل ، فهؤلاء أُعِدَّ لهم الحميم طعاماً والحميم هو الماء الذى تناهى حَرُّه ، وأُعِدَّتْ لهم الجحيم يصلوْنَها ويُقاسُون حرارتها وآلامها .

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] وقلنا : فى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فهو أول مَنْ أثبتَ للعالم أن الجلد هو مركز الإحساس فى الجسم .

هذا نُزل الكافرين المكذِّبين ، ويقابله نُزُل المؤمنين وهو الجنة ، الذى وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾[فصلت] وللعاقل أنْ يقارن وأنْ يختار أىَّ النُّزُلين يريد .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) ﴾

قلنا : إن العلم على مراتب ثلاث : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين . وبعد أن ذكر الحق سبحانه نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة] أى : حين يباشرون نعيم الجنة ويدخلونها بالفعل ، وأهل النار يُقاسُونَ حرارتها بالفعل ، هذا هو حق اليقين وهو آخر مرحلة فى العلم .

وقد ذكرنا أن العلم درجات : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين ، وفى سورة التكاثر ذكر الأولى والثانية : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

فعلم اليقين حينما يخبرك الصادق بالخبر ، وعين اليقين حينما ترى بعينك ، وحقّ اليقين حينما تباشر الشىء بنفسك .

والحديث هنا عن المرحلة الأخيرة ، وهى يوم القيامة حينما يباشر أهل الجنة نعيمها ، ويُقاسى أهل النار عذاباتها ، والجزاء فى الآخرة جزاء عادل جزاء مَنْ لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولولا هذا الجزاء ما استقامت للناس حياة فى الدنيا .

فالعصاة والأشقياء الذين شَقِى بهم المجتمع وذاقَ الأمرَّين من تجاوزاتهم لا يمكن أنْ يستووا مع المؤمنين الذى سعد بهم مجتمعهم

وانتفع ببرِّهم وكرمهم وصلاحهم .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يَغار على خَلْقه ويغضب لهم ويحميهم من مراتع الهلكة ، وإلا فالحق سبحانه وتعالى الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لذلك كان على الخَلْق أنْ يستقبلوا الجزاء فى الآخرة بحمد الله وتسبيحه ، لأنه أسدى إليهم نعمة الجزاء فى الآخرة ولم يتركهم هملاً حتى النار وعذابها من نعم الله ، لذلك ختمت الآيات بهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : جاء التسبيح نتيجة لما ذكره الحق سبحانه من نعيم دائم للمؤمنين وعذاب مقيم للكافرين ، وهو يستحق منا أنْ نسبح الله أى نُنزِّهه سبحانه عن كل نقص ونُنزهه سبحانه عن مشابهة الخَلْق ، وأنْ نثبت له سبحانه كلّ صفات الجلال والكمال والجمال ، وأنْ نؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شيء .

والحق سبحانه يعطينا من واقع حياتنا آية تدلنا على ذلك فالتاريخ مليء بالجبابرة والعتاة مثل فرعون ومَنْ على شاكلته ، وقد وصل الحد بالناس إلى أنْ جعلُوهم آلهة من دون الله ، وقدموا لهم فروض الولاء والطاعة لكن لم يقُلْ لهم أحد أبداً سبحانك ، لأن هذا اللفظ لا يقال إلا لله وحده ، ولا يجرؤ أحد أنْ يقوله لغير الله .

كما قلنا فى لفظ الجلالة (الله) فمع وجود الكافرين والملحدين إلا أنهم لم يجرؤ أحد منهم على أنْ يُسمى هذا الاسم ، وما هذا إلا لأنهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن الله حَقٌّ ، وأنهم لو تجرأوا على هذا الاسم لأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، لذلك قال سبحانه ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم]

ومثل هذه الخصوصية وجدناها فى فريضة الصيام ، فالشهادة : لا إله إلا الله يمكن أنْ تُقال لبشر ، ويمكن أنْ نرى المنافقين والأفاقين يرفعون وينفخون فى أحد الطغاة الظالمين ويقولون له أنت ولا أحد بعدك ، كما قال فرعون ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص] وفى التاريخ مواقف مثل هذا كثيرة .

والصلاة يمكن أنْ تجد من يسجد لبشر مثله وينحنى له ، والزكاة كذلك نرى مَنْ يقيم الحفلات و(يرش) من أجل فلان ، والحج يأتى كل أسبوع مثلاً ويُوقِّع فى دفتر التشريفات إظهاراً للولاء والتبعية .

أما الصوم فلم نجد أحداً تعبّد به لأحد من البشر ، لذلك ورد فى الحديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[1] .

هذه مسائل ثلاث اختصّ بها الحق سبحانه نفسه ، ولا تكون إلا له سبحانه ، وهى دليل على طلاقة القدرة ، وعلى عظمة الذات العلية .

ومعنى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] أى : الذى لا تُستوعب عظمته ولا تُدرك ، ونحن نقولها فى كل ركعة فى ركوعنا (سبحان ربى العظيم) ومن جميل السَّبْك الأدائى فى القرآن أن السورة التى بعدها سورة (الحديد) تفتتح بقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] فكأن السموات والأرض وما فيهن استجاب لهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] فسبَّح .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٧١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة (سبحان) مصدر . وحين تقول سبحان الله تثبت له سبحانه أنه مُسبَّح قبل أنْ يوجد مَنْ يُسبحه منْ خلقه ، كما قلنا فى صفة الخلق ، فالله متصف بهذه الصفة ، وخالق قبل أنْ يخلق شيئاً من خَلْقه ، فبصفة الخَلْق فيه تعالى خلق .

كذلك هو سبحانه وتعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يوجد أحد يُسبِّحه ، وهو راحم قبل أنْ يخلق مَنْ يرحمه .

إذن : صفات الله تعالى صفات ذاتية فيه سبحانه ، كما نقول فلان شاعر . لا نقولها لأنه قال قصيدة ، بل قال القصيدة لأنه شاعر ، ولو لم يكُنْ شاعراً بداية ما قالها .

وكلمة (سبحان) أتتْ فى القرآن عدة مرات مضافة للاسم الظاهر ، أو مضافة لكاف الخطاب ، أو مضافة لهاء الغائب ، فمع الاسم الظاهر جاءتْ ثمان عشرة مرة فى ثمان عشرة سورة أولها فى سورة (يوسف) : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف] وآخرها فى سورة (القلم) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾ [القلم] فى قصة أصحاب الجنة .

ثم أول مصدر مضاف إلى كاف الخطاب فى سورة (البقرة) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا .. (٣٢) ﴾ [البقرة] وقد ورد بكاف الخطاب فى تسع سور ، وبهاء الغائب فى أربع عشرة سورة أولها فى سورة البقرة : ﴿ سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] هذه المواضع مع المصدر الذى يثبت الصفة لله تعالى أزلاً قبل أنْ يوجد من خلق الله مُسبح .

ثم بعد أنْ خلق الله الخَلْق من السموات والأرض وما فيهن من الملائكة ومن الإنس والجن وباقى الكائنات امتثلتْ أمر ربها بالتسبيح

فسبَّحتْ وما تزال ، لذلك وجدنا هذا الفعل فى القرآن بصيغة الماضى وبصيغة المضارع المستمر إلى يوم القيامة ، فهى منظومة دائرة فى الكون كله باقية ما بقى إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد]
وقال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]
ثم جاء بصيغة الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ [الواقعة] أى : ياأيها الإنسان لا تشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة وسبِّح أنت أيضاً .

والتسبيح أنْ نقول نحن العرب : سبحان الله ، وهذه لغة وألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، فكُلٌّ يسبح الله بلغته ، حتى الجماد والنبات والحيوان مُسبِّح بلغة يعلمها الخالق سبحانه ، وليس بالضرورة أنْ نعلمها نحن ، فإذا كنا لا نعلم كثيراً من لغات البشر فهل يطمع فى أنْ نعلم لغات المخلوقات الأخرى ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] وهذا يعنى أنها تُسبِّح على وجه الحقيقة بلغة خاصة لا تسبيح دلالة كما يقولون .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] وفى قصة سيدنا سليمان وجدنا للنمل لغة ، وللهدهد لغة وللطير لغة .

وقد امتنَّ الحق سبحانه على سيدنا سليمان عليه السلام ، فعلّمه هذه اللغة فعلمها وفهم عن هذه المخلوقات ما تريد ، فاللغة تقوم على التفاهم ، البشر يفهم لغة البشر ، والحيوان يفهم لغة الحيوان ، والنبات يفهم لغة النبات ، والجماد يفهم لغة الجماد .


سورة الحديد

سورة الحديد (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾

يعنى : ما من شيء موجود فى السموات ولا فى الأرض إلا يسبح لله تسبيحاً على الحقيقة بلغته التى خلقها الله فيه لا تسبيح دلالة (٢) كما يقولون بدليل ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] لذلك لما قالوا فى معجزاته ﷺ أن الحصى سبّح فى يده (٣)

(١) سورة الحديد سورة مدنية فى قول الجميع [قاله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩)] نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد . عدد آياتها ٢٩ آية ترتيبها فى المصحف الشريف (٥٧) .

(٢) قال الزجاج : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ۝٧٩ ﴾ [الأنبياء] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ نقله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩) وقال : « ما ذكره هو الصحيح » .

(٣) قال أبو ذر : جاء أبو بكر فسلَّم وجلس عن يمين رسول الله ﷺ ، إذ جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، إذ جاء عثمان وجلس عن يمين عمر رضى الله عنه ، فتناول النبى ﷺ سبع أو تسع حصيات فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن . أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (٤٧/١) .

ﷺ قلت : الصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، لأن الحصى مسبّح أياً كان حتى لو فى يد أبى جهل .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والعزيز الشىء النادر الذى ليس له مثيل ، فجمعتْ الآية المعنيين ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ..⑧⑧﴾ [المؤمنون] وهو أيضاً سبحانه ﴿الْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة وعلم ، حتى لا نأخذ العزة على أنها جبروت وبطش ، فهى عزة بحكمة وبقدر .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ②﴾

قلنا : فى مادة (ملك) أنها تأتى بالفتح مَلْك كما فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ..⑧⑦﴾ [طه] والمَلْك المقدرة والإرادة ، وتأتى بالكسر مِلك وتعنى أىّ شىء تمتلكه فهو مِلك لك ، وتأتى بالضم كما هنا مُلك ، والمُلْك أنْ تملك مَنْ يملك ، فالأرض مثلاً ملك للناس ، والله سبحانه له مُلك هذه الأشياء يملكها ويملك مَنْ يملكونها .

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من مخلوقات ، لذلك يقول فى موضع آخر :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ④﴾ [الشورى] فهو سبحانه يملك الظرف والمظروف فيه ، السماء فيها الملائكة ، وفيها ما فيها من كواكب ونجوم ومجرّات ومخلوقات أخرى ، والأرض فيها

الإنس والجن ، وأيضاً فيها الحفظة من الملائكة .

وعادة كما ذكرنا نجد أن المظروف أنفسُ من المظروف فيه ، فعلى قدر نفاسة المحفوظ يكون الحافظ ، فإذا كانت السموات والأرض فى ذاتها عظيمة ، وكلها آيات وعجائب ، فالمظروف فيها أعجب منها وأعظم .

ثم هناك فى مُلْك السموات والأرض الغيبيات التى لا نعرفها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٣)﴾ [هود] إذن : هذه مراحل ثلاث من ملك الله : له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما فى السموات والأرض ، وله غيب السموات والأرض .

وكل يوم نكتشف فى مُلْك الله جديداً فى السموات وفى الأرض لذلك تلفتنا الآيات إلى ذلك : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾[طه] ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ..(٢)﴾[الحديد] يُحيينا نحن ويُميتنا ، أحيانا أولاً لما خلقنا من عدم ، ثم يميتنا ثم يحيينا فى الآخرة .

والإحياء والاماتة له وحده سبحانه لا يشاركه فيها أحد ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصة الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وأنه ادعى الإحياء والإماتة فجادله سيدنا إبراهيم حتى كشف كذبه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وعندها أحسَّ سيدنا إبراهيم أن الرجل يريد الجدل ، فقطع عليه الطريق وأخذه إلى مجال لا جدالَ فيه ، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾ [الحديد] لايعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء ، فالذى أوجد من عدم أقدر على الإعادة ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ (١) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ ﴾ [ق] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧ ﴾ [الروم] وليس فى حقِّ الله هيِّن وأهون .

لكن الحق سبحانه يخاطبنا بما نفهم ، ويجارى الخصم حتى يقيم عليه الحجة ، لذلك قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ۝٢٥٨ ﴾ [البقرة] أى : غلبته الحجة فلم ينطق ببنت شفه .

فالحق سبحانه مالك الملك ، وبيده الإحياء والإماتة ، فأوجد من عَدَم وأمد من عُدْم ، وله قيومية تبقيه على ما هو عليه ، فلم يخلق الخَلْق ثم تركه هملاً ، إنما قائم عليه بقيوميته سبحانه .

لذلك قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ۝٤١ ﴾ [فاطر] وهذه قيوميته سبحانه : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١ ﴾ [فاطر] وهنا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾ [الحديد] يعنى : بقدرته يخلق ما يشاء ، يخلق من عدم بداية ، ويخلق من موجود ، وبقيوميته يحتفظ بخَلْقه كما خلقه .

والضمير (هو) للغائب لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : زارنى زيد فأكرمتُه . أى زيداً ، وهذا المرجع يُفهم من الكلام السابق

---

(١) اللبس : الشك . ولبس الشيء يلبسه : خلطه وعمَّاه وأبهمه وجعله مُشكلاً مُحيِّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

كما قلنا فى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس .

كذلك هنا ضمير الغائب لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، الذى لا يشاركه أحد فى الملْك ولا الخَلْق . ولا فى الإحياء والإماتة .

وقال سبحانه فى الأحدية : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾[الإخلاص] فلا يصح هنا أنْ نقول الضمير (هو) عائد على متأخر ، لا بل عائد على متقدم وإنْ لم يُذكر ، لأنه لا ينصرف إلا لله الإله الواحد الأحد ، الواحد الفرد الذى لا ثانى له ، والأحد فى ذاته ليس مُركباً من أجزاء بحيث يحتاج جزء إلى جزء .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

ما دام أنه تعالى هو الذى أوجد كل موجود ، فهو بالتالى ﴿الْأَوَّلُ ..(٣)﴾[الحديد] أى : قبل كل موجود ﴿وَالْآخِرُ.. (٣)﴾ [الحديد] الباقى بعد فناء كل موجود ، لذلك قلنا فى الثناء على الله : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، ولكن ذاك فى ذاك ، فقف أيها العقل عند منتهاك .

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .. (٣)﴾[الحديد] الظاهر لنا جميعاً ، والباطن أى المستور عنا جميعاً . فهو سبحانه ظاهر وباطن معاً ، ظاهر بآثاره وآياته فى الوجود التى لم يدَّعها غيره سبحانه ، والدَّعْوى تسلم لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وباطن بذاته : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] فالأبصار لا تدرك إلا المحدود بحدود المكان والله تعالى لا يحدّه زمان ولا مكان ، لأن الزمان والمكان خَلْق من خَلْقه تعالى ، لذلك لا يقال فيه متى ولا أين ، فمنه جاءت متى وأين .

وواقع الحياة يدلنا على أن الأبصار لا تُدرك إلا المشاهد ، فهناك معنويات وغيبيات كثيرة لا تدركها الأبصار وهى موجودة .

خذ مثلاً معنى العدل الذى به يقوم ميزان الحق والباطل . والعدل أساس الملك ، لكن هل رآه أحد ؟ هل شممته أو لمسْته ؟ لكن عرفناه بآثاره فى إنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم .

كذلك قلنا فى الروح هى موجودة بالفعل فى جسمك ، لكن هل تعرف أين هى منه ؟ فهل بعد ذلك نطمع فى أنْ نعرف أين الله ونحن خَلْق من خَلْقه وأثر من آثار قدرته تعالى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[الحديد] أى : لا يخفى عليه شىء ، فهو سبحانه يعلم الباطن كما يعلم الظاهر ، لأنه سبحانه الظاهر الباطن .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

فالذى سبّحتْ له المخلوقات هو الخالق لها ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. ﴿٤﴾ ﴾[الحديد] والكلام هنا عن مسألة الوقت

الذى استغرق ستة أيام ، وهو سبحانه لا يزاول الأشياء ، إنما يخلق بكُنْ فيكون ، لكن هناك شىء اسمه عمر التكوين وشىء اسمه مراد التكوين .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بصناعة كوب من الزبادى ، فمزاولة هذه العملية تحتاج إلى لحظات أنْ نأتى باللبن ونضع عليه قطعة من الخميرة ، هذا زمن مزاولة الفعل ، لكن يحتاج الزبادى بعد ذلك إلى عدة ساعات لتتفاعل الخميرة واللبن وتعطينا المادة المطلوبة . إذن : الستة أيام ليست هى وقت علاج ومزاولة من الخالق سبحانه ، بل الستة أيام عمرها عندك .

وقد وقف المستشرقون عند هذه المسألة وقالوا : كل الآيات التى تكلمت عن خَلْق السموات والأرض قالت ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾ (٤) [الحديد]

لكن فى سورة (فصلت) قال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ..﴾ (١٢) [فصلت]

إذن : أصبح لدينا ثمانية لا ستة ، وهذا الفهم ناتج عن عدم الإلمام بملكة اللغة ، لأن تقدير الكلام : فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض خُلقتْ فى يومين ، ثم كان تمامها بخَلْق الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فيما يُتمم أربعة أيام .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : سافرتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فجملة الزمن ساعتان لا ثلاث .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ④﴾[الحديد] اختلف العلماء في معنى الاستواء . بعضهم قال : استوى على وجه الحقيقة ، وابن القيم [1] قال : استوى بمعنى استقر . وبمعنى علا . وبمعنى صعد ، ونقول : لا صعد ولا علا ، لأن الحق سبحانه لم يعْلُ على العرش فحسب إنما علا على كل شيء .

والأقرب أن الحق سبحانه ما دام قد خلق الخَلْق وفرغ منه ، فالاستواء هنا بمعنى أنجز هذا الكون واستتبَّ له الأمر ، ونحن في أعرافنا الدنيوية نرى الملك لا يجلس على عرشه إلا إذا استتبَّ له أمر المُلْك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه أو يشاغبه .

وقد وردت مادة استوى في القرآن الكريم في سبعة مواضع ذكرها الناظم ، فقال :

وَذِكْرُ اسْتِواء الله في كَلِمَاتِه ... عَلَى العرشِ في سَبْعٍ مَوَاضِع فَاعدد

فِي سُورَةِ الأعْرافِ ثمَّة يُونُسَ ... وَفِي الرَّعْد مَعَ طه فَلِلعَدِّ أكِّد

وَفِي سُورَةِ الفُرْقانِ ثمَّة سَجدة ... كَذَا فِي الحديدِ فَافْهَم فهْمَ مُؤيِّد

ثم تستمر الآيات في ذكر بعض آياته تعالى في الخَلْق : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ..④﴾ [الحديد] أي : ما يدخل فيها وما يخرج منها ، ما يدخل في الأرض هو المطر ينزل من السماء ويستفيد منه الخَلْق وينتفعون به وما زاد عن حاجتهم يسلكه ينابيع

---

(١) هو محمد بن أبي بكر الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين ، ولد بدمشق (٦٩١هـ) تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق ، ألف كتباً كثيرة جداً منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و (حادي الأرواح) ، توفي عام ٧٥١ هجرية . [الأعلام للزركلي ٦/٥٦] .

فى الأرض ، فـهى مـخـزنٌ للمـاء العـذب الذى يسـتنـبطه الناس فى الأماكن التى ليس فيها أنهار فيجدونه فى أعماقها ، ثم ما يخرج منها هو النبات وهو قوام حياتنا .

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. ④ ﴾[الحديد] ينزل من السـماء المطر ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉑ ﴾ [الحجر] وينزل من السماء ملائكة ، وتتنزل من السماء رحمات الحق بالخَلْق ، وينزل منهج الله الذى يُنظم للناس حركة حياتهم .

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ④ ﴾[الحديد] يعنى : ما يصعد إلى السماء . وقال : السـماء بصيـغة المفـرد ، وأراد الجنس لأن السمـوات سبع ، فعبّر عنها بجنسها ، والأصل فى (يعرج) أنْ نقول : يعرج إليها .

(فى) هنا فـبمعـنى اللام ، فعـدل عن اللام واستـخدم (فى) لأنها تدل علـى المبالغـة ، ومثلها قـوله تعالى عن الكافـرين المكذِّبين بالرسـل : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. ⑨ ﴾ [إبراهيم]

فالأيدى تُرَدّ إلى الأفواه ، لكنه أراد المبالغة فجعلها فى أفواههم ، كأنه يقول سُك لسانك لا أريد أنْ أسمع منك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ⑲ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ ﴾[الحديد] بعد الحـديث عن السمـوات والأرض فيه إشـارة كأنّ الحق سـبـحانه يريد أنْ يقـول لنا أن السـمـوات والأرض خَلْق طائع يؤدى مـهمتـه ولا يشذ عـما خُلِق لـه فهو غـير مـحاسب ، أمـا أنتم فمُحاسبون لأنكم مختارون .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ④ ﴾[الحديد] يعنى : لا يحجبه ظاهر عن باطن ، ولا يحجبه باطن عن ظاهر .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ ﴾[الحديد] فهو سبحانه معكم وبصير بكم ، ولو كانت معية عين ما قال ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ ﴾[الحديد] إذن : هى معية بصير ، ذكر سبحانه البصر وهو الرؤية ، ولا تتصور مثل هذه المسائل ، بل خذها بكمال الكمال فيه سبحانه .

وما دُمْنا فى معية الله وتحت بصره فلنراع ذلك ، ولنعمل له حساباً ، ولم لا ونحن نعمل حساباً لمعيَّة البشر ونظرهم ، والآن يخترعون أجهزة للتجسس تعرف كلَّ ما يُدبَّر وكل ما يدور عند العدو وترصده بالصوت والصورة ، ترصد ما يدور بالليل قبل النهار ، نعم فعلوا ذلك لأنهم ليستْ لديهم ذاتية تعرف فاستعانوا بالآلة ، ومع ذلك أين علمهم من علم الله ؟ وأين عيونهم من عين الله !؟

ودائماً نقول فى حقه تعالى : ليس مع العين أين ، فكل ذرة فى كونه تعالى تحت بصره ولا تخفى عليه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟»[1]

كأنه تعالى يقول لنا : هل أنا أهون عليكم من خَلْقى وأنتم

---

(١) ذكره ابن عجيبة فى كتابه (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) (٣/١) قال : فى بعض الأخبار القدسية : « إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » ، وقال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

تستترون منهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء]

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد] يستخدم الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال ، لأنه تعالى يحكى لنا الواقع ، وإلا فعِلْم الله أزلاً يعلم ما يلج وما ولج منذ خلق سبحانه السموات والأرض .

فكل قطرة من ماء المطر امتصَّتها الأرض منذ خُلقَتْ يعلمها الله ، بل هى عنده فى اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلق .

وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة [(١)] . لذلك قلنا : إن الملائكة تزداد تسبيحاً لله تعالى كلما رأتْ الواقع يأتى مطابقاً لما سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى هنا أيضاً (له) لا ينصرف الضمير إلا إليه سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحديد] وهذه دعوى أقامها

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢٦٦٦) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه .

الحق سبحانه ولم يَقُمْ لها منازع فتسلَم لصاحبها ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥)﴾[الحديد] يعنى : المسألة ليست معيّة بصر وتسجيل لما يحدث وتنتهى المسألة ، لا بل لها مرجع فى النهاية مرجع لتصفية الحسابات فالله تعالى ما خلقكم عبثاً ، ولن يترككم سُدى ، بل لكم نهاية فتجهزوا لها .

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٦)﴾[الحديد] أى : يُدخل الليل فى النهار ، ويُدخل النهارَ فى الليل ، فكل منهما يحلُّ محلّ الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً(١) لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] فكل منهما يخلف الآخر .

ومن آيات الليل والنهار أنْ نجد يوم الصيف طويلاً وليله قصير ، ويوم الشتاء قصير وليله طويل ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾ [الحديد] لأنه سبحانه قال قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد]

يعنى : لا يقتصر علمه تعالى على الحركة والأحداث ، إنما يعلم أيضاً مكنونات الصدور ومطويات النفوس مما نفكر فيه ، ولم يترجم إلى عمل وحركة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر]

وهذه من خصائص علمه تعالى ، والعظمة ليست فى أنْ تعلم ما تُقهر عليه ، بل فى أنْ تعلم ما هو مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

مثلاً لو خرجتَ مع أهلك فى (مشوار) وتركتَ الأولاد بالبيت ، وقلتم لهم : الثلاجة فيها الأكل ، وكل واحد يأكل ما يعجبه ، وفى

---

(١) خلفة : أى يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

الطريق قلتَ لأهلك : الولد فلان سيأكل كذا ، وفلان سيأكل كذا ، وبعد أنْ رجعتما إلى البيت وجدتم الأمر كما أخبرتَ أنت به .

فعظمة علم الله أنْ يعلم ما فى الصدور وما فى القلوب من نوايا ، مجرد نية ، ولعلمه تعالى بالنية جعلها أساساً للحكم على العمل : « إنما الأعمال بالنيات »[1] فكأن القلب سيطر بعقيدته على سلوك كل الجوارح ، فأنت حين تنفق مثلاً يعلم نيتك من هذا العمل ، فيحاسبك بالنية لا بالفعل ، فكأنه جعل النية تحرس العمل والحركة الظاهرة .

إذن : نفهم من ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾[الحديد] أى : بنت الصدور وهى النية ومحلُّها القلب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] حتى فى موقف القيامة يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] أى : سليم القصد ، وسليم النية ، وخالٍ من العطب .

والقلب فى ظاهره مضخة تضخ الدم ، وهو سائل الحياة فى الجسم كله ، فإذا ما مُلِئ القلب باليقين وأُشربَ الإيمان ضخّه مع الدم إلى الأعضاء كلها ، وصار هذا الدم حلالاً صالحاً وصلحت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) وأبو داود فى سننه (١٨٨٢) وابن ماجه فى سننه (٤٢١٧) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير .

بصلاحه الجوارح فى حركاتها ، فلا تتحرك إلا فى الحلال ، ولا تفعل إلا ما هو مطابق وموافق لهذه العقيدة ، فتأتمر بما أمرت وتنتهى عما نُهيَتْ .

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

هنا علاقة ومناسبة بين ذات الصدور و ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(٧)﴾ [الحديد] فالإيمان عمل قلبى محلُّه الصدر ، فإذا استقرَّ فيه سُمِّى عقيدة . أى شىء معقود لا يُفك ولا يُحلّ ، شىء ثابت مستقر لا يطفو إلى العقل مرة أخرى ليُناقش ، لأنه ما استقر فى القلب وصار عقيدة إلا بعد أنْ ناقشه العقل واختاره من بين البدائل .

لكن أيهما أسبق ، يعنى : هل آمنتَ بالله من أجل الرسول أم آمنتَ بالرسول من أجل الله ؟ وهذه مسألة سُئِل فيها الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

وبعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله ذكر أمراً آخر لا تستقيم حياة المجتمع إلا بالقيام به ، وهو مسألة الإنفاق : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ..(٧)﴾ [الحديد] أى : من كل شىء استخلفكم الله فيه مال أو غيره ، ذلك لأن الإنسان لا يؤدى مهمته فى الحياة ، ولا يتحرك إلا إذا توفرتْ له مُقوِّمات الحياة ، وأولها القوت الذى تنشأ منه الحركة ، وفى المجتمع عناصر عاجزة عن الكسب غير قادرة على

الحركة الإيجابية فى الحياة .

والحق سبحانه وتعالى لن يترك هؤلاء يضيعون بين القادرين ، فجعل الإنفاق عليهم ومساعدتهم جزءاً من إيمان المؤمن ، فيؤدى لهم حَقاً هو حَقُّ الله فى الأساس ، ويجعل هذا الحق شكراً لله على النعمة ، وشكراً لله على الصحة والسلامة التى مكَّنته أنْ يعمل ويكتسب من الحلال وينفق .

ثم إن العاجز حينما يجد مَنْ يرعاه ويُعينه يسعد ويطمئن قلبه ، ويرى أن فى مجتمعه المؤمن عوضاً عما فاته ، فالنعمة تُساق إليه وتطرق عليه بابه وتحفظ ماء وجهه أنْ يذلّ للسؤال .

فهو مع عجزه عن الحركة مُسيّد فى هذا المجتمع المؤمن ، فمن شرف الفقير أنْ جعله الله شرطاً فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، والمراد فريضة الزكاة .

فالزكاة تُطيِّب خاطر الفقير وتُذهب ما فى نفسه من الحقد على الغنى ، وتجعله راضياً بقضاء الله فيه ، فلا يقول : لماذا خلَق هذا غنياً وأنا فقير ؟ لذلك جاء الأمر بالإنفاق تالياً للأمر بالإيمان ، فالإنفاق يعطى استبقاءَ الحياة ، والطاعات كلها فرع الحياة ، فحين تُوفر القوت للفقير تُعينه أولاً على طاعة الله .

ومعنى ﴿ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. ⟨٧⟩ ﴾ [الحديد] يعنى : ليس من عندك ، إنما من رزق الله الذى ساقه إليك وجعلك خليفة فيه ، فالله هو الرازق فى الحقيقة لأنه سبحانه خالق المادة التى تعمل فيها ، وخالق الجوارح التى تعمل بها ، وخالق الوقت الذى تعمل فيه ، وخالق فيك

القوة ، وخالق الأمن والسلامة التى تُعينك على العمل ، وخالق العقل الذى يدبر ويفكر .

إذن : لم تأتِ أنت بشىء من عندك ، والمال فى الحقيقة مال الله ، وأنت خليفته فيه ووكيله ، فلا تبخل بمال الله على عياله وهم الفقراء ، استدعاهم الله إلى الوجود وتكفَّل برزقهم .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ .. ⑦ ﴾[الحديد] أى : بالله ورسوله ﴿ وَأَنفَقُوا .. ⑦ ﴾[الحديد] أى : مما استخلفوا فيه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ ﴾[الحديد] نعم كبير لأنهم جمعوا بين أجر الإيمان بالله ورسوله وأجر الإنفاق وتنفيذ مطلوبات الإيمان ، لأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه إلا بالعمل الصالح والتطبيق ، الإيمان أمر عقدىّ نظرى لا يُغنى عن العمل .

لذلك قُرن الإيمانُ دائماً بالعمل الصالح : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③ ﴾ [العصر]

ثم إن الأجر كبير لأنك لا تأخذ من أجر الله على قدر ما تعطى ، إنما تأخذ على قَدْر المعطى الواهب الذى يُعطى الحسنة بعشر أمثالها ، ويزيد إلى سبعمائة ضعف وإلى أبلغ من ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ[1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي[2] الصَّدَقَاتِ .. ٢٧٦ ﴾ [البقرة] يزيدها ويُنميها لصاحبها .

---

(١) يمحق : ينقص ويذهب البركة . شىء ماحق : ذاهب . محقه الله : ذهب خيره وبركته . يمحق الله الربا : يستأصل الربا فيُذهب ريعه وبركته . [لسان العرب - مادة : محق] .

(٢) قال الماوردى فى تفسيره : فيه قولان أحدهما : يُثمر المال الذى خرجت منه الصدقة . والثانى : يضاعف أجر الصدقة ويزيدها .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً محسوساً من واقع حياتنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] وفوق ذلك ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] فإذا كانت الجنة المخلوقة لله تعالى تعطى سبعمائة ضعف فما بالك بخالق الجنة ؟

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

هنا استفهام للتعجب والإنكار ، يعنى : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أمر عجيب ألا تؤمنوا بالله ورسول الله يدعوكم للإيمان ؟ ولم يقُلْ : لتؤمنوا بالله إنما ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ .. (٨) ﴾ [الحديد] فالذى يجب أنْ تؤمنوا به هو ربكم .

والرب هو الخالق والمربّى والرازق والمعطى الذى أعطاك وخلق لك قبل أنْ يخلقك ، ربٌّ ربّاك بعد أنْ أوجدك وزرع محبتك فى قلب أمك وأبيك فتحمّلا متاعبك ومشاقّ تربيتك إلى أنْ تبلغ وتتولّى حركة حياتك بنفسك ، ألاَ يستحق منك هذا الرب أنْ تؤمن به على الأقل ؟

ألا يكفى أنْ تركك تربَع فى الكون ولم يطلب منك شيئاً ، ولم يكلفك بشىء حتى سنِّ البلوغ بعد أنِ استويتَ وأصبحت قادراً على السعى ، إذن : عطاء الربوبية شملك قبل أنْ تُخلق ، ثم جاء عطاء الألوهية بالتكليف .

فكأن عطاء الربوبية حيثية لقبول عطاء الألوهية ، وهو أيضاً فى

صالحك وأنت المنتفع به ، والله لا ينتفع منه بشيء ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، فالله تعالى ما خلقك إلا بصفات الكمال فيه سبحانه .

فقولوا لنا إذن : لماذا لم تؤمنوا وقد بعثَ إليكم رسولاً يبلِّغكم رسالاته ويدلكم عليه ، ويبلغكم منهجه ؟ انظروا مثلاً إلى العامل الذى يعمل لك نظير أجر ، كيف يطيعك ويأتمر بأمرك ، ولا يخرج عنه قَيْد أنملة ، وأنت مع ذلك لا تعطيه إلا القليل الذى يسدُّ حاجته ليوم أو يومين ، فما بالك بمَنْ أعطاك بسخاء ، وأنعم عليك كلّ هذه النعم ، أليس أوْلَى بالطاعة والامتثال ؟

إذن : هذا أمر يدعو إلى العجب منكم ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (٨) ﴾ [الحديد] يعنى : شىء لا يُتصوَّر منكم ، وفى سورة البقرة قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة] كيف تجرأتم على ذلك والعقل مجرد العقل والتفكير يأبى ذلك . فواجب عليك أنْ تؤمن بالله خاصة والإيمان ليس تطوعاً منك ، إنما جاءك رسول يدلُّك ويُذكّرك .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الحديد] أى : أخذ عليكم العهد والميثاق والحجة أنْ تؤمنوا به ، فالإيمان إذن ميثاق قديم أقررتم به ووافقتم عليه فلم تنكرونه الآن ؟ وهذا الميثاق أخذه الله على بنى آدم وهم فى مرحلة الذر ، فيُروى أن الله تعالى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته وهى فى صُلْبه وأخذ عليهم هذا العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ

(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد أخذه الله على بنى آدم جميعهم قبل أنْ توجد لهم نفس أمَّارة بالسوء ، فلما وُجدت النفس الأمّارة بالسوء نقضت هذا العهد ولم تُوف به ، ولما كنا جميعاً من آدم ففى كل واحد منا ذرة منه حية باقية لم يطرأ عليها عدم ، فأنا أخذتها من أبى وأبى أخذها من أبيه وهكذا .. إلى آدم .

ومن هذه الذرة نشأتْ الفطرة الإيمانية ونشأ الضمير والنفس اللوامة ؛ لذلك إذا فعل العبد ذنباً فى غفلة من الفطرة الإيمانية سرعان ما يستيقظ فيه هذا الوازع فيردّه إلى الجادة ، ويُصحِّح مساره على الإيمان الفطرى .

ثم أخذ الله ميثاقاً آخر على الأنبياء : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : مطلوب من كُلِّ رسول أنْ يبلغ أمته والمؤمنين به : يا من آمنتم بى وصدقتمونى فيما جئتكم به اعلموا أنه سيأتى بعدى رسول صفته كذا وكذا ، فإذا عاصرتموه فإياكم أنْ تتعصَّبوا ضده ، لأنه ما جاء إلا ليتمم ما جئتكم به .

وهذه قالها موسى عليه السلام لقومه ، وقالها عيسى عليه السلام

---

(١) الإصر : بالكسر : القيد والثقل والعهد المؤكد . قوله : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١) ﴾ [آل عمران] : أى : عهدى . [القاموس القويم ١/ ٢١] .

لقومه ، وقد وثّقها القرآن وسجّلها على اليهود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فقد كان اليهود فى المدينة يستفتحون على عُبَّاد الأصنام ببعثة محمد ﷺ ، ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى جديد سيأتى ، وسوف نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

فلما جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به وعاندوه وصادموا دعوته لأنه سيأخذ منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ، فلو أنهم أخذوها على أنها من الله ، وأن نبيهم أخبرهم بهذا الخبر ما كان منهم هذا اللدد وهذا العناد ، فكفار مكة وعبَّاد الأصنام أهون منهم ، لأنهم لم يبشَّروا بمقدمه ﷺ كما بُشِّر اليهود .

ونفهم من هذا أن الأديان السماوية كلها متكاتفة على الحق وعلى منهج واحد هو منهج عبادة الله وحده لا شريك له ، فالأديان المتعاقبة ما هى إلا مراحل فى منظومة واحدة هى إسلام الوجه لله تعالى ، فهى كما شبَّهها سيدنا رسول الله بناء واحد .

قال ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأكمله وأجمله إلا موضع لبنة فيه ، فأخذ الناس يمرون به ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (١) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى مسند الشاميين (١٢٥) . ولفظ البخارى : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

إذن معنى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ .. ⑧ ﴾ [الحديد] أى : ميثاق على الخلْق جميعاً وهم فى مرحلة الذرِّ ، وميثاق على النبيين أنْ يُبلغوا أقوامهم أنَّ دين الله بُنى على التوافق لا على التعارض .

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑨ ﴾

أى على نبيه ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ..⑨ ﴾ [الحديد] واضحات الدلالة على الخالق سبحانه ، والآيات إما كونية كالشمس والقمر والليل والنهار .. أو معجزات وعجائب تصاحب بعثة الرسل لتثبت للناس صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، ثم آيات الذكر الحكيم ، آيات القرآن حاملة المنهج والأحكام التى تنظم حركة الحياة بما يُوصِّل الناس إلى الغاية السعيدة .

إذن : هذه أشكال ثلاثة للآيات ، ولكل منها هدف وغاية ، وقد أجملها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..⑨ ﴾ [الحديد] النور والظلمة ضدّان ، نعرف النور بأنه هذا الأثر الذى نرى به الأشياء فله كيان معروف ، أما الظلمة فليس لها كيان بذاتها ، بل هى سلبية فى عدم وجود النور .

وقلنا : إن النور هو الذى يجعلنا نرى الأشياء ، فنسير على هدى لا نصطدم بشىء ، أما فى الظلمة فنتخبط نحطم الأضعف ويُحطمنا الأقوى . هذا عن النور الحسى ، مثله النور المعنوى ، وهو نور المنهج والقيم التى نهتدى بها فى دروب الحياة :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ⑮ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة] فهو نور على نور .

وقال عن الكافرين الذين استدبروا منهج الله وصادموه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

فالمراد إذن المعنويات : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد] الرأفة أنْ تزيل الألم والشقاء عن الشخص وتنزع عنه الداء ، والرحمة أن تصونه بعد ذلك من أن يصيبه ألم أو داء .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] فالقرآن منهج الله فيه شفاء لداءات المجتمع ، يوقظهم من الغفلة وينأى به عن سُبل الفساد ويصلح ما به من عطب أو عوار ، ثم تأتى الرحمة تحصيناً لهم من الزلل وتحميهم ، فلا تصيبهم هذه الداءات مرة أخرى .

وقد مثَّلنا منهج الحق (بالكتالوج) فلو سِرْنا عليه ما أصابنا عطب أبداً ، فصانع الشيء أدرى بما يصلحه ، وأحرص عليه وعلى سلامته .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٠) عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق . فعن ابن عمر قال : بينا النبى ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خلَّها على صدره بخلال ، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال : يا محمد مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال ؟! فقال : يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علىّ . قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام . وقل له : يقول لك ربك : أراضٍ أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبوبكر وقال : على ربى أغضب أنا عن ربى راضٍ » .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾

كما قال سبحانه فى الإيمان ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ.. (٨) ﴾ [الحديد] قال هنا ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الحديد] يعنى : كيف يحدث منكم هذا ، والمال مال الله وأنتم مستخلفون فيه ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠) ﴾ [الحديد] إذن : هذه قاعدة عامة فى المال وغيره ، فالمُلْك مُلْك الله ولا بد أنْ يعود إليه .

وهل رأيتَ أحداً خرج من الدنيا بمال ؟ نعم يعطيك المال ويُملِّكه لك فترة بقائك فى الدنيا تتمتع به ، فإذا حان الأجل تتركه للورثة ، والعاقل حينما ينظر إلى المال يجد أن حوادث الدنيا تأخذ منه جانباً ، والباقى يتركه لورثته ، فأين أنت يا صاحب المال من مالك ؟ أليس من العقل أنْ تجعل لك منه نصيباً ؟

والرسول ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[1] فتأمل يا صاحب المال .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٦٤ ، ٣٢٧٧) من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه . وكذا أحمد فى مسنده (١٥٧١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٩٢٨ ، ٨٠٣٠). قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وتعلمون قصة الشاة التى أُهديتْ إلى بيت رسول الله ﷺ ، فلما عاد آخر النهار سأل عنها ، وكان ﷺ يحب منها لحم الكتف - فقالت له السيدة عائشة رضى الله عنها : « ذهبت كلها إلا كتفها ، يعنى : تصدقتُ بها كلها ولم أُبْقِ لك يا رسول الله إلا الكتف ، فعدَّل لها رسول الله مقالتها وقال : بل بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

ولما سُئِلَ الإمام على رضى الله عنه : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال للسائل : الجواب عندك ، قال : كيف ؟ قال : انظر إذا دخل عليك حامل هدية وطالب عطية إلى أيِّها تبشُّ ، فإنْ كنتَ تبشّ للأول وتفرح به فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ للآخر فأنت من أهل الآخرة .

إذن : الحق سبحانه تعالى يريد أنْ يُحبِّبنا فى مسألة الإنفاق ، لذلك تحدَّث عنها القرآن كثيراً ، لأن الإنفاق عنصر رئيسى فى استبقاء الحياة ، فلا تقوم حياة الفقير إلا به ، يعنى : مسألة حياة أو موت .

ودائماً يُذكِّرنا القرآن بهذه الحقيقة : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] وقال : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم]

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الحقيقى للمال ، وإذا

---

(١) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٥ / ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها » .

كنت لا بدَّ خارجاً من الدنيـا مجرداً من كل شـىء كما جـئتَ إليها فلم تبخل على نفسك ؟

حتى فى مسألة الميـراث وتوزيع التركة يقول لك : ارفع يدك عنها فنحن الوارثون ونحن نقسمها كمـا نريد ، لهذا كذا ولهذا كذا لا تتدخل فى هذا الشأن ، فالمال مال الله يقسمه ما يريد . لا تقُلْ هذا أفضل من هذا : ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا..(١١)﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ..(١٠)﴾ [الحديد] قالـوا : المراد بالفـتح فتح مكة ، لكن فـتح مكة لم يأت إلا نتـيجـة لصلح الحـديبـية ، فـهـو إذن بداية الفتح ، لذلك قـال سيـدنا أبو بكر : لم يكن فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية[1] .

لمـاذا ؟ لأن قريشاً كـانت تهـاجم محـمداً ﷺ وتصادم دعـوته ، فـجاء صلح الحـديبيـة ، وجعل قـريشـاً تعتـرف بمحـمد وبدعـوته ، وتعاهده وتأخذ منه وتُعطيه ، وهذا فى حدِّ ذاته فتح .

ثم إنه مكّن رسـول الله من الفـراغ لنشـر الدعـوة فى المـدينة ، فالحـديبية أزاحت عن رسـول الله عبء قريش وعـداءها ، لذلك وجدنا بعد صلح الحديبية أن أرض الكفر تتناقص ، وأرض الإيمان تتزايد .

وميزان الحق لا يُسوِّى بين مَنْ أنفق قبل الفتح ومَنْ أنفق بعده ، لأن الذين أنفقـوا قبل الفـتح كانوا قلة ضعـفاء ، قليلى العُـدة والعدد

---

(١) قاله الواقدى فى المغازى (١ / ٦١٠) أن أبا بكر الصديق قال : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحـديبية . ونقله ابن حجـر العسقلانى فى الفـتح (٨ / ٢٨٣) وعزاه لابن شهاب الزهرى .

مستضعفين لا شوكة لهم في وقت كانت القوة والسيطرة في يد عدوهم ، أما بعد الفتح فقد انقلبت الصورة تماماً ، فأصبح المؤمنون قوة لهم عدد وعُدة ، واطمأنوا إلى أن الدنيا صارتْ معهم .

إذن : لا يستويان ، مَنْ أنفق قبل الفتح ، ومَنْ أنفق بعده ﴿ أُولَـٰئِكَ .. ⑩ ﴾ [الحديد] أي : الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ..⑩ ﴾ [الحديد] ومع ذلك لم يهضم الذين أنفقوا بعد الفتح حقهم ، فقال : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. ⑩ ﴾[الحديد] فالحُسْنى وعد من الله للفريقين ، لذلك كانوا يقولون : كفانا الحسنى من الله ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑩ ﴾ [الحديد]

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ⑪ ﴾[1]

الحق سبحانه وتعالى فرض الزكاة وجعلها ركناً من أركان الإسلام رعايةً لحقِّ الفقير ، واستبقاءً لحياة العاجز عن العمل ، ولو نظرتَ إلى واقع الحياة وتأملتَ حركة توزيع الثروات والموارد تجد أن

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ⑪ ﴾ [الحديد] قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربي حائطاً وله حائط فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . قال : أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل . وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رَدَاح (عظيم ضخم) في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ « رُبَّ نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة » . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

الخالق سبحانه وتعالى وفّر لخَلْقه ما يُغنيهم جميعاً ، ففى مال الغنى ما يسع الفقير ويُقيم حياته فى سعادة لا تقل عن سعادة الغنى .

فإنْ رأيتَ الصورة غير ذلك فاعلم أن فى الأمر خللاً إما أنْ يصير الغنيُّ بخيلاً ، أو يصير الفقير محتالاً ، لأن الخالق سبحانه وتعالى يدبر شئون الكون بما يُسعد عباده لا بما يُشقيهم .

ترى مثلاً أحد الأغنياء تتسع أملاكه فى بلد مثل طنطا ، فيشتاق إلى العيش فى بلد أخرى مثل الإسكندرية ، فيذهب إلى هناك وتصير له أملاك أخرى : مثل هذه الحركة ليست عبثاً ، إنما بتقدير من الله رب الجميع ، فمال هذا الرجل أصبح زائداً عن حاجة الفقراء فى طنطا ، فأراد الله له أنْ يفتح مجالاً جديداً للعطاء فى الإسكندرية ، وربما أنت تتعجب لماذا ينتقل هذا وهو غنى ، ماذا ينقصه ؟ لكنه تدبير الخالق الرازق الذى بيده مقاليد الأمور وأزمّتها .

ولأهمية الإنفاق وحاجة المجتمع إليه لم يكتفِ الشارع بفريضة الزكاة الواجبة ، إنما ترك باب العطاء مفتوحاً ليسع أريحية الغنى المعطاء الذى يريد أنْ يعطى أكثر مما فُرِض عليه فيتجاوز نسبة ٢,٥٪ إلى ٥ أو ١٠٪ .

لذلك عبّر القرآن عن الزكاة فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)** ﴾[المعارج] وعبّر عن الإنفاق فيما غير الزكاة فقال : ﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)** ﴾[الذاريات] ولم يقل هنا (معلوم) .

فالمعلوم هو الزكاة الواجبة ، والمطلق هو الصدقة ، وهى مقام الإحسان كما فى سورة الذاريات : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)**

آخذين مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ [الذاريات]

فمَنْ أدخل نفسه فى باب الإحسان ، وفرض عليها فوق ما فرض الشرع ، وألزم نفسه فوق ما فُرض عليه سوف يجد الجزاء أيضاً بالإحسان والزيادة ، فله خصوصية فى الجزاء مثل ما كان له خصوصية فى العطاء .

لذلك سمَّى القرآن هذا الإحسان وهذه الزيادة فى الإنفاق قرضاً ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..﴿١١﴾﴾ [الحديد] والقرض الحسن هو الذى تعطيه طيِّبة به نفسك ، ويشترط له أن يكون من مال حلال ومن كسب حلال ، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[المائدة] وألا يكون القرض من خبيث ما تملك ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ .. ﴿٢٦٧﴾﴾[البقرة] وأنْ تعطيه وأنت محبٌّ للعطاء ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان]

ثم لا تمنّ به بعد إخراجه ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى .. ﴿٢٦٢﴾﴾[البقرة] وأنْ تتصدق فى خفاء حتى لا تحرج الآخذ ، كما بيّن سيدنا رسول الله ﷺ : « حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[2] ثم إن الصدقة فى الخفاء أبعد عن الرياء ، فإنْ أعطى عن رياء فقد أفاد

---

(١) يهجعون : ينامون ليلاً . وهجيع الليل : ساعة من الليل . ويقال : أتيت فلاناً بعد هجعة أى بعد نومة خفيفة من الليل . [لسان العرب - مادة : هجع] .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١٥٠١) والبخارى فى صحيحه (٦٢٠، ١٣٣٤) والترمذى فى سننه (٢٣١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٩٢٨٨) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

الآخذ ، وحرم نفسه ثواب عمله ، وضيَّع سعيه هباءً .

وأنت حين تقرض تحمى المحتاج وترحم وجهه من مذلة المسألة وطلب الصدقة ، لذلك ناس كثيرون تضطرهم الظروف وتُحوجهم بعد عِزة وغنى ، فمثل هذا يناسبه القرض ليحفظ عليه عزته ، كما يقولون : ارحموا عزيز قوم ذل .

فحين تعطيه على سبيل القرض تخفف عنه المسألة ، وبعد ذلك إنْ قدر على الأداء فبها ونعمت ، وإنْ لم يقدر فأنت أمام أمرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[1] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] إما أنْ تنظره إلى أنْ يتيسَّر له السداد ، أو تعفو عنه وتجعله صدقة .

إذن : الحق سبحانه وتعالى جعل لنا فى الإنفاق مراحل أولها الزكاة المفروضة ثم الزيادة عليها بالإحسان ثم القرض ثم العفو عن القرض والتصدُّق به .

وما دام أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى تكلم بهذا الكلام ، فلا يأتى واقع الحياة ليُكذبه ، فعلى الغنى أنْ يتحلى بآداب الغنى ، وعلى الفقير والمحتاج أنْ يتحلى بآداب المسألة لنحقق مراد الله منا ، والحاصل الآن أن أكثر الأغنياء يبخل ، وأكثر الفقراء يلحف ويحتال .

ورسول الله ﷺ يُعلمنا هذا الدرس ، فيقول : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

---

(١) النَّظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب - مادة : نظر] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وابن ماجه فى سننه (٢٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك لما مات رجل ، وطُلِبَ من رســول الله أنْ يصلى عليه سأل : أعليه دين ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فامتنع عن الصلاة عليه[1].

والسؤال الذى يتـبادر إلى الذِّهن : وما ذنبه وقد مـات ؟ لكن الحديث السابق يوضح المســألة ، فالمدين الذى يأخذ القـرض وفى نيته أنْ يؤدى لا بدَّ أنْ يُعينه الله على الأداء ، بل يؤدى عنه دَيْنه ، ومـعنى أنه مات دون أنْ يؤدى أن نيته فى الأداء لم تكُنْ صادقة ، وإلا لأدَّى الله عنه وأعانه .

وفى امتناع النبى ﷺ عن الصلاة عليه جانب آخر ، وهو أنْ يحثّ الناس على أنْ يُؤدوا عنه دَيْنه قـبل أنْ يدفن رحمة به وتعليـماً للناس وتعظيماً لأمر الدَّينُ فهو حقّ يتعلق بالعـباد فلا تسامحَ فيه ، وحتى لا يستهين الناسُ بالدَّينْ ويأخـذونه هكذا بلطجة وعُنْوة ، لذلك قام الإمام على وقتادة يقول كل منهم : أنا أؤدى عنه يا رسول الله .

ثم إن رســول الله لمــا امتـنع عن الصــلاة على المـدين لم يمنع الناس من الصلاة عليه ، إنما أمرهم بالصلاة عليه ، وقال : « صلُّوا على صاحبكم »[2] ، وهذا يعنى أن الرجل عنده نقص فى إيمانه وفى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٩٠٢) وأحـمد فى مسنده (١٤٠٠٩ ، ٢١٥٠٣ ، ٢١٥٤٠) وابن حبان فـى صحيحه (٣١٢٩) من حـديث جابر بن عبد الله رضى الله عـنه . وفيه : أنه ﷺ قال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هو علىَّ يا رسول الله . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ .

(٢) أخرج البـخارى فى صحيحـه (٢١٢٧) عن سلمة بن الأكوع قـال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة قالوا : صلِّ عليـها . فقال : هل عليه دين ؟ قـالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قـالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يـا رسول الله صلِّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثـة فقالوا : صـلِّ عليها . قـال : هل ترك شيئـاً ؟ قالوا : لا . قال : فـهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم .

اتباعه لرسول الله حرمه هذا الفضل العظيم ، وهو أنْ يصلى عليه رسول الله ﷺ ، ولو كان الرجل متبعاً لأمر رسول الله فعلاً ما مات وهو مدين .

وذكرتُ أننا فى سان فرانسيسكو التقينا بأحد المستشرقين الدارسين للإسلام ، وكان يقول أنا عندى فقدان توازن ، لا أنا مسيحى ، ولا أنا مسلم ، وكان الرجل يميل إلى الإسلام لكن عنده بعض الشبهات ، وكان يقول لبعض الإخوان إن جاء فلان فأنا أريد مقابلته لأناقشه فى بعض المسائل .

وكان من الشبهات عنده مسألة الصدقة والقرض ، فسأل فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد] أى : يضاعفه عن الأصل ، والحسنة بعشر أمثالها يعنى عشرين ضعفاً ، وفى الحديث : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »(١) .

إذن : نقص عن العشرين فألهمنا الله وقلنا له : أنت حين تتصدّق بدولار مثلاً يكون لك عند ربنا كم ؟ قال : وهو يشير بأصابعه عشرة ، قلت : هل استرددت دولارك الأول ؟ قال : لا ، قلت : إذن أخذت تسعة ، وحين تُضاعف تعطينا ثمانية عشر ؟ إذن : ليس هناك مخالفة بين النصين .

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٩٠٨) عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال : إن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

ولما نزلتْ هذه الآية : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١) ﴾ [الحديد] قال بعض اليهود[1] : إن ربَّ محمد افتقر ويريد أنْ يقترض منا ، وساعتها ضربه أبو بكر على وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فأنكر ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ [الحديد] بعد مضاعفة الأجر والحسنة بعشر أمثالها يعطيه أيضاً أجراً كريماً فضلاً منه تعالى ، فالمضاعفة عَدْل ، والأجر الكريم فَضْل ، ووَصْف الأجر ذاته بأنه كريم دليل على عظمه ، فإذا كان العطاء ذاته كريماً فما بالك بالمعطى ؟

الحق سبحانه وتعالى فى مسألة القرض هذه يحفظ للمؤمن سَعْيه

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسير آية ١٨١ سورة آل عمران عن ابن عباس (أثر رقم ٨٣٠٠) قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة .

ويُقدِّر حركته فى الحياة ، ولا يبخسه حقه ، فيسمى النفقة على الفقير قرضاً ، مع أن المال فى الحقيقة مال الله لكنه يقترضه منك ، لا يقترضه لنفسه سبحانه إنما يقترض منا على خَلْقه .

وهذه موجودة فى واقع حياتنا ، يفعلها الأب مع أولاده ، مثلاً تجد الأب يعطى لأولاده المصروف ، فمنهم مَنْ يدخره فى حصالة ، فإذا ما احتاج الأب لمال لكى يُجرى عملية مثلاً لأحد الأبناء يقول للآخرين : هاتوا ما معكم لنفعل كذا وكذا ، وسوف أردّها لكم فيما بعد وحين ميسرة ، فأخذها منهم على سبيل القرض وهى فى الواقع مِلْك له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم(١) بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم(٢) بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال : « إن من المؤمنين من يضىء نوره كما بين المدينة وعدن - أو ما بين المدينة وصنعاء - ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه » . [أورده القرطبى فى تفسيره ٩ / ٦٦٤٥] .

(٢) قوله (بأيمانهم) قال الفراء : الباء بمعنى (فى) أى فى أيمانهم . أو بمعنى (عن) أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : (نورهم) هداهم . (وبأيمانهم) كتبهم . واختاره الطبرى . أى : يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى (فى) .

الفعل (ترى) هنا يُراد به الرؤية البصرية لأنه ورد فى أمر يقع تحت الحواس ، فإذا ورد فى أمر لا يقع تحت الحواس تكون بمعنى العلم كما فى قوله تعالى لسيدنا رسول الله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾[الفيل] لأن رسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة . إذن : ﴿أَلَمْ تَرَ.. ①﴾[الفيل] بمعنى ألم تعلم ، ولكنه عدل عنها إلى ﴿أَلَمْ تَرَ.. ①﴾[الفيل] ليبين أن علمك عن ربك أوثق من رؤية عينك .

والكلام هنا عن موقف من مواقف يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ..⑫﴾[الحديد] هذا النور نور الإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا يمشى أمامهم ويمشى عن أيمانهم ليُوصلهم إلى الجنة .

وقال : ﴿نُورُهُم ..⑫﴾ [الحديد] كأن النور ملْك لهم ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ .. ⑫﴾ [الحديد] فالنور هو البشرى ساعة يرونه يستبشرون به ويعلمون أنه هاديهم إلى الجنة ومُوصِّلهم إليها .

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑫﴾ [الحديد] نعم عظيم لأنه فوز دائم لاينقطع ولا يُنغِّصه شىء ، لأن الإنسان قد يجد فى الدنيا جنات وحدائق ونعيماً لكن يُنغِّصها عليه أنها لا تدوم ، إما أنْ يتركها أو تتركه ، أما نعيم الجنة فدائم باقٍ لا يحول ولا يزول أبداً .

وفى الوقت الذى يجد فيه المؤمنون نورهم يسبقهم ويقودهم فيستبشرون به يكون الكفار والمنافقون فى ظلمات تتقاذفهم ويتخبطون فيها ، فيأمر الله الملائكة أنْ تزجّ بهم إلى النار والعياذ

بالله: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

يعنى : دُلّوهم على طريق النار قفُوهم على أول الطريق واتركوهم ، واستخدام لفظ الهداية هنا على سبيل السخرية منهم والتهكم بهم .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾

﴿ يَوْمَ ..(١٣) ﴾ [الحديد] أى يوم القيامة يوم يرى المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يُوصلهم إلى الجنة ، فى نفس هذا اليوم ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا .. (١٣) ﴾[الحديد] أى : انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ..(١٣) ﴾ [الحديد] نأخذ منه قبساً نستضىء به ونهتدى به ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ..(١٣) ﴾ [الحديد]

أى : عودوا إلى الدنيا فاطلبوا النور الذى يهديكم الآن ، لأن النور الذى نهتدى به الآن قدَّمناه عملاً صالحاً فى الدنيا يوم آمنّا بالله ورسوله وأطعنا ، والآن نجنى ثمرة ما قدَّمناه ، وعليكم أنْ تستأنفوا حياة جديدة حيث التكليف والعمل ، فاليوم جزاء لا عمل .

---

(١) وأزواجهم : معناه نظراءهم وضرباءهم وأشكالهم . والزوج الصنف ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) ﴾ [ص] معناه ألوان وأنواع من العذاب وأصناف منه . [لسان العرب – مادة : زوج] .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، فالحوار يدور بين المؤمنين والمنافقين ، ومع ذلك بنى الفعل (قيل) للمجهول ولم يقل قال المؤمنون للمنافقين حتى لا يكون فى الموقف شماتة ، ولا يريد أنْ يُوقف المؤمنين هذا الموقف ، فكأن الصوت جاءهم من جهة لا يعرفونها .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم .. (١٣) ﴾ [الحديد] بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ .. (١٣) ﴾ [الحديد] وهكذا أنهى الحق سبحانه هذا الحوار وحجز المؤمنين عن المنافقين بسور له باب حتى لا يروْهم ولا يسمعوهم ، لأن المؤمن بطبعه رقيق القلب .

فربُّه عز وجل يحمى سمعه ويحمى بصره أنْ يتأذى بما يعانيه المنافقون فى جهنم والعياذ بالله ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ .. (١٣) ﴾ [الحديد] من ناحية المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾ [الحديد] من ناحية المنافقين .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) ﴾

ما يزال الحوار مستمراً ، يقول المنافقون للمؤمنين وينادونهم ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحديد] أى فى الدنيا نصلى كما تصلُّون ، بل نسبقكم إلى الصفوف الأولى ، فماذا حدث ؟ ما الذى أدخلكم الجنة وألقى بنا فى النار وعملنا واحد ؟

فيردّ المؤمنون على المنافقين : ﴿قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٤﴾﴾[الحديد] صحيح كنتم معنا فى الدنيا تعملون كما نعمل وزيادة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..﴿١٤﴾﴾[الحديد] كنتم معنا قوالب لا قلوب ، كنتم معنا نفاقاً ورياءاً وسمعة ، تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..﴿١٤﴾﴾[الحديد] عرّضتموها للفتنة بأيديكم (١) .

ومن هنا كان المنافق أشدَّ جُرْماً من الكافر واستحقّ أنْ يكون فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر صارح نفسه وصارح الناس وأعلن صراحة أنه كافر ، فعاملناه على هذا ولم يلتبس علينا أمره .

أما المنافق فهو واحد منا وفى صفوفنا وبين أظهرنا ونحن لا نعرف نواياه ولا دخيلة قلبه ، فعداؤه لنا مستتر ومواجهته شاقة صعبة .

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ ..﴿١٤﴾﴾ [الحديد] التربُّص : الانتظار ، أى : انتظرتم أنْ تحلّ المصائب والنكبات بالمؤمنين ، انتظرتم أنْ يزول هذا الدين ، انتظرتم أنْ يموت رسول الله فتموت معه دعوته .

وفى آيات أخرى الحق سبحانه وتعالى يوضح هذا الموقف ، فيقول عزوجل : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة]

---

(١) معنى ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..﴿١٤﴾﴾ [الحديد] :
– أهلكتموها بالنفاق . قاله مجاهد .
– بالمعاصى . قاله أبو سنان .
– بالشهوات واللذات . رواه أبو نمير الهمدانى . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٦٤٨] .

يعنى : ماذا تنتظرون لنا ؟ الأمر بالنسبة لنا إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة ، أما أنتم فليس لكم إلا العذاب ، إما أنْ يعذبكم الله بأيدينا فى الدنيا ، أو يعذبكم بالنار فى الآخرة .

وفى الوقت الذى تتربصون فيه زوال الإسلام وأفول نجمه كان الإسلام ينتشر وتزداد رقعته : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : تتناقص أرض الكفر ، وتزداد أرض الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿ وَارْتَبْتُمْ .. (١٤) ﴾ [الحديد] الارتياب : الشك ، أى : شككتم فى أمر الدعوة وفى صِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ .. (١٤) ﴾ [الحديد] خدعتكم أمانيكم فى زوال هذا الدين بموت محمد وذهاب دعوته .

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [الحديد] إما بالانتصار عليكم أو موتكم ، أو جاء أمر الله بالقيامة ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾ [الحديد] وهو الشيطان لأنه يغرُّ الناس ويخدعهم ويصرفهم عن الله ، وفى النهاية يفضحهم ويتبرأ منهم .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

هذا قطع لآمالهم فى النجاة ، فالمصير الذى ينتظرهم لا مفر منه ولا مهرب ، حتى الفدية لا تؤخذ منهم إذا أراد الواحد منهم أنْ يفتدى نفسه من عذاب الله . وقد يظن ظانّ أن هذا الحكم خاص بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم ، لأن الله أخبر عنهم بأنهم ﴿فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء]

فيوضح سبحانه وتعالى أن هذا الحكم يشمل أيضاً أمثالهم من الكافرين : ﴿وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٥)﴾ [الحديد] لأن الكافرين أقلّ جُرْماً من المنافقين ، فقال : لا تُقبل الفدية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، ولا بد أنْ يواجهوا هذا المصير .

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ ..(١٥)﴾[الحديد] مرجعكم ومثواكم الأخير ﴿هِيَ مَوْلاكُمْ .. (١٥)﴾ [الحديد] أى : النار مولاكم ، لأن الإنسان يحتاج فى هذا الموقف إلى ولىّ يواليه ونصير ينصره ، ومن لم يكن الله وليَّه ونصيره فى هذا اليوم ، فالنار والعياذ بالله هى وليّه .

لذلك قال فى آية النساء : ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء] وقال : ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨)﴾ [الشورى] ومَنْ كانت النار وليه ونصيره فبئس المولى وبئس النصير ، وبئس المرجع والمصير .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم فقالوا : حدِّثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية وقال غيرهما : نزلت فى المؤمنين .

فعن سعد بن أبى وقاص قال : أُنزل القرآن زماناً على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصتَ فأنزل الله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..(٣)﴾ [يوسف] فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ..(٢٣)﴾ [الزمر] قال : كل ذلك يؤمرون بالقرآن . قال خلاد : وزاد فيه آخر قالوا : يا رسول الله لو ذكّرتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ..(١٦)﴾ [الحديد]

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

الهمزة استفهام يراد به التعجب أو الحث على المسارعة ، يعنى ألم يأتِ أوان أنْ تخشع قلوبهم ، ألم يحنْ الوقت ، وكأنهم أخروا خشوع القلوب وتباطئوا فيه ، كما نقول مثلاً للشيخ الذى أسرف على نفسه وما يزال على هذا الحال مع كبَر سنه : ألم يأنِ لك أن تتوب وترجع إلى الله ، فهذا يعنى أنه أخّر التوبة .

والكلام هنا عن الذين آمنوا بالفعل ، فهم مؤمنون لكن عندهم خلل وقصور ، إما أن أعمالهم قليلة ، أو أنهم يؤدون الأعمال دون استحضار القلب ، ودون الخشوع والخضوع المطلوب لله ﴿ **أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] أى : عند تذكره وعند سماع آيات ، فمن صفات المؤمن أن ينفعل لآيات الله ، خاصة آيات التهديد والوعيد وذكر النار والحساب .

﴿ **وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ..﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] أى من الآيات ﴿ **وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ** ..﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] وهم اليهود والنصارى ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ** .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] طالتْ مدة التذكر فأصابتهم الغفلة ﴿ **فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ..﴿١٦﴾ ﴾[الحديد] صارت قاسية لا تلين لذكر الله ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾[الحديد] خارجون عن طاعة الله .

ويُحكى فى معنى هذه الآية قصة ، قالوا : إن الفضيل بن عياض[1] وهو أحد الصوفية والعارفين بالله كان فى بداية أمره قاطع طريق ، وفى مرة تسوّر أحد الأسوار ليسرق فسمع هاتفاً يقرأ هذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. (١٦) ﴾[الحديد] فقال : أنا يارب ونزل ، فكانت نقطة تحول فى حياته[2] .

وقد سأله سائل عن قصته العجيبة هذه ، وكيف تحول من قاطع طريق ولص إلى ولى صالح ، فقال له : أتذكر لك حسنة قبل أنْ يتوب الله عليك ؟ قال : والله لا أذكر لى إلا حسنة واحدة ، فقد مررتُ فى الطريق بورقة من كتاب الله مُلْقاة على الأرض والناس يدوسون عليها ، فأخذتها واحتفظتُ بها ولم يكُنْ معى إلا درهم واحد فاشتريت به عطراً فعطرتها به ، فسمعت هاتفاً يقول : والله لأبيضنّ اسمك كما بيضتَ اسمى .

---

(١) الفضيل بن عياض : شيخ الحرم المكى من أكابر العبَّاد الصالحين ، كان ثقة فى الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعى ولد فى سمرقند (١٠٥ هـ) ونشأ بأبيورد ودخل الكوفة وهو كبير وأصله منها ثم سكن مكة وتوفى بها عام (١٨٧ هـ) [الأعلام للزركلى ٥ / ١٥٣] .

(٢) أورده ابن الشجرى فى الأمالى الشجرية (التوبة وما يتصل بها) ، قاله إبراهيم بن الأشعث : كان مبتدأ توبة فضيل بن عياض أنه خرج عشية يريد مقطعة وكان يقطع الطريق فإذا بقوم حمارة معهم ملح فسمع بعضهم يقول : مروا مروا لا يفجأنا فضيل فيأخذ ما معنا ، فسمع ذلك فضيل فاغتم وتفكر ، وقال تخافنى الخلق هذا الخوف العظيم فتقدم وسلم عليهم وقال لهم وهم لا يعرفونه : تكونون الليلة عندى وأنتم آمنون من الفضيل فاستبشروا وفرحوا وذهبوا فأنزلهم وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ..(١٦) ﴾ [الحديد] فصاح ومزق ثيابه على نفسه وقال : بلى والله لقد آن فكان هذا مبتدأ توبته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ألا تلاحظون المناسبة هنا بين قسوة القلوب وتحجرها وبين إحياء الأرض بعد موتها ؟ كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقول لنا : إنْ كانت قلوبكم قد ماتت وقستْ ، وإنْ كانت تعاليم الدين قد ضاعت منكم فلا تيأسوا ، لأن الذى يحيى الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى موات قلوبكم .

إذن : كانت بشارة لهم أنهم سيعودون إلى ساحة الإيمان بأفضل مما كانوا عليه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[الحديد] ومن الآيات أن الله يُحيى القلوب بالذكر والآيات كما يُحيى الأرض بالمطر ، فكل منهما آية تحتاج منا إلى تفكير وتعقل وتأمل .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

السياق القرآنى يعود بنا مرة أخرى إلى الحديث عن الصدقات والإنفاق فى سبيل الله لما له من أثر وأهمية فى حياة المجتمع ، فيقرر هذه الحقائق ويؤكد عليها لأن إنفاق المال بعد مشقة اكتسابه أمر صعب يشقّ على النفس ، فيحتاج إلى مجاهدة .

وإذا كان السياق قد قرر هذه المسألة قبل عدة آيات فإنه يؤكدها هنا كما أكد الآيات الكونية فى سورة (الرحمن) : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾[الرحمن] يكررها بعد كل آية .

كذلك هنا يؤكد على ضرورة الإنفاق والصدقة ، ويؤكد على الأجر الكريم الذى ينتظر المتصدِّقين ، ومعلوم أن المال مُحبَّب إلى النفس خاصة إذا جاء بعرق ومجهود .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩ ﴾

قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ..(١٩)﴾[الحديد] لأن الإيمان برسول واحد يقتضى الإيمان بجميع الرسل لأن رسالة السماء كما قلنا واحدة ، لذلك كان الإيمان بالرسل ركناً من أركان الإيمان .

ثم وصف المؤمنين بأنهم ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. (١٩)﴾[الحديد] جمع صِدِّيق ، وهو الذى بالغ فى تصديق الرسول فى كل ما جاء به .

لذلك لُقِّب أبو بكر رضى الله عنه بالصِّدِّيق لأنه كان يصدق رسول الله فى كل ما يقول . كذلك وصف الله بها السيدة مريم : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[1] .. (٧٥)﴾[المائدة] لأنها صدَّقت ربها عز وجل فى الشىء الخارق لعادة الخَلْق فى مسألة الإنجاب .

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ..(١٩)﴾[الحديد] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

---

(١) صديقة أى مبالغة فى الصدق والتصديق . وقال الليث : كل من صدّق بكل أمر الله لا يتخالجه فى شىء منه شك وصدَّق النبى فهو صِدِّيق . [لسان العرب - مادة : صدق] .

أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران] فهم أحياء عند ربهم لا عندنا ، لأنك ترى الشهيد بعد أنْ يُقتل ويُوضع فى كفنه ويُدفن فهو عندنا ميت ولو فتحت عليه قبره لوجدته ميتاً .

إذن : هم أحياء عند الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. (١٩)﴾ [الحديد] أى : نورهم أيضاً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يهديهم ويدلّهم على أماكنهم فى الجنة .

ثم يذكر النقيض : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)﴾ [الحديد] أى : مصاحبين لها ملازمين لحرِّها ، فكأنهم صاحبوا النار والنار صاحبتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ(١) فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ (٢٠)﴾

هذه الآية فضحت الدنيا وكشفت زيفها ، فالبعض يعمل فى الدنيا على أنها غاية وهى ليست كذلك ، فالحق سبحانه يصفها هنا بعدة أوصاف فى أسلوب قصر ، يعنى ما هى إلا كذلك .

---

(١) هاج النبات يهيج : أدرك النضج واصفرَّ . وهو وصف للنبات عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢] .

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ .. (٢٠)﴾[الحديد] واللعب حركة للإنسان ليس لها مقصد حسن ، مثل لعب الأولاد فى المنزل حينما يلعبون ويُكسرون ، وهذا اللعب مجرد تسلية لهم وشَغْل للوقت واستفراغ للطاقة ، واللعب يكون قبل زمن التكليف ، فإنْ كان بعد التكليف فهو لهو ، لأنه يُلهيك عن العمل الصالح .

والزينة الشيء الزائد عن قوام الحياة وضرورياتها ، فالإنسان له حَدّ أدبى فى أكله وشُرْبه وملبسه بحيث يسدّ جوعه ويستر عورته ولو بأىّ شىء موجود ، فإذا أنعم الله عليه ووسّع رزقه يرتقى فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

وقد وضحت الآيات هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ..(٢٦)﴾[الأعراف] ومنه قولنا (فلان متريش) يعنى : عنده زيادة فى الملبس ، عنده زينة تتعدّى مجرد ستر العورة .

لكن مهما توفر لك الرياش فى الدنيا والزينة فلا تنسَ أنها دنيا ، وخالقها سبحانه هو الذى وصفها بهذا الوصف ، وإذا كانت هذه الحياة التى نحياها دنيا ، فلا بدّ أنْ يكون مقابلها العليا وهى الآخرة .

ويكفى فى دناءتها وحقارتها أن نعيمها منغّص وأن أمدها قصير ، فالدنيا بالنسبة لك مقدار عمرك فيها ولا صلة لك بأعمار الآخرين من آدم إلى قيام الساعة ، فمَنْ مات قامت قيامته [1] .

---

(١) أورده الطبرى فى تهذيب الآثار (٢٤٠) عن أبى قيس قال : رأيت علقمة فى جنازة فلم يزل قائماً حتى دفن فقال : « أما هذا فقد قامت قيامته » وكذا أورده الدولابى فى (الكنى والأسماء ١٢٠١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما مثّل لنا مثلاً للدنيا قال : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[١] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر بيّن الحق سبحانه وتعالى المراد بالزينة ، فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ[٢] الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

والتفاخر أنْ تفخر على غيرك إما بشىء فى ذاتك كالصحة أو العافية أو الجمال . أو بشىء خارج عن الذات كالمال والأولاد والجاه والسلطان . والتكاثر كذلك هو التباهى والاستعلاء بما عندك من الأموال والأولاد .

ثم يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لهذا كله ليوضح لنا الصورة ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : مطر نزل من السماء ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] الكفار هنا بمعنى الزُّراع وليست بمعنى الكفار المخالفين لمنهج الله .

وفى آخر سورة الفتح ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لمحمد ﷺ وأمته : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[٣] فَاسْتَغْلَظَ

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطّم . والهشيم : النبات اليابس المتكسِّر المتحطم . تذروه الرياح لخفته وتكسُّره .

(٢) القنطار المقدار الكبير من المال جمعه قناطير . ومعنى أنها قناطير وأنها أيضاً مقنطرة أنها أموال كثيرة توزن بالقناطير ولا تُعد عداً . فهى أكثر من أن تعد بل توزن .

(٣) آزر الزرع : قوى واشتد ساقه . والأزر القوة . وآزره : قوّاه . [القاموس القويم : مادة أزر] .

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] فقال هنا (الزرّاع) ليفرق بين المعنيين ، فالكفار هنا أي المخالفين لمنهج الله .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أي : يزدهر ويترعرع ثم سرعان ما يذبل ويصفرّ ويتحوّل إلى حطام وفتات ، كذلك حال الدنيا تضحك لأهلها وتعجبهم ، ثم تنتهي إلى لا شيء ، بل وتخلف بعدها التبعات .

﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ .. (٢٠) ﴾[الحديد] لمن غرَّتْه الدنيا ، فأخذها لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً تباهياً بين الناس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] لمن لم يغتر بالدنيا ولم ينصرف عن منهج الله .

ثم تؤكد الآيات هذا المعنى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد] أي : متاع خادع زائف لا يدوم . والغرور بالضم مصدر غرّ ، والغرور بالفتح هو الشيطان ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) ﴾[فاطر] أي : الشيطان وكل ما يغرّك من مال أو غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢١) ﴾

بعد أنّ ذكر الحق سبحانه وتعالى الدنيا وما فيها من لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر قال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(٢١) ﴾ [الحديد] كأنه سبحانه يقول لنا : اتركوا هذه الدنيا وما فيها من غرور ، فهى سراب لا طائل من ورائه ، وسابقوا إلى ما هو أبقى لكم .

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فكأن المغفرة هى الغاية وهى الهدف ، كما تقول سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه الغاية لا تُدرَك إلا بالمسابقة والسعى الجاد الدائب ، لا تُدرك المغفرة بالتهاون والتكاسل . والسباق هنا سباق فى الأعمال الصالحة وفى الطاعات ، سباق فى الانقياد لأوامر الله .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(١٣٣) ﴾ [آل عمران] والمسارعة والمسابقة تعنى مفاعلة ومشاركة ومنافسة بين المؤمنين المنقادين لمنهج الله كُلّ يريد أنْ يسبق وأنْ يرتقى إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً وهى المغفرة ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(٢١) ﴾ [الحديد]

لكن فى آية أخرى قال فى شأن سيدنا زكريا وسيدنا يحيى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل إلى الخيرات لأن الخيرات وسيلة وليست غاية فى ذاتها الخيرات وسيلة للغاية العظمى وهى المغفرة .

وقال (الخيرات) بصيغة الجمع لأنها مجال واسع يسع الطموح الإيمانى ، فكلّ مؤمن يأخذ منه على قدر أريحيته ويسارع فيه على قدر جهده وإمكانيته ، فعمل الخير يتفاوت إذن كلما أوغلت فيه وسارعت أخذت من المنزلة على قدره .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ ..(٢٦)﴾ [المطففين] أى : فى عمل الخيرات ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

والنبى ﷺ يوضح لنا هذا المعنى بقوله : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله العلم فهو يقضى به بين الناس »[1] .

والحسد هنا بمعنى الغبطة والمنافسة الشريفة ، وأصل المنافسة من طول النفس ، لذلك سيدنا عمر قال لسيدنا العباس : هيا بنا نتنافس يعنى : نغطس فى الماء ونرى مَنْ منا أطول نفساً من الآخر[2] ؟ ومعلوم أن الإنسان كلما كانت رئته سليمة تتسع لأكبر قدر من الهواء كان نفسه وبقاؤه تحت الماء أطول .

إذن : نتسابق فى الخيرات لنرى مَنْ منَّا أسبق ، مَنْ منَّا يصل إلى غايته أولاً . لذلك رُوِى أن حاتم الأصم[3] سأله شيخه البلخى[4] :

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١ ، ١٣٢٠ ، ٤٦٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عما يباح فى الإحرام : عن ابن عباس قال : ربما قال لى عمر بن الخطاب : تعال أباقيك فى الماء أينا أطول نفساً ونحن محرمون . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال وعزاه للشافعى والبيهقى فى السنن . وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (١٠٢١ - مختصر) .

(٣) حاتم الأصم : هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم ، زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكَم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال : حاتم الأصم لقمان هذه الأمة . توفى بواشجرد عام ٢٣٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢ / ١٥٢] .

(٤) البلخى : هو شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى أبو على ؛ زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، كان من كبار الزهاد والمجاهدين ، استشهد فى غزوة كولان (بما وراء النهر) عام ١٩٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣ / ١٧١] .

فيمَ أفنيتَ عمرك ؟ فقال : فى أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله إلىَّ طرفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه . وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديناً لا يؤديه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته – وهذه هى المسابقة ، يعنى : أجل يبادرنى بالموت فبادرته أى : سابقته بالعمل الصالح[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الحديد] جاءت الجنة بعد المغفرة ، فالله يغفر لهم الذنوب أولاً ثم يدخلهم الجنة ، والقاعدة أن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، وقلنا سابقاً : إن التخلية تسبق التحلية .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : لو أن واحداً رماك بحجر وآخر رماك فى نفس الوقت بتفاحة ، فلا شكَّ أنك تدفع الحجر عن نفسك أولاً . وهذا المعنى واضح فى قول الله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

والمغفرة إما أنْ يسبقها ذنب فتمحوه المغفرة ، أو تكون المغفرة بستر الذنب عنك فلا يأتيك أصلاً .

والحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا مثلاً وتوضيحاً للجنة لأنها

---

(١) ذكره ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (الفصل الرابع فى أخبار التابعين) أن رجلاً سأله : على ما بنيت أمرك هذا فى التوكل على الله ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن علىَّ ديناً لا يعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مُسْتحٍ منه .

غيب عنا مجهولة لنا ، فيُقرِّبها للأذهان بشيء معلوم مُشاهد ، ونحن نشاهد السماء والأرض واتساعهما طولاً وعرضاً .

فقال في وصف الجنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الحديد] فالكاف هنا للتشبيه فهي في عَرْضها تشبه عرض السموات والأرض ونحن ننظر إلى السموات وإلى الأرض فنجدها ممتدة لا نهاية لها ، فضرب لنا مثلاً بأوسع شيء نعرفه وهو السماء والأرض لما لا نعرفه وهو الجنة .

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٢١)﴾ [الحديد] فأتى بالعرض ولم يأت بالطول ، ومعلوم أن العرض دائماً أقلّ من الطول ، فإذا كان عرضها أي الجنة كعرض السموات والأرض في اتساعه فما بالك بالطول ، فهذا كناية عن الاتساع .

وقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ..(٢١)﴾ [الحديد] أي : أُعدَّتْ بالفعل وجُهِّزت لاستقبال الذين آمنوا بالله ورسوله ، فهي مسألة مفروغ منها وليست تحت الإنشاء ، لذلك لما سأل سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا حارث بن مالك : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال : لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون وإلى أهل النار في النار

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك (اللزج) الذي لا رمل فيه . وهو أيضاً الطين المتماسك . (لسان العرب - مادة : مدر) بتصرف .

يُعذَّبون ، فقال له : عرفتَ فالزم[1] .

فمعنى (أُعدت) بصيغة الماضى أنها موجودة من الآن ، وسيدنا رسول الله ﷺ فى مرحلة الإسراء والمعراج قال : وعُرِضتْ علىَّ الجنة (أى الماكيت) ، ونحن حينما نريد أنْ نبنى عمارة مثلاً نعمل لها نموذجاً أو (ماكيت) يوضح كل تفاصيلها حتى الفرش والأثاث ، كذلك الحق سبحانه وتعالى عنده (الماكيت) الأعلى للجنة .

لذلك لما قال له : ما شُغل ربك الآن وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين[2] . معنى يُبديها يُظهرها للوجود ، فهى موجودة بالفعل فى عالم الغيب تنتظر الأمر بالظهور للوجود .

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]

فكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه ، والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « مَنْ

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (الجزء ٧ - باب ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من خلال) أن رسول الله ﷺ قال : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسى عن الدنيا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى قد أبرز للحساب ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة وكأنى أسمع عواء أهل النار . قال فقال له رسول الله : « عبد نوَّر الإيمان فى قلبه إنْ عرفت فالزم » .

(٢) جاء فى تفسير (البحر المديد) : « رُوى عنه ﷺ أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرِّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين . وقيل : نزلت آية الرحمن ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن] فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأناً فردّ الله عليهم . والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له

كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[١] هذا عن الفضل بالنسبة للبشر أما بالنسبة لله سبحانه فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة فهو فضل الله لأنه زائد على حاجته ، فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى .

ولذلك قال : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾ [الحديد] أى ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته ، والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله .

لذلك فإن الله سبحانه هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ، لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء ، وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ[٢] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾

المصيبة : كل ما يصيب الإنسان ويسوءه ويُخرجه عن سلامة التنعم ، فاسمها يدل عليها فلا تسمى مصيبة إلا إذا وقعتْ . كالذى قال : الموت سَهْم أُرسلَ إليك وعمرك بقدر سفره إليك ، فالسهم أرسلَ بالفعل فإذا أصاب فهى المصيبة ، وهى الشىء الذى حكم بأنه واقع لا محالة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لك انظر إلى المصيبة ﴿فِي الأَرْضِ ..

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٣٢٥٨) وأبو داود فى سننه (١٤١٦) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) برأ الله الخلق : خلقهم . والبارى من أسماء الله عز وجل وهو الذى خلق الخلق لا عن مثال .

(٢٢) ﴾ [الحديد] كالقحط والجدب والحريق والفيضانات والزلازل وغيرها ﴿ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الحديد] المصيبة فى النفس هى المصيبة الخاصة بالشخص كالمرض والموت وفقدان الأهل أو المال .

فالمصيبة فى الأرض عامة وفى النفس خاصة ، وقد تأتى المصيبة فى النفس عامة كالقحط والفيضانات ، لأن الذنوب قد تحدث من الشخص فتأتى المصيبة خاصة به ، وقد تعم ويقع فيها كثير من الناس ، فتأتى المصيبة أيضاً عامة كما حدثت الذنوب عامة .

فالحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى] وهذه من رحمة الله بعباده . ويشرح لنا هذه المسألة فى آية أخرى فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥) ﴾ [فاطر]

فمن صفاته تعالى الرحمة ، ومن أسمائه الرحمن الرحيم ، لذلك شرع لنا مواسم للرحمات ، فالجمعة إلى الجمعة ، والصلاة إلى الصلاة ، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجْتُنِبَتْ الكبائر [١] .

إذن : الحق سبحانه يريد لنا الرحمة والمغفرة ولا يريد لنا العنت ، والمصيبة لا تنزل إلا بما كسبت أيدى الناس . وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ..(٤١) ﴾ [الروم]

وتأمل مثلاً ما نعانيه الآن من تلوث الماء والهواء بل وكل شىء

---

(١) هذا مضمون حديثين ، أولهما أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٤٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر » . وثانيهما أخرجه أحمد فى مسنده (٨٨٣٠) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

فى حياتنا ، إنه نتيجة طبيعية لتجاوزات الناس . وقد أبدع الخالق سبحانه هذا الكون كله بكلّ ذرة فيه على هيئة الصلاح ، ثم أوصانا بأنْ نحافظ على هذا الصلاح ، فقال : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الأعراف]

وقوله سبحانه : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾[فاطر] دلّ على سعة رحمة الله ، فلولا هذه الرحمة لهلك كلّ ما يدب على الأرض بشؤم معصية البشر ويشرح لنا هذه النقطة الحديث القدسى : « ولولا أطفال رُضّع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رُتّع لَصببتُ عليكم العذاب صبّاً »[1] فنحن إذن مرحومون بضعفائنا ، لذلك قال : بضعفائكم تُرزقون[2] .

وقوله سبحانه : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ .. (٢٢)﴾[الحديد] يعنى : مُسجلة عندنا مقدورة ومَقْضية ، والفرق بين المقدور والمقضى : القضاء حكم لازم لا دخْلَ لك فيه ، أما القدر فحكم لك فيه اختيار ، ولكن الله تعالى علمه أزلاً فكتبه مقدماً .

مثلاً وزير الزراعة يقول : قدّرنا محصول القطن هذا العام كذا قنطار ، ثم تأتى للقطن آفة فلا يأتى بهذا المحصول الذى حدده الوزير ، لأنه يقدِّر حسب علمه بظواهر الأشياء ولا دخلَ له بالغيبيات ، لذلك

---

(١) أخرجه البزار مرفوعاً ولفظه « لولا أطفال رضع ، وعباد ركع ، وبهائم رتع لصبّ عليكم العذاب صباً » ذكره فى كشف القناع عن متن الإقناع ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٤٥٨) عن أبى هريرة .

(٢) عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبى ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨١) .

يأتى تقديره خطأ .

أما الحق سبحانه وتعالى فإذا قدّر شيئاً فلا بد أنْ يأتى الواقعُ موافقاً له ، فالقدر إذن شيء قدّره الله ولك فيه اختيار علم الله هذا الاختيار فكتبه قبل أنْ يقع منك .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالمعلم الذى يتوقع لتلميذ من تلاميذه أنْ يكون متفوقاً فى امتحان آخر العام ، لقد حكم هذا الحكم بناءً على ما لاحظه على تلميذه من الذكاء والاجتهاد ، فالمقدمات تؤكد هذا الحكم ، لكن يأتى الامتحان ويُصاب التلميذ بدوار أو شيء طارئ فلا يحقق ما توقعه أستاذه .

إذن : جاءت النتيجة مخالفة لتوقع الأستاذ لخلل فى علمه ، أما الحق سبحانه وتعالى فله صفات الكمال وعلمه لا خلل فيه .

وقد شرحنا هذه المسألة أيضاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه الآيات وقد كان بوسعه أنْ يؤمن كما آمن أمثاله : عمر وخالد وعمرو وعكرمة ، لكن هذا حكم الله أزلاً وقدره الذى علمه مقدماً أن أبا جهل لن يؤمن وأنه سيختار الكفر ، فالله تعالى لم يفرض عليه الكفر ولكن تركه لاختياره .

وقوله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] أى : من قبل أنْ نخلقها ونبرزها فى عالم الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد]

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ[1] وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا هنا ألاَّ نأسى وألاَّ نحزن على ما فات ، وما دام أن الأمر من الله بقضائه وقدره فلا يناسبك إلا التسليم والرضا ، لأن الحزن لن يغير الواقع ولن يعيد ما فات ، لذلك عندنا فى الفلاحين يقولون : العايط فى الفايت نقصان من العقل .

لذلك نقول للمرأة التى فقدت زوجها أو عزيزاً عليها وبالغت فى الحزن ولبس السواد : بالله عليك هل سيعيد الحزن ما فات ؟ ثم احذرى أنْ تألفى الحزن وتعشقيه فيُديمه الله عليك ، لأن الله تعالى يعين عبده على ما يريد وعلى ما يحب ، لذلك يختم على قلب الكافر حتى لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر ، ففى الرضا إذن سعة للمؤمن .

وكذلك الحال فى الفرح : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..﴿٢٣﴾ ﴾[الحديد] لأنك لا تدرى عاقبة ما آتاك الله من النعمة أتُوفَّق فيها أم لا ؟ أتعينك على الطاعة أم تفتح عليك باب معصية ؟ إذن : هى فى الواقع فتنة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾[الأنعام] فليست النعمة بالضرورة دليلاً على رضا الله

---

(١) عن ابن مسعود أن نبى الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد] والحديث أخرجه ابن بطة فى الإبانة الكبرى (حديث ١٤٣٩) ولفظه « والذى لا إله غيره لا يذوق أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه » .

على العبد ، لذلك نرى كثيراً من أهل المعاصى والبُعْد عن الله فى سعة من الرزق يمد يده فى التراب فيصير ذهباً ، لماذا ؟

لأنهم لما نسُوا ما ذُكِّروا به نريد أنْ نعاقبهم ، وكيف نعاقبهم ؟ نرفعهم إلى أعلى منزلة حتى إذا أخذناهم كان الأخذ مؤلماً شديداً .

وسبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع شخصاً لا توقعه من على الحصيرة ، بل لا بد أنْ ترفعه إلى أعلى ، وكلما رفعته كان السقوط مؤلماً .

حتى فى المعنى اللغوى يقولون : فتح له غير فتح عليه ، لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾[الفتح] (لك) أى : فتح فى صالحك لكن ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..㊹﴾[الأنعام] أى : ضدهم وفى غير صالحهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ..㊹﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..㉓﴾[الحديد] لأنه قد يكون فتنة لك وابتلاءً ، فيكون غيرك ممَّنْ حُرم خيراً منك وأحسنَ حالاً . والحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا : لا تأسوا ولا تفرحوا يريد أنْ يحفظ نفوس المؤمنين عما يُكدِّرها أو يُخرجها عن حال السلامة .

لذلك علماء النفس لما تكلموا فى هذه المسألة قالوا : ينبغى على الإنسان ألاَّ يتأثر بالحزن ولا بالفرح تأثراً يُخرجه عن الطبيعة والاعتدال ، لأن الأحداث تمر بك وأنت عُرْضة فى رحلة الحياة لأنْ تحزن أو تفرح .

والتأثر بذلك والانفعال به يُحدث فيك تغييراً ، فالحزن يجعلك

تنقبض ، والفرح يجعلك تنبسط ، وأىّ عضو له كيان مخصوص لا يحب القبض ولا البسط ، فاحذر الحالتين والزم الاعتدال ليظلّ كيانك فى سلامة الفطرة وصلاح الجسد .

لذلك قال الشاعر فى هذا المعنى :

فَكُنْ رَجُلاً كَالضّرس يرسُو مكانه ليمضغ لاَ يَعنِيهِ حلْوٌ وَلاَ مُرّ

والنهى عن الفرح هنا يُقصد به الفرح المذموم ، وهو الفرح الذى يدعو صاحبه إلى التباهى والغرور ويحمله على التعالى والتكبر ، الفرح الذى يورث صاحبه بطراً وغطرسة ، ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة]

أما الفرح المحمود فهو الذى يُورث صاحبه انكساراً لصاحب النعمة ، ومنه قوله تعالى عن أهل الطاعات : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد] أى : كلّه فرح يدعوه فرحه إلى الخيلاء وإلى التفاخر والتعالى . والخلاصة أن الأمور ما دامت بقدر وبقضاء ، وما دامت فى كتاب من قبل أنْ نبرأها[1] ، وما دُمتَ لا قدرةَ لك على استعادة ما فات ولا تضمن ما هو آت ، فالزم جانب الرضا والتسليم والاعتدال ، ولا مانع أنْ تفرح ، لكن الفرح الذى لا يؤدى إلى التعالى والخيلاء .

---

(١) نبرأها : نخلقها . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن نخلق المصائب ونقضيها . [الماوردى فى تفسيره] وقال ابن كثير فى تفسيره : « أى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة » وقال بعضهم : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليه » .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ[1] وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا إلى معنى آخر وهو الإنفاق فى سبيل الله ، يريد سبحانه أنْ يُوسع قبضة المؤمن فى العطاء لإخوانه المؤمنين ، وقد جعل سبحانه الأمر بالإنفاق على مراحل : أولاً أمر القادر أنْ ينفق على غير القادر ، وهنا ينهى غير القادر عن أنْ يُثبطوا القادرين ويُزهِّدوهم فى العطاء .

فالإنسان قد يكون بخيلاً فى ذاته فيمسك يده عن العطاء ، وقد يتعدّى بُخله إلى غيره فيدعو غيره إلى أنْ يمسك يده ، أو يكون هو فقيراً ليس عنده ما يبخل به فيقول لغيره : لا تنفق واترك شيئاً لأولادك . على حدّ قول الفلاحين عندنا : (فلان لا بيرحم ولا يسيب رحمة ربنا تنزل) .

وهذه المسألة حدثت فى عهد رسول الله ﷺ ، لما قال المنافقون على أهل الصُّفَّة[2] : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

---

(١) ورد فى المقصود بالبخل هنا عدة أقوال :
- الذين يبخلون بالعلم . قاله سعيد بن جبير .
- البخل بأداء حق الله . قاله زيد بن أسلم .
- البخل بالصدقة والحقوق . قاله عامر بن عبدالله الأشعرى .
- البخل بما فى يديه . قاله طاوس .

وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، وكلها صحيح والأمر يجمع الأقوال كلها .

(٢) أهل الصُّفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفة : الظّلة . [لسان العرب - مادة : صفف] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. (٢٤) ﴾[الحديد] يعنى : أنهم كانوا أغنياء عندهم ما ينفقون ولكنهم بخلوا به ، ثم تعدّى بُخلهم إلى غيرهم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ .. (٢٤) ﴾[الحديد] لذلك تحمل هؤلاء وزر بُخلهم ووزر بُخل غيرهم ، ومنعهم من الإنفاق .

ثم تقرر الآيات هذه الحقيقة : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. (٢٤) ﴾[الحديد] يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾[الحديد] يعنى : لا يهمنا بخلكم لأنكم تبخلون فى الواقع عن أنفسكم لأن المال مال الله والملك مُلكه ، وهو الغنى الحقيقى وهو الرازق للعباد .

وإنما فتح لكم مجال الإنفاق لتتماسكوا وتتكاتفوا فى رحلة الحياة ، وليقض على مشاعر الحقد والحسد من الفقير للغنى ، فالفقير حينما يجد فى المجتمع مَنْ يعطيه ويمدّ له يد المساعدة ، يحمد الله ويرضى بقضائه ، واليتيم حينما يجد مَنْ يحنو عليه تكون ثقته فيمَنْ أخذ كثقته فيمَنْ وهب فيعيش راضياً .

إذن : جاء الأمر بالإنفاق لأنه يعين المؤمن على إيمانه ويُحبِّب الناس فى شرع الله ويُرضيهم بقضائه ، فإنْ بخل القادرون فالمؤمن يعلم جيداً قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .. (٦) ﴾ [هود]

وينبغى هنا أنْ نفرق بين البخل والشح : البخل أنْ يبخل الإنسان على غيره لكنه كريم على نفسه ، أما الشح فهو يبخل على غيره وعلى نفسه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل ، فيقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ(١) فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

بيّنا أن الرسول هو من أوحى إليه بشرع يعمل به فى نفسه ويُبلغه قومه ، أما النبى فهو مَنْ أوحى إليه بشرع يعمل به دون أنْ يُؤمر بتبليغه .

إذن : الأنبياء الذين ليس لهم كتب ولا معجزات ، بل كانت معجزاتهم معجزة مَنْ كان يعمل على مقتضى دينهم .

وآدم عليه السلام أول نبىّ وأول رسول ، لكن كيف وقد حدثتْ منه المعصية حينما أكل من الشجرة ؟ قالوا : حدثت منه المعصية قبل ذلك ، وجاءت المعصية منه ليتعلم ضرورة تطبيق المنهج ، وأنه إذا أخلّ بالمنهج ظهرت عورته فتعلم آدم هذا الدرس وعلَّمه ذريته من بعده .

---

(١) القرآن يقطع بأن الحديد أُنزل إلى الأرض ، وهذا هو ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة فقد سئل البروفيسور أرمسترونج وهو أحد أربعة فى وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) : كيف خُلق الحديد فى الأرض ؟ فقال : الحديد يستحيل أن يكون خُلق فى الأرض لابد أن يكون قد خلق فى السماء وأنزل إلى الأرض . لماذا ؟ قال : لأن تكوين ذرة حديد واحدة لما حسبناها وجدنا أنها تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات ، فالحديد عنصر وافد من الكون .

وبعد ذلك تاب الله عليه واجتباه للنبوة وللرسالة ، قال تعالى :
﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

إذن : الاجتباء جاء بعد المعصية وهو بداية الرسالة والبلاغ ، لكن مَنْ يبلغ وهو ما يزال وحده ؟ قالوا : هذا مثل قوله تعالى :
﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : تعلّم آدم المنهج أولاً لنفسه ، ثم لما جاءتْ الذرية بلغهم الرسالة وعلّمهم القيم والأخلاق لكن مع مرور الزمن تطرأ الغفلة على الناس ويكثر عددهم فيحتاجون إلى رسالة جديدة تذكرهم .

وقد لخص القرآن الكريم هذا الدرس الذى تعلَّمه آدم من معصيته فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

إذن : فاتباع منهج الله هو الذى يحفظ على الإنسان أمنه وسلامته ويجعله سعيداً فى دنياه سالماً فى أخراه ، أما مَنْ أعرض فله معيشة ضنكاً . والضنك لا يعنى الضيق والفقر كما يظن البعض .

الضنك معنى أوسع يشمل كل حركة الحياة تجد فيها ضيقاً ، لذلك عندما عملوا إحصاء لأكثر دول العالم غنىً فكانت السويد ، ومع ذلك وجدوها أكثر الدول أيضاً فى عدد المنتحرين والذين يصيبهم الجنون .

إذن : المسألة ليست مسألة الرزق والأكل والشرب ، ونحن نرى كثيراً من الفقراء يأكلون اللقمة ويحمدون الله عليها ، نراهم راضين

سعداء وهم يرونْ بذخ الأغنياء من حولهم .

فليس الفقـر ضنكاً ، إنما الضنك حـالة نفسـية وشعـورية يضيق فيهـا الصدر لا الرزق ولا يجد صاحب هذه الحالة فـكاكاً منها وتظل تُطبق عليه حتى تُلجئه إلى أنْ يُنهى حياته ليستريح .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

لَيْسَ الحِـملُ مَـا أطاقَ الظّهـر ... مَـا الحِملُ إلاَّ مَا وَعَـاهُ الصَّـدْرْ[1]

إذن : جاء آدم برسالة ومنــهج علَّمه وبلَّغه ذريته ، لكن لمـا كَثُر الناس وحدثتْ الغـفلة وتباعـدتْ المسافـات بين المجـتمعـات ، وكذلك تعددتْ الداعات فى كلٍّ مجتمع لذلك تعددتْ الرسل .

قال تعـالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٥) ﴾[الحديد] أى : الآيات الواضحـات التى تلفت الناس إلى وجـود الحق سبحـانه وتؤيد الرسل الذين بعثهم الله لهداية الخلْق .

والآيات إما كونيـة وإما معجزات تؤيد الـرسل ، وإما آيات الكتاب الحكيـم ، وهى التى تحـمل المنهج وتحـمل الأحكام من الله لـلخلق ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ .. (٢٥) ﴾[الحديد] أى : الكتب التى نزلتْ من عند الله ، والكتاب هو الشيء المكتوب .

﴿ وَالْمِيزَانَ .. (٢٥) ﴾[الحديد] أى : ميزان الحق الذى يزن الأشياء

---

(١) بنحو هذا البيت جاء بيت لأحمد شوقى أمير الشعراء :

ليس بحمل ما يملُّ الظهر ... ما الحمل إلا ما يعانى الصدر

وهو من قصيدة من بحر الرجز عدد أبياتها ١٢ بيتاً أولها :

كان على بعض الدروب جمل ... حمَّله المالك ما لا يُحمل

ويُحدِّدها ويُبيِّنها ، والميزان لا يخصّ الأشياء المادية التى لها كثافة فقط ، بل ميزان يزن بالحق كل شيء مادى ومعنوى فقال فى الماديات : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (١٥٢) ﴾[الأنعام] وأمر بإقامة هذا الميزان فى كل شىء .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ .. (٥٨) ﴾[النساء] حتى فى المحاكم تجدهم يتخذون الميزان رمزاً للعدالة ويرفعونه شعاراً لهم ، والميزان له كفتان متساويتان ليدلّ على الحكم العادل .

والميزان الذى جاء به الرسل هو الميزان الذى يُميز بين الحق والباطل ، فما دامت هناك رسل وآيات بينات ومنهج ينفع الناس وينظم حياتهم ، فلا بدّ أنْ تستقيم حركة الحياة .

لذلك قال حذيفة[١] : لقد مرّ علىَّ زمان ما كنتُ أبالى أيكم بايعتُ ، فلئن كان مسلماً ليردّنه علىَّ دينه ، وإنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه علىَّ ساعيه - والساعى الذى يرقب حركة الناس ويتابعها - أما اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[٢] .

إذن : لا تستقيم الأمور إلا فى ظل هذا المنهج ، ولا سعادةَ

---

(١) هو حذيفة بن اليمان ، أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل أبى حذيفة صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره ، استقدمه عمر إلى المدينة ، ثم أعاده إلى المدائن فتوفى فيها . له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . توفى ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) من قول حذيفة ضمن حديث رسول الله ﷺ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٦) عن رفع الأمانة ، وأن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال وأنه ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك » الحديث .

للخلق إلا بـه ، فـإنْ طمس هذا المنهج فـلا بدّ أنْ يـحـدث الخلل فى الميزان، فيصير الحق باطلاً والباطل حقاً .

وعندنا فى سـاحات المحـاكم تجد للمـحامين ألاعـيب ، منهم مَنْ يعتمد على لباقته فى إظهار الحجة حتى ولو بالباطل ، وتناسى حديث سيدنا رسـول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختـصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم يكون ألحنَ بحجـته - كما يقولون (كذب مـساوى ولا صدق منعكش) فمَنْ قضـيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً بقـوله ، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها »[1]

إذن : ردَّ رسـول الله الميـزان إلى الدين والشـرع ، وإلى الكتـاب والبينات ، فمَن التزم بـالكتاب والبينات لم يكُنْ عنده حقّ وباطل ، بل هو حقّ واحد بيِّن ليس غيره ، فـإذا اختلف الناسُ فى البينات فلا بدّ أنْ ينشأ الباطل فيأتى الميزان ليميز بين الحق والباطل .

لذلك قال سبـحانه بعدها : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : العدل ، فالكتاب للتشريع وتنفيذ الأحكام ، والميزان للغفلة إنْ حدثت أو المخالفة ، فيبيِّن الحق والباطل .

وما دام يقوم الناسُ بالقسط والعدل كلّ الدنيا ترتاح ، إما قسط نابع من ضمير الأفراد ، وإما قسط من القضاء الذى يحكم بينهم ، لذلك قلنا : إنه من المصلحة فى التقاضى وبيـان لحقوق ألاّ تطول مدة التقاضى لأن طول مدة التقاضى تزيد من ظلم المظلومين وتُغرى الظالم بالتمادى .

وبطول أمد التقاضى تبهت الجـريمة وننسى المقتول ولا نذكر إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحه (٢٢٧٨ ، ٢٤٨٣ ، ٦٤٥٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٢٣٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

القصاص من القاتل ، وكأننا نعتدى عليه وننشىء جريمة أخرى ، وهنا تنشأ عواطف تدعو إلى الرحمة بالقاتل فيختل الميزان .

لذلك حذرنا القرآن من التهاون فى هذه الحقوق ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ..۝٢﴾ [النور] لأن الشفقة بالمجرم تدعو إلى استشراء الجريمة والإفساد فى الأرض .

ثم جعل إقامة الحدود علانية ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور] لماذا ؟ ليقوم الناس كلّهم بالقسط ساعة يرون الحكم العادل يُطبق فى وقته المناسب الذى يُحدث ما يراد منه من الردع .

أما إنْ سلك المحامى طريق الضلال ووقع القاضى فى منزلق الرشوة فلا بدّ أنْ يفسد حال البلاد والعباد . ويُحكى فى أيام المهدى[1] الخليفة العباسى أنه ولّى القضاء رجلاً شهد له بالنزاهة اسمه قامح إلا أنه فى يوم دخل على الخليفة ، وقال له : يا أمير المؤمنين أقلْنى من القضاء ، فقال له : ولمن يكون العدل بعدك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين لم أعد أضمن نفسى فى القضاء فكما وثقتَ فىَّ ووليتنى فثقْ فىَّ أيضاً حينما أطلب منك أنْ تقيلنى ، وأنا لا أخلو عن حالين : إما كاذب وإما صادق ، فإنْ كنتُ كاذباً فلا تُبْق على قاض كذاب ، وإنْ كنت صادقاً فاقبل منى .

فقال له : إذن قُلْ لى ما سبب ذلك . فقال : خصمان عِرضا علىّ

(١) المهدى العباسى هو محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على العباسى أبو عبد الله المهدى بالله من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ، ولد بإيذج [من كور الأهواز] عام ١٢٧ هـ وولى بعد وفاة أبيه وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهراً ، مات فى ماسبذان صريعاً عن دابته فى الصيد وقيل مسموماً عام (١٦٩ هـ) . [الأعلام للزركلى ٦ / ٢٢١]

ولكل منهما حجته حتى أننى لم أحكم بينهما وكنت أؤجل هذه القضية مخافة أنْ أظلم ، وفى يوم من الأيام دخل علىَّ خادمى بطبق من رطب فلما سألتُه عن صاحبه وصفه لى فعرفتُ أنه أحد الخصمين فرددتُ إليه طبقه وقد اشتهر عنى أنى أحب الرطب .

وفى اليوم التالى وقف أمامى الخصمان فما استويا فى نظرى ووجدتُ فى نفسى ميلاً إلى صاحب الطبق مع أنى رددته عليه .

إذن : أنزلنا ﴿الْكِتَابَ ﴿٢٥﴾﴾[الحديد] للملتزم ﴿وَالْمِيزَانَ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] الذى يفرق بين الحق والباطل لغير الملتزم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] جميعاً ﴿بِالْقِسْطِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] فحين يُقتصّ من القاتل وتُقطع يد السارق لا يجرؤ أحدٌ على القتل ولا على السرقة . ولم يقُلْ ليقوم المؤمنون بالقسط إنما الناس كلّ الناس .

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] أى : كما أنزلنا الكتاب وأنزلنا الميزان أنزلنا كذلك الحديد ، فالحديد وإنْ كان مكانه الأرض إلا أنَّ أصله من أعلى ، والحديد إشارة للقوة فمَنْ لم يردعه القرآن يردعه الحديد .

لذلك قال : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن(١) ، فالعاقل تردعه البينة والجاهل لا يردعه إلا السيف والقوة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ كما أعطيناك القرآن أعطيناك الحديد والسيف فافعل به ما تشاء وجَابِه به الكفار والعصاة

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (حديث ١٤٢٨٤) باب الإمارة عن عمر قال : والله ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وعزاه للخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الذين لا يُردعهم الكتاب ، وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

أَنَاة وحِلْم ثم عَـقب بَـعْـدَهَا وَعِـيداً فَإِنْ لَـمْ يُغْنِ أغْنَتْ عَـزَائِمـه[2]

وقال الآخر :[3]

فَمَـا هُوَ إلاَّ الحلم أَوْ حَـدّ مُرهَف تُقـيـم ظبـاه[4] أَخْدَعَىْ كُـلّ مَائل
فَــهَـذَا دَوَاءُ الــدّاء مِنْ كُلّ عَـاقل وَذَاكَ دَوَاءُ الدَّاء مِـنْ كُلّ جَـاهِل[5]

وقوله تعالى ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ..(٢٥)﴾[الحديد] دلّ على أن الحديد أقوى عُدة فى الحياة ، والواقع يؤكـد ذلك ، فمن الحديد نصنع الفأس والمحراث وكلّ الآلات التى تُستخدم فى القـوة والحفر والحمل وغيره ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾[الحديد] فمع قـوته فيه نفع مـثل السكاكين والملاعق وغيرها من الأدوات .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولى ، كـاتب العراق فى عصره أصله من خراسان ولد (١٧٦ هـ) . كان جـده من رجال الدولة العباسـية ودعاتهـا . له ديوان الرسائل ، وديوان شعر وكتاب الدولة . توفى عام ٢٤٣هـ عن ٦٨ عاماً .

(٢) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

أناة فإن لم تُغن أعقب بعدها وعيداً فإن لم يجد أجدت عزائمه

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل من بيت واحد . منسوب للصولى .

(٣) هو حبيب بن أوس الـطائى أبو تمام ، ولد بجاسم (من قرى حـوران بسورية) عام ١٨٨ هـ - نزل مصر وبغداد والموصل ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام ، فى شعره جزالة وقوة .

(٤) ظُبة السيف : طرفه . ويُجمع على الظُّباة والظُّبين . [لسان العرب - مادة : ظبب]

(٥) البيتـان من قصيدة لأبى تمام من بحر الطويل عـدد أبياتها ٣٢ بيتاً ، وهما فى الـموسوعة الشعرية :

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف تُمـيل ظبـاه أخدعـى كل مائل
فهـذا دواء الداء من كل عـالم وهـذا دواء الــداء من كـل جاهـل

ثم هناك مهمة أخرى للحديد ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] وهنا إشارة إلى السيف الذى تكون به النصرة ، فالسيف لمن لم يجد معه الكتاب والبينات .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] أى : علم الواقع وإلا فالله تعالى يعلم كل شىء أزلاً ولا يخفى عليه خافية ، فليس المراد علم تقدير إنما علم واقع .

وقال : ﴿ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ..(٢٥)﴾ [الحديد] لأن نُصْرة الله نُصْرة لرسل الله ونصرة رسُل الله نُصرة لله ، لذلك قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢)﴾ [المائدة] وقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠)﴾ [النساء] لأن هنا تداخلاً فى الأحكام .

هناك أحكام قالها الله تعالى وقالها رسول الله ، وأحكام خاصة بالله وحده ، وأحكام خاصة برسوله ﷺ ، لذلك كرَّر الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسوله ، ومعلوم أن السنة فصَّلَتْ ما أجمله القرآن .

وقوله ﴿ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] بالإيمان بالغيب ومشهد السيف ، هذا يدافع عن قضية غيبية هى القيامة والله الذى لا تراه يدافع عن قضية غيبية ، إنما عندما يحيى الملَك بالكتاب أو السيف .

لذلك لما أصرَّ الكفار على كفرهم قال الله لرسوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٩)﴾ [النجم] فالهمزة فى أعرض همزة الإزالة يعنى : دعهم وانصرف عن دعوتهم بالآيات والبينات .

ومعنى نصرة الله كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ .. (٧)﴾ [محمد] إن تنصروا الله بقوتكم ينصركم بقوته ، إذن : أنت ما

عليك إلا أنْ توجه ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ..(١٧) ﴾[الأنفال]

فالله تعالى قادر على إبادة هؤلاء الكفار فى لمح البصر ، فلماذا الحرب؟ قالوا : لو أهلكهم الله بأمر غيبى وبدون تدخّل المسلمين فى حرب لقالوا آية كونية ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ..(١٤) ﴾ [التوبة] بأيديكم أنتم فيكون الأمر أنكى .

وتختتم الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد] تؤكد أن الله تعالى هو صاحب القوة وصاحب العزة ، حتى لا نفهم من قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] أن الله يحتاج إلى النصرة من خلقه .

فالله هو ذو القوة الغالب العزيز الذى لا يُغلب ، وإنما قال لكم : انصرونى لتكون أيديكم فى يد الإمام وتكون النصرة بكم رفعة لكم ، وحين يُقهر الأعداء يقهرون بكم ويذلون لكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٢٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى خص نوحاً عليه السلام بالذكر لأن رسالته بطبيعتها كانت رسالة عامة ليست عامة فى الزمان والمكان ، وإنما عامة لخصوص مَنْ حملهم معه فى السفينة ، وإبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء وهو الذى وفَّى .

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾[الحديد] فكلُّ الرسل

جاءوا من هذه الناحية ﴿ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾[الحديد] فلما جاءهم النبوة والكتاب وبلغتهم الرسالة ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ .. (٢٦) ﴾[الحديد] كعبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود ، ومع ذلك لما بلغته دعوة محمد آمن به قال : والله لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[1] .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾[الحديد] فأقلُّهم مهتد وأكثرهم فاسق، لذلك لما أراد عبد الله بن سلام أنْ يعلن إسلامه ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْت[2] ولقد انشرح صدرى للإسلام وأخاف إنْ أسلمتُ أنْ يقولوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى .

فلما جاءوا رسول الله قال لهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، فقال ابن سلام : أما وقد قالوا ما قالوا فإنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت سفيهنا وابن سفيهنا .

فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك أنهم قوم بُهْت[3]؟

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره لآية ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ (٢٠) ﴾ [الأنعام] أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : كيف هذه المعرفة ، قال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابنى ومعرفتى بمحمد أشد من معرفتى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حق من الله تعالى وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت .

(٢) قوم بُهت : كاذبون . والبُهت : الكذب . والبهتان : الباطل . والبهت أيضاً التحيُّر قال أبو إسحاق : البهتان الباطل الذى يتحير من بطلانه . [لسان العرب – مادة : بهت] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾[الحديد] أي : خارجون عن الطاعة .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم .. (٢٧) ﴾[الحديد] أي : أتبعناهم وجئنا من بعدهم ﴿ بِرُسُلِنَا .. (٢٧) ﴾[الحديد] أي : رسل متتابعين بعضهم في إثر بعض ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٢٧) ﴾[الحديد] وأتبعنا هؤلاء الرسل عيسى بن مريم عليه السلام .

إذن : نوح وإبراهيم مرحلة ، والرسل بعد إبراهيم مرحلة ، وعيسى عليه السلام مرحلة وهو آخر الرسل قبل رسالة محمد ﷺ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ .. (٢٧) ﴾[الحديد] كتاب سيدنا عيسى عليه السلام .

ثم يصف أتباعه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الحديد] الرأفة هي التي تزيل الآلام والشقاء ﴿ وَرَحْمَةً .. (٢٧) ﴾ [الحديد] والرحمة أنْ تعطى بالزيادة والإحسان .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا .. (٢٧) ﴾[الحديد] الرهبانية هي المبالغة في التعبد ، وقد بالغ أتباع عيسى في التعبد ، فانقطعوا في الصوامع

وحرموا أنفسهم من النساء ، وقد وردتْ الرهبانية فى كتاب ألَّفوه سنة ١٩٣٥ ، هذا الكتاب تكلم عن وادى النطرون وعنوان الكتاب : وادى النطرون ورهبانه ، وقالوا : إن الرهبانية وُجدت من بعد عيسى بمائة وخمسين سنة[1] .

ومعنى ﴿ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] جاءوا بها من عند أنفسهم وألزموا أنفسهم بها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] ما فرضناها عليهم ، بل فرضوها على أنفسهم للتقشف والزهد والانقطاع للعبادة .

وهذه أمور طيبة فى حد ذاتها لكن لم نكتبها عليهم لأنها تتعارض وطبيعة الإنسان العادى الذى لا تستقيم حياته إلا بأن يأخذ من كلٍّ بطرف ، يأخذ من الدنيا ويأخذ من الآخرة ، أما مسألة ترك النساء فهى تتعارض مع عملية التكاثر وإعمار الكون التى أمر بها الحق سبحانه .

وهذه الرهبانية لما ابتدعوها ابتدعوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] لكن الآفة أنهم خرجوا عن هذا القصد ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾[الحديد] ما حافظوا عليها وخرجوا عن حدودها حتى صاروا أسوة سيئة .

والذى يدخل فى هذا المقام مقام الإحسان عليه أنْ يراعى حدوده

---

(١) جاء هذا فى كتاب « وادى النطرون ورهبانه وأديرته » ص ٢٢ الباب الثانى (الرهبان قبل الفتح العربى) : « وقال كورزون فى كتابه (زيارات أديرة الشرق) ص ٧٦ : إن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى الميلادى حوالى عام ١٥٠ م وإن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخاً » مؤلف الكتاب (عمر طوسون) .

وألاّ يجرى عليه نقصان ، لأن النقصان هنا يفسد العقيدة ، لذلك الحق سبحانه وتعالى يُرغِّبنا فى النوافل وفى الدخول فى هذا المقام فيقول :

« ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه[1] فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورِجْله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

فالتقرب إلى الله بالنوافل دليل الحب ودليل القرب ، والحب يُدخلك فى مقام القرب ، وهذه لها مقاييس غير مقاييس الرجل العادى ، فأنت مثلاً لك معارف كثيرون ، لكن منهم أصدقاء ومنهم مقربون ، وكلّ واحد من هؤلاء له حساب . أنا مثلاً مرضت وبعضهم لم يأت لزيارتى ، وأنا لا أعتب عليهم جميعاً إنما أعتب على القريب منى الذى كان يتردد علىَّ دائماً ، ولما مرضت لم يعدنى .

أمَّا العتابُ فَبالأحبَّةِ أليَقُ وَالحبُّ يَصلُح بِالعتَابِ ويَصدُقُ[2]

كذلك الذى أدخل نفسه فى باب الود مع الله والقرب منه سبحانه لا يليق به التراجع ، ولا يليق به النكث أو حتى التقصير ، لأنه لو فعل ذلك ، فكأنه يقول لربه عزّ وجلّ : جرّبنا قربك فلم نجدك أهلاً

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٢١) والبيهقى فى السنن الكبرى ج ٣ وابن حبان فى صحيحه (٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هذا البيت لأمير الشعراء أحمد شوقى المتوفى ١٩٣٢ م . وهو من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٢ بيتاً هذا أولها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدق

للقرب ، أو جرّبنا القرب منك فلم نجده نافعاً فزهدنا فيه .

وإذا كنا لا نرضى نحن بذلك ، فهل يرضى به الحق سبحانه وتعالى ؟

لذلك نقول : احذر الدخول فى هذا المقام فلا أحدَ يُجبرك عليه فقبل أنْ تلزم نفسك به اعرف حدوده وشروطه حتى لا تورط نفسك .

إذن : الرهبانية ليست مذمومة فى ذاتها ، لكن تُذم فى حالة عدم رعايتها حقَّ الرعاية ، لذلك لما حفروا حول بعض الأديرة وجدوا بقايا لأطفال صغار ، وهذا يعنى أن الخطيئة كانت تحدث منهم .

والعبد كلما اقترب من ربه عز وجل أفاض عليه من أنواره بحسب قُرْبه ، وفى مسائل الدنيا تجد أموراً يعرفها عنك كلّ الناس ، وأموراً أخرى لا يعرفها إلا المقربون منك ، وأخرى لا يعرفها إلا الخاصة والملازمون لك .

كذلك الحق سبحانه كلما اقتربتَ منه يُعطِيكَ شيئاً من فيوضاته وإلا لاكتفى الناس بالفرائض ولم نجد مَنْ يؤدى النوافل .

لذلك تجد الخَلْق فى منازل ومقامات مختلفة يتنافسون عليها ، وكلما ارتقى الواحد منا إلى منزلة وجد مَنْ سبقه إلى أعلى منها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الرجل البلخى لما سألوه : أتشتاق إلى ربك ؟ فقال : لا ، إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] استثناء من ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] أى : لم نكتبها لأننا خائفون أنْ يُقصروا ، فأنا أريد أنْ أبقى عليهم رضوانى بمجرد الفرض يؤدونه . ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين(١) .

وقوله سبحانه : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الحديد] أخذوا أجرهم لأنهم آمنوا بمجرد أنْ جاء الرسول صدّقوه وآمنوا به ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾[الحديد] خارجون عن الطاعة وتعصَّبوا لدينهم القديم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ(٢) مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨)﴾[الحديد] وصف لهم بالإيمان ، فكيف يقول لهم بعد ذلك ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨)﴾[الحديد] ؟ قالوا : المعنى : يا مَنْ آمنتم بالله صِلُوا إيمانكم بالله بإيمانكم برسوله المبلِّغ عنه ، والمبلغ عنه الذى كنتم تتبعونه جاء رسول بعده ، وكان المفروض أنْ يبينوا ذلك حتى لا يتعصبوا للقديم .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره وعزاه للجنيد . وعزاه إسماعيل حقى فى تفسيره لأبى سعيد الخراز . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١١٣٧) وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته .

(٢) الكفل : النصيب . والكفل : الحظ والضِّعف من الأجر والإثم . وقوله ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] معناه يُؤتكم ضعفين . وقيل : مثلين . [لسان العرب – مادة : كفل] .

وقوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا.. (٢٨)﴾ [الحديد] هنا أمر بالتقوى ، وقد سبقه وصْف الإيمان وبعده أمر بالإيمان ، ذلك لأن الإيمان ليس له فائدة إلا إذا نفذتَ أوامر منْ آمنتَ به .

وقوله سبحانه : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] الكفل : النصيب والأجر ، وكفلين أجرين ونصيبين من رحمته تعالى : نصيب وأجر للإيمان بعيسى عليه السلام ونصيب وأجر للإيمان بمحمد ﷺ .

فالمراد بقوله تعالى : ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨)﴾ [الحديد] أى : برسوله الجديد الخاتم محمد ﷺ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] هو نور البصيرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ..(٢٨)﴾ [الحديد] يغفر لكم إنْ كنتم ترددتم فى مسألة الإيمان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد]

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ (١)
شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

أى : لكى لا تقولوا آمنا بعيسى ولا نؤمن بمحمد ، وتحسدونه على أنْ مَنَّ الله عليه بالرسالة ، كما قال كفار مكة : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم :

---

(١) لئلا يعلم : أى ليعلم . قال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة فى كل كلام يدخل عليه جحد . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت (لئلا يعلم) أى ليعلم أهل الكتاب (أن لا يقدرون) أى أنهم لا يقدرون . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦٧٠] .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فإذا كانوا لا يستطيعون قسمة أمور الدنيا الهيّنة أيقسمون في الأمور الرفيعة العالية ؟ ثم إن هذا فضل الله ، وفضل الله لا يقيده أحد .

﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الحديد] وحده لا شريك له ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ .. (٢٩) ﴾ [الحديد] ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف تحجرون على فضل الله وتحسدون محمداً ﷺ على ما أعطاه الله من الرسالة ، إنكم لا قدرة لكم على أمور الدنيا والتحكم فيها ، فكيف تتحكمون في أمور الآخرة ؟

ثم تُختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الحديد] نعم فضل عظيم ، لأنه سبحانه أوجدنا من عَدَم وأمدنا من عُدْم ، وتكفّل بأرزاقنا وسخر لنا الكون كله ، وجعل لنا منهجاً يحمينا من العطب ، وأرسل لنا الرسل تُذكّرنا إنْ أصابتنا الغفلة ، ثم فتح لنا باب التوبة رحمة بأهل المعاصي والذنوب ، وغير ذلك من آثار رحمته سبحانه بخلقه .
